

الانتصار للأهل السنة

وكشف مذهب أدعياء السلفية

تقديم

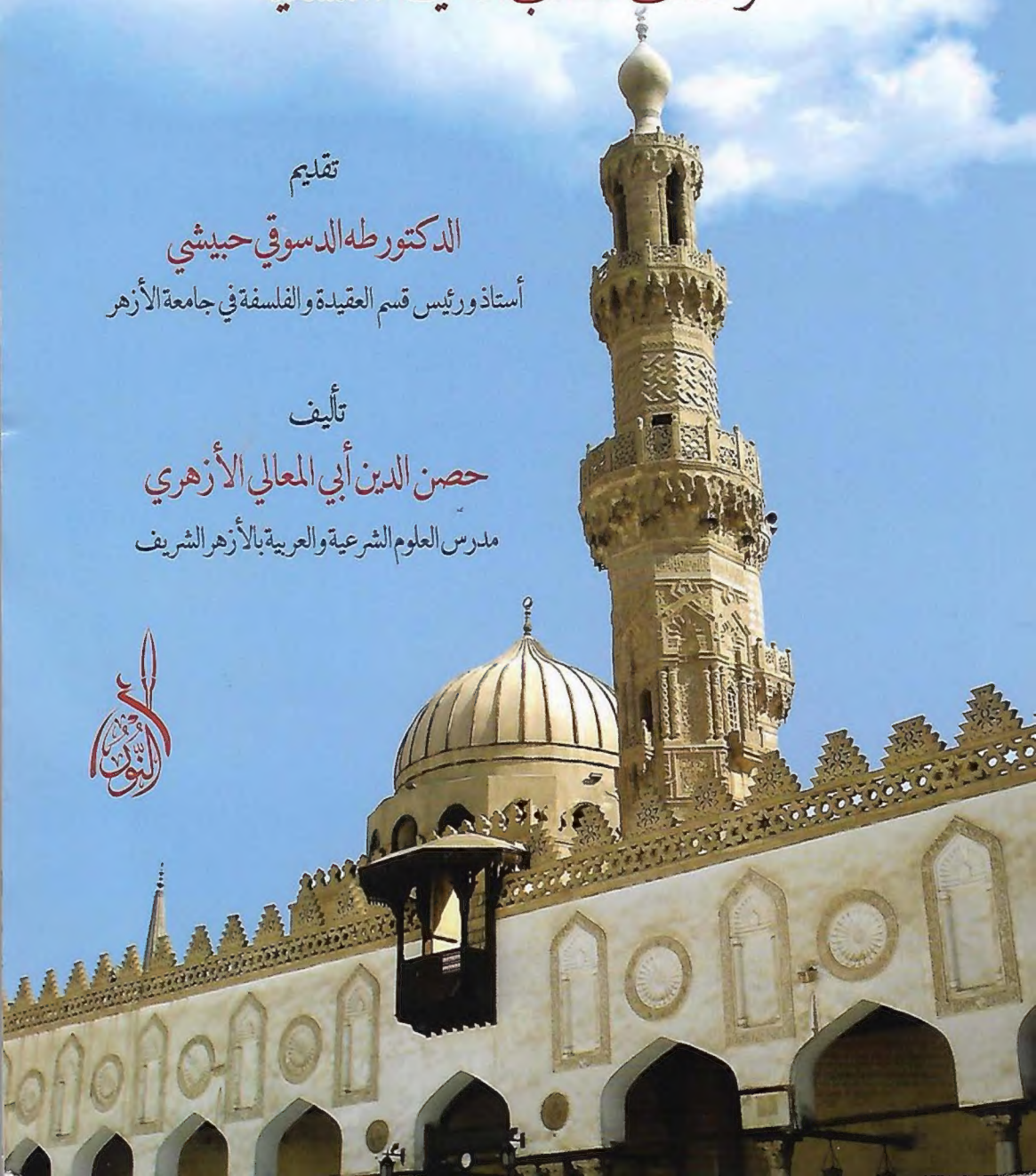
الدكتور طه الدسوقي حبيشي

أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة في جامعة الأزهر

تأليف

حصن الدين أبي المعالي الأزهري

مدرس العلوم الشرعية والعربية بالأزهر الشريف



الفهرس

الصفحة	موضوع
٧	لإهداء
٩	تقديم فضيلة الأستاذ الدكتور طه الدسوقي حبشي الأزهرى
١٣	مقدمة
٢١	باب الأول: تمهيد مهم، وإطلالة تاريخية مفيدة
٢٧	عن من تفرق المسلمين واختلافهم في بعض مباحث العقيدة
٢٩	مرآة العلماء عند ظهور مقالات أهل البدع
٣٩	ظهور الفرق وتمايزها
٤١	ظهور الإمامين: أبي الحسن الأشعري، وأبي منصور الماتريدي
٤٦	تجسيم يعلن عن نفسه
٥١	بن تيمية رحمه الله تعالى ونصرته لمذهب المجسمة
٥٧	تجسيم يسفك دماء المسلمين تحت شعار التوحيد وعقيدة السلف
٦٣	مجسمة في لباس أهل السنة يصنّفون الناس
	نأشعة والماتريديّة جمهور الأمة، علماءها وأئمتها وسرد أسماء بعضهم ومؤلفاتهم على حسب
٦٨	تخصّصاتهم، ومعرفة مؤسساتهم العلمية
٦٨	كبر مفسري الأمة من الأشاعرة والماتريديّة
٧١	كبر محدثي الأمة وحفاظها من الأشاعرة والماتريديّة
٧٣	كبر فقهاء وأصوليي الأمة من الأشاعرة والماتريديّة
٧٤	علام الأمة في اللغة والأدب من الأشاعرة والماتريديّة
٧٥	كتّاب سيرة المصطفى ﷺ من الأشاعرة والماتريديّة
٨٠	سلاطين الأمة وفاتحوها وأبطالها سابقا وحاضرا أشاعرة وماتريديّة

الموضوع

الصفحة

التخويف من اشتعال الفتنة بالرد على المجسمة	٨٢
الباب الثاني: التجسيم في الفكر الإسلامي	٨٧
الفصل الأول: التجسيم في فكر الحنابلة	٩١
السبب في اختيار الغلاة مذهب الإمام أحمد بن حنبل	٩٨
الفصل الثاني: التجسيم في فكر المحدثين	١٠١
مذهب أهل الحديث في الاعتقاد والفقه	١٠٢
معنى لقب أهل الحديث	١٠٢
أهل الحديث لهم موقفان من التجسيم: إما تنزيه، وإما تجسيم	١٠٣
الموقف الأول: موقف من يجاهر بتنزيه الله ويختار التفويض ونفي الكيف أو يختار التأويل ..	١٠٣
الموقف الثاني: موقف من يثبت بعض الأخبار المنكرة التي لا تكاد تحتل التأويل. مع الإشارة	
لبعض المنصفات التي تبنت هذا الاتجاه	١٠٦
غلط هؤلاء المصنفين على وجه الإجمال	١١٨
مثال لوقوع الاختلاف والنزاع بين أهل الحديث بسبب الاعتقاد	١١٨
الفصل الثالث: الكرامة المجسمة	١٢٣
مقالة الكرامة في التجسيم	١٢٩
عبر وفوائد ينبغي ألا تغيب عن الأذهان في دراسة مقالات التجسيم	١٣٤
الفصل الرابع: التجسيم في فكر الوهابية	١٣٧
أولاً: جهودهم في نشر المنصفات التالفة وتحقيقها وتعظيمها	١٣٧
ثانياً: ذمهم لأهل السنة الأشاعرة والماتريدية، ورميهم بالبدعة، واستباحة دمائهم وأعراضهم ...	١٤٤
الباب الثالث: قول الفريقين في قضية الصفات الخيرية	١٥٣
الفصل الأول: العقل البشري أسير الحواس وعالم المشاهدة	١٥٩
الحواس وحدودها	١٥٩
الخيال وحدوده	١٦٠

١٦١	نعتل وحدوده
	لفصل الثاني: تعريف بعض المصطلحات وما يترتب على معرفة معنى كل منها .. تعريف المعنى،
١٦٧	والحقيقة، والمجاز
١٦٩	تعريف الكيفية
١٧٠	تعريف التفويض
١٧١	مشكلة المجسمة مع هذه المصطلحات
١٧٥	قعدة جلية للإمام ابن الجوزي
١٧٧	فصل الثالث: قول أهل السنة الأشاعرة والماتريدية
١٧٧	الموقف الأول: التفويض
١٧٩	الموقف الثاني: التأويل
	نص من كلام شراح الحديث على أن التفويض والتأويل هما مذهب أهل السنة في التعامل مع
١٨٥	تشابه
١٨٨	مزيد من التوضيح لمذهب أهل السنة الأشاعرة والماتريدية في التأويل
١٩١	شبهة إثبات أهل السنة الأشاعرة والماتريدية بعض الصفات وتأويلهم البعض الآخر
١٩٨	أسس التأويل وضوابطه
٢٠١	الفصل الرابع: قول المجسمة أدعاء السلفية ومناقشتهم فيه
٢٠٨	مناقشة قولهم: الخالق أولى بكمالات المخلوق
٢١٢	إثبات الكيف والقول ببدعية التفويض والتأويل
٢١٨	تشويه صورة أهل السنة الأشاعرة والماتريدية والطعن فيهم بالباطل
٢٢٠	تحريف معاني النصوص لتماشى مع مذهب التجسيم
٢٢٤	دعوى إجماع السلف على مذهبهم
٢٢٦	تسمية التأويل بغير اسمه فرار من الإقرار بجواز العمل به
٢٢٩	التأويل عند أهل السنة الأشاعرة والماتريدية للضرورة فقط

الموضوع	الصفحة
دفع أدعياء السلفية للآثار المروية عن السلف بدون دليل معتبر إذا خالفت مذهبهم	٢٣٠
الاستشهاد بكلام أهل الكتاب في العقيدة إذا وافق مذهبهم	٢٣٢
الكيل بعدة مكايل	٢٣٦
عجائب وغرائب!	٢٣٨
نصوص صريحة في التشبيه والتجسيم	٢٤١
الفصل الخامس: النصوص المروية عن السلف في تفويض المعنى ونفي الكيفية، أو العمل بالتأويل	٢٤٧
المطلب الأول: نصوص السلف في تفويض المعنى ونفي الكيفية أصلاً	٢٤٩
وقفه مع قول السلف في نصوص المتشابهات: «أمرؤها كما جاءت»	٢٥١
شبهة وتلبيس	٢٥٩
المطلب الثاني: نصوص السلف والقرييين من عصرهم في التأويل	٢٦٣
الفصل السادس: تناقض مذهب المجسمة واضطرابه	٢٦٩
المطلب الأول: تردد المجسمة بين قبول التأويل ورفضه	٢٧١
المطلب الثاني: تناقضهم في إثبات الحقيقة اللغوية مع تفويض الكيفية	٢٧٩
المطلب الثالث: تعطيلهم بعض النصوص القرآنية والنبوية لحساب نصوص أخرى ليست أولى منها بالإعمال	٢٨٣
المطلب الرابع: ترجيحهم بعض محامل اللفظ على البعض الآخر المساوي له بدون دليل ...	٢٨٩
الفصل السابع: الكلام على الظاهر	٢٩١
أمثلة من كلام ابن تيمية عن الظواهر يلزمه بها إبطال كل ما أطال في تقريره	٢٩٥
خلاصة القول	٣٠٣
نقل ما يخص صفات الباري سبحانه من العقيدة الطحاوية	٣٠٧
الخاتمة	٣١١
ثبت المراجع	٣١٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ

إهداء

قل تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِۦ فَتُخَيَّتَ لَهُۥ قُرُوبُهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادٍ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٤].

وقل أيضا: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰ ٱللَّهُ وَٱلَّذِينَ هَدَىٰ ٱللَّهُ لَآ تَبْءُ ۚ﴾ [الزمر: ١٨].

إلى كل من يطلب الحق ويتجرد لطلبه .. لا ينتصر في ذلك لهواه ولا يتبع فيه غير
خير..

إلى كل من أراد أن يقرأ ليصل إلى الحقيقة التي تنجيه يوم القيامة .. ولا يريد أن يقرأ
عرض المجادلة والالتفاف على الأدلة ..

إلى كل صادق النية صحيح العزم في طلب الحق ..

إلى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وتحت قلوبهم للحق ..

أهدي هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمة فضيلة الأستاذ الدكتور

طه الدسوقي حبيشي الأزهري

حمد لله الذي أمر نبيه أن يتحمل عبء السفارة بينه وبين خلقه، فتحمل وأدّى
 — عى نفسه قبل رحيله الله على إقرار أمته بأنه قد بلغ فأحسن البلاغ. فصلاة الله عليه
 — وأصحابه وأتباعه ومن تبعهم بإحسان.
 ثم بعد ..

فقد درجت الأمة بعد عصر المبعث في الحديث عن العقيدة كتابة وتعلّيا ودرسا
 —. وم كان ذلك إلا لانفتاح الأمة الإسلامية على الثقافات المختلفة فيما يسمى بعصر
 — حات الإسلامية.

وفي هذه الحركة تبرزت اتجاهات مختلفة لمدارس متعددة، تحكم كل مدرسة منها
 — حى نتي اتبعها هذه المدرسة.

ويمكننا أن نحصر هذه الاتجاهات منهجيا في ثلاثة، هم: النصيون، والعقليون،
 — حثريون.

أما النصيون: هم أولئك النفر الذين يتعاملون مع النص من حيث ظاهر هذا النص،
 — كرون بحواسهم ويرتبطون بهذا التفكير لا يعدونه إلى ما وراءه قيد أنملة أو قلامة ظفر.

وقد تسلسل هذا الاتجاه في التاريخ، ويمكن أن نعتبر بدايته من الإمام أحمد بن حنبل
 — عى الله عنه وأرضاه، وتطور تابعوه في هذا الاتجاه إلى هذا العصر الحاضر.

وأما العقليون: هم أولئك النفر الذين اتخذوا من العقل منهجا في فهم النصوص.
 — حواس تلتقط والعقل يفكر ممهورا بأعلى درجات الثقة.

ويمثلُ هذا الاتجاهُ أصدَقَ تمثيل طوائفُ المعتزلة. وفكرهم قد تسلسل في التاريخ إلى يوم الناس هذا.

وبقيت هناك طائفةٌ هم طائفة البصائيرين، وهي طائفة ترى أن للإنسان خاصية وراء الحواس والعقل، يمكن أن يدرك من خلالها ما لا يدركه بالحواس والعقل.

وهذه الطائفة إن شئت أن تسميهم بالزهاد سلّمنا لك، وإن شئت أن تسميهم الصوفية فلن نبشّ بهذه التسمية.

وإجمال القول: أن الأمة قد شهدت ولا تزال تشهد هذه المدارس الثلاث تعمل عملها وتمارس فهم القضايا على أساس من مناهجها.

- وقد جاء في مجال العقيدة اتجاهٌ يمثل حركةً وسطاً بين النصيين والعقليين، يتفادى أخطاء كلٍّ منهما ويؤسس لنفسه شخصيته المستقلة، رأت الأمة فيها أن هذه الشخصية تمثل الوسط في الفكر أصدق تمثيل.

وهذه الطائفة كان ولا يزال لها جناحان، أحدهما في منطقة الشرق الأوسط وما يتصل بها، وثانيهما في شبه القارة الهندية وما يتصل بها.

أما الجناح الأول: فكان يمثلّه -ولا يزال- أبو الحسن الأشعري ومن اعتقد عقيدته وما رَسَّ منهجَه.

وأما الجناح الثاني: فكان - ولا يزال - يمثلهُ أبو منصور الماتريدي ومن لَفَّ لَفَّهُ.

وارتضت الأمة من هذين العَلَمين والمدرسة التي أسَّسَها أفكارهما ومنهجهما
والكيفية التي فهموا بها النصوص.

- أما المنهج النصي فكان دائماً -ولا يزال- يتشدد في اتباع منهجه الذي يدور على أساس من إعطاء الفهم للحواس دون غيرها. الأمر الذي ألجأ هذا الفريق إلى القول

- تجسيم بالنسبة لله صريحا أو مغلفا. وهذا الإلزام كان قد أعلن عن نفسه على استحياء في عتور الأولى لنشأة هذه المدرسة، ولكنه في القرن الثامن الهجري على الخصوص أسس منه مدرسة أطلق عليها اسم «السلفية». وهو اسم فيه من التدليس بمقدار ما يجتذب عمّة الذين يرضيهم أن يكون التفكير بالحواس لا بالعقل.

ودعوى السلفية التي ادعاها هؤلاء القوم دعوى عارية عن الصحة؛ لأن السلف منحن يمثلون اتجاهها لا مدرسة، ويحكمهم بالشرع زمان معين حدّده النبي ﷺ.

ثم توالى الأحداث فدخلت هذه الطائفة لتمثل حزبا سياسيا يرتبط بالسياسة بتحصيل الأموال في حركة تسمى بـ «الوهابية» تدّعي أنها حركة دينية، ثم ظهرت في هذا قرن الواحد والعشرين على طبيعتها الحقيقية، وهي هذه الطبيعة النفعية من جهة والسياسية من جهة أخرى.

في هذا الجو اندفع كثير من الشباب يكتبون يُعَصِّدُونَ علماء الأمة في محاولة إبراز المنهج الوسطي، ثم لا بأس أن تسميه بالمنهج «الأشعري» أو المنهج «الماتريدي» أو بهما معا، فهما جميعا يمثلان منهج «أهل السنة».

والمقصود بأهل السنة: أنهم يوافقون سنة النبي ﷺ وطريقته في جميع القضايا التي علجوها. وهم مع أنهم أهل السنة فهم أيضا يمثلون «جماعة المسلمين» من علماء في الفقه وفي الحديث وفي التفسير إلى آخره.

ومن بين هؤلاء الذين نشطوا: هذا الشاب الذي سطر هذا الكتاب الذي بين يدينا، وهو كتاب جمع من الأفكار ما نكاد نعتقد معه أنه لمس جميع القضايا. إلا أن قُرْبَهُ من هذه القضايا ينحاز إلى جانب التأريخ أكثر من انحيازِهِ إلى جانب التحليل. وهو جهد نعرفه له ولا ننكره، ونحضر الشباب على أن يحدوا حذوه ويحاكوه فيما فعل، على أساس من ضوابط المنهج وقُرْبٍ من تحليل القضايا.

وكتب هذه الصفحات يبدو أنه قد بذل جهداً وعرقاً، فشكر الله له جهده وعوّضه عما بذله من مجهود. وعلى الشباب أن يقرءوا، وما فات المصنف قد يستدرّكه في الطبقات التالية، والعصمة للأنبياء.

والحمد لله أولاً وآخراً

أ.د. طه حبيشي

أستاذ ورئيس قسم العقيدة بكلية أصول الدين

جامعة الأزهر - القاهرة

ليلة الأربعاء ١٠ شعبان ١٤٣٤ هـ

الموافق ١٩ يونيو ٢٠١٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي ليس له شريك في الملك ولا ولد .. نزه
 --- سبحانه عن مشابهة الخلق في ذاته وصفاته وأفعاله، وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ
 سَبِّحُ بُحْبُوحٍ﴾ [الشورى: ١١]، فقطع السبيل على كل ما يخطر في البال عنه. وتفرّد بصفات
 حميدة جمّة والكمال، فلا ينازعه فيها نبي مرسل ولا ملك مقرب.

نشهد أن لا إله إلا هو، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء

نشهد أن إمام المنزهين وقدوة الموحدين سيدنا ومولانا محمدا ﷺ عبده ورسوله،
 تنبّه من خلقه وخليله، أدّى الأمانة وبلغ الرسالة. أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق
 تبين على الدين كله ولو كره المشركون. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم
 حمداً إلى يوم الدين، وسلّم عليهم تسليماً كثيراً طيباً مباركاً فيه.
 ثم بعد ..

فإن تصوير الحق على أنه باطل والباطل على أنه حق في هذا الزمان لما يمجّز قلب كل
 --- غير على هذا الدين. إذ لا يخفى أن بعض المسلمين اليوم ممن يتسبون إلى السنّة
 سنية يضعون في عقيدة أكابر العلماء المتقدمين الذين حفظوا منهج السلف ومن تبعهم
 --- أهل السنّة والجماعة، ونقلوه إلينا وإفيا صافياً عبر الأجيال وعلى مر القرون، من
 --- سيد محمد ﷺ إلى يومنا هذا.

ولا يفتأ المسلم يسمع كل يوم رمي علماء أهل السنّة الأشاعرة والماتريدية بالبدعة
 --- تارة على شاشة قناة فضائية، وتارة على صفحات كُتّيب، وتارة في شريط مسجل
 --- حيث بأنه درس علمي في العقيدة!

الأشاعرة والماتريدية هو أحد مذاهب أهل البدع المخالفين لمنهج وعقيدة السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم!

وكيف لا يصدّق ذلك، والقائمون على الاتهام يتمسّحون في سُنَنِ العادات، من المبالغة في تطويل اللَّحَى وتقصير الثياب^(١). وقلوبُ العوامِ وضعافِ الطلبة تنخدع بالمظاهر، وتثق بأقوال من تظنُّ فيهم الخير والصالح، ولا تحاول التحقق من صحتها ولا البحث فيها.

والحقيقة أن صحة العقيدة لم تكن تُعرَف أو تُقاس عند أهل العلم في يوم من الأيام بالمظاهر ولا الشعارات. فكم من مبتدع ظهر في تاريخ المسلمين وهو يُظهر النسك والعبادة، ويراه العوام فيظنون أنه واحد من الصحابة أنعم الله به على زمانهم. وقد كان الخوارج الذين حاربوا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه أصدق مثال على ذلك، فقد كانوا من أكثر الناس عبادة وصلاة وصياما وذكرًا، وقال عنهم النبي ﷺ: «يحقّر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»^(٢). ووصفهم بأنهم «كلاب النار»^(٣).

لكنّ صحة العقيدة تُعرف بالاستناد إلى الأدلة والبراهين القطعية التي لا يتطرق إليها الشك ولا تتخللها الظنون.

وجاءت صفحات هذا الكتاب الذي أقدمه للقراء الأفاضل الطالبين لمعرفة الحق، عملاً بمقتضى ما روي عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله تعالى عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا لَعَنَ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَوْهًا، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ فَلْيُظْهِرْهُ، فَإِنَّ كَاتِمَ الْعِلْمِ يَوْمَئِذٍ كَكَاتِمِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»^(٤)!

(١) لا يُفهم من هذا أننا نقلل من شأن اللحية والتقصير وسنن العادات. بل الحق عندنا أن مَنْ فَعَلَ ذلك استنانا ومحبة لرسول الله ﷺ وأصحابه نحسبه مأجورا بنيتة الصالحة إن شاء الله تعالى. لكن الذي قصدناه أن المظهر ليس دليلا على صحة العقيدة أو صواب الآراء.

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم (٢٦٥٤) وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي في التلخيص (١٦٣/٢).

(٤) قال الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥/١٧): له متابعة، ثم أورده بإسناد آخر من حديث معاذ بن جبل =

– الفصل الثالث: منهج أهل السنة الأشاعرة والماتريدية في التعامل مع نصوص التشابهات.

- الفصل الرابع: منهج الوهابية أدعاء السلفية في التعامل معها، ومناقشتهم.

- الفصل الخامس: النصوص المروية عن السلف في تفويض المعنى مع نفي الكيفية، أو العمل بالتأويل.

- المطلب الأول: نصوص السلف في تفويض المعنى مع نفى الكيفية أصلاً.

- المطلب الثاني: نصوص السلف والقريين من عصرهم في العمل بالتأويل.

- الفصل السادس: تناقض مذهب المجسمة واضطرابه.

- **المطلب الأول:** تردد المجسمة بين قبول التأويل ورفضه.

- **المطلب الثاني:** تناقضهم في الجمع بين إثبات الحقيقة اللغوية مع تفويض الكيفية.

- المطلب الثالث: تعطيلهم بعض النصوص القرآنية والنبوية لحساب نصوص أخرى ليست أولى منها بالإعمال.

- المطلب الرابع: ترجيحهم لِحَمَلٍ من محامل اللفظ على محمل أو محامل أخرى بدون مرجح كذلك.

- الفصل السابع: الكلام على الظاهر.

- خلاصة القول.

- نقل ما يخص صفات الباري سبحانه من العقيدة الطحاوية.

- خاتمة وتلخيص لأهم ما جاء في الكتاب.

ولا يفوتني التنبيه إلى أن انتقاد آراء الرجال ومذاهبهم لا يعني الطعن في أشخاصهم ولا القدح في أعراضهم، وذلك حتى لا يُحمَل قولي في رأي أحدهم على وجهٍ لم يخطر لي ببال، فالله وحده يعلم ما تخفي الصدور .. ولا يفوتني كذلك التنبيه إلى أن ما يكتبه ابن آدم لا يخلو من خطأ، فالعصمة لكتاب الله وحده، يتميز بها عن سائر الكتب المسطورة، فالله وحده المرجو أن يعصم عبده من الزلل، ووحده المسئول أن يتقبل هذا العمل.

الباب الأول

تمهيد مهم وإحالة تاريخية مفيدة

الباب الأول

تمهيد مهم وإطلالة تاريخية مفيدة

إن الله تعالى أرسل محمداً ﷺ وأنزل عليه كتاباً تمس آياته شغاف القلوب الحية المتعطشة إلى معرفة الحق، فانطلق ﷺ في قومه صادعاً بأمر ربه تعالى، يبلغهم رسالته إليهم ويتلو آياته عليهم. فانفتحت له قلوب المخلصين منهم وأقبلت عليه، وأذعنت عقول ذوي الحِجَا فيهم واشترأبت إليه، لما وجدت في هذه الآيات من دلائل الحق وتزئيه الرب سبحانه عن أن يكون حجراً أو شجراً أو بشراً، أو أن يشبه شيئاً من ذلك.

وساعدَهم على قبول ما جاء به: فطرة سليمة لم تلوثها أدران المَدَنِيَّة المنحرفة، وسليقة معتدلة لم تُكَدِّرْها العُجْمَة الوافدة.. فوعوا عنه ما بلغ عن ربه تعالى وعملوا بما فيه، وعرفوا حدوده وأحكامه وأوامره ونواهيه، وجعلوه نبراساً ومنهاجاً عاشوا على اتباع هديه طوال حياتهم. وفهموا بتلك السليقة العربية الصافية ما ترمي إليه ألفاظه من المقاصد والأحكام والعبر، ولم يحتاجوا إلى علوم تساعدهم على فهمه وإدراك معانيه، ولا إلى معاجم يتبينون فيها معاني ما يقرءونه من الكتاب.

ثم إنهم بعد وفاة نبيهم ﷺ حملوا المشعل بدورهم ورفعوا الراية لتبليغ هذا الوحي إلى بقية الأمم. فوصل إلينا القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وسائر علوم الدين بأسانيد متصلة، تبدأ من المنبع الصافي والمورد الضافي -بأبي هو وأمي ﷺ- حتى تنتهي إلينا. فقد كان كل جيل يؤدي ما تحمله من القرآن والسنة والعلم إلى الجيل الذي يليه، يُلقِيه إليه بعد اعتناؤه به أشد وأجود ما يكون من العناية.

ولكن الأجيال اللاحقة لم تكن بنفس ملكات الأجيال الفاضلة الأولى، فقد اختلط العرب بغيرهم اختلاط أنساب وحضارات وثقافات، وتأثرت لغتهم بلغات غيرهم، وتكدَّرت سليقتهم الصافية بما شأبها من لوازم هذا الاختلاط، فاشتبهت عليهم بعض المعاني في الأذهان، وظهر اللحن والخطأ في الألسنة.

فاستحدث أولو العلم والعزم منهم علوما استنبطوها واستقرَّوها من إرث أسلافهم، يتلمَّسُون بها هديهم، ويرسمون لسلوكه طريقا واضحا لا يزيع عنه مبتغٍ للحق، ويقومون من خلال تلك العلوم بحفظ الدين من تحريف المبطلين وهذيان الجاهلين، الذين يتكَبِّون على فهمٍ سقيم لكلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ.

فكانوا كلما استحدث أهل البدع طريقة وشبهة يلبَّسُون بها على الناس، استحدثوا هم كذلك ردا عليهم استنبطوه من أصول الدين، ليردوا الأمور إلى نصابها، وليحافظوا على عقائد العوام من أن ينالها تشويش أو بلبلة من أهل البدع.

قال العلامة التفتازاني: «وقد كان الأوائل من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين لصفاء عقائدهم ببركة صحبة النبي ﷺ وقرب العهد بزمانه، ولقلة الوقائع والاختلافات، وتمكُّنهم من المراجعة إلى الثقات، مستغنين عن تدوين العِلْمَيْن»^(١) وترتيبهما أبوابا وفصولا، وتقرير مباحثهما فروعاً وأصولاً. إلى أن حدثت الفتن بين المسلمين، وغلب البغي على أئمة الدين، وظهر اختلاف الآراء والميل إلى البدع والأهواء، وكثرت الفتاوى والواقعات، والرجوع إلى العلماء في المهمات. فاشتغلوا بالنظر والاستدلال والاجتهاد والاستنباط وتمهيد القواعد والأصول، وترتيب الأبواب والفصول، وتكثير المسائل بأدلتها، وإيراد الشبه بأجوبتها، وتعيين الأوضاع والاصطلاحات، وتبيين المذاهب والاختلافات»^(٢) اهـ.

والذي اشتُهر بين الناس أن اختلاف المسلمين في مباحث العقيدة وانقسامهم فيها إلى فرق متعددة يعود إلى ترجمة كتب الفلسفة والمنطق الإغريقيين أيام الدولة العباسية. وفسر الكثيرون منهم اتساع حركة الترجمة بأنها انعكاس لتوقُّف حركة الفتوح الإسلامية، وانغماس الناس في الترف والمتع الدنيوية، وأن البحث في هذه المسائل العقلية نتج عن حالة من الدعة والفنور أصابت المسلمين.

والحق أن هذا جانب من الحقيقة وليس هو الحقيقة كلها. فإن اختلاف المسلمين في بعض مباحث العقيدة يرجع إلى ما قبل عهد العباسيين، بل وقبل الدولة الأموية أيضا.

(١) يقصد علم العقيدة وإثباتها والرد على شبهات المبتدعة، وعلم الفقه وأصوله.

(٢) شرح العقائد النسفية للتفتازاني، ص: (١٥-١٦).

فلقد ظهرت بواكيره في عصر الصحابة رضي الله تعالى عنهم جميعاً. وبعض الصحابة الكرام لهم محاورات ومجادلات مع أهل البدع، والبعض الآخر لم يقبلوا النقاش مع أهل البدع واكتفوا بالإنكار عليهم.

أخرج البزار والدارقطني في الأفراد وابن مردويه وابن عساكر عن سعيد بن المسيب: «أن رجلاً يقال له صبيغ كان يسأل عن التشابه في القرآن، ويكثر من تلك المسائل بين الناس، فأرسلوه إلى عمر بن الخطاب ليرى رأيه فيه،... فقال عمر من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ، فقال عمر: وأنا عبد الله عمر، وأمر بعراجين النخل^(١)، ليضرب بها صبيغا، فصرع الرجل من شدة الضرب وأغمي عليه مرات، فلما أفاق قال: يا أمير المؤمنين، إن كنت تريد قتلي فقتلني قتلاً جميلاً، وإن كنت تريد شفائي مما أصابني فقد والله شفيت، ولا أجد الذي كان برأسي»^(٢) اهـ.

وظهرت في عهدهم كذلك بدعة الكلام في القدر. وقد أنكر عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما على المتكلمين فيه.

قال يحيى بن يعمر^(٣): «كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني^(٤) فانطلقت حميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين، فقلنا لولقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوقف لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً

(١) عراجين: جمع عرجون، وهو أصل العذق الذي يعوج ويؤخذ منه الجريد.

(٢) الدر المنثور في التأويل بالمأثور (٢/٢٩٦).

(٣) يحيى بن يعمر الوشقي العدواني، أبو سليمان: أول من نقط المصاحف، ولد بالاهواز، وسكن البصرة، كان من علماء التابعين، عارفاً بالحديث والفقه ولغات العرب، من كتّاب الرسائل الديوانية، وفي لغته إغراب وتقرع، تلوى قضاء البصرة ولم يزل قاضياً حتى توفي سنة ١٢٩هـ. انظر: الأعلام للزركلي (٨/١٧٧).

(٤) معبد بن عبد الله بن عكيم، وقيل ابن خالد، الجهني البصري، أول من تكلم في مسائل القدر بالباطل في البصرة. ومن الحسن البصري الناس عن مجالسته، وقال: ضال مضل. صلبه عبد الملك بن مروان بدمشق على القول في القدر، ثم قتله سنة ٨٠هـ. وقيل الذي قتله هو الحجاج بن يوسف الثقفي بعد تعذيبه، وأتباعه يلقبون القدرية، نسبة إلى القدر. انظر: ميزان الاعتدال (٦/٤٦٥)، الأعلام (٧/٢٦٤)، وغيرهما.

المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلى، فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قِبَلَنَا ناسٌ يقرءون القرآن ويتفَقَّرون العلم - وذكر من شأنهم - وأنهم يزعمون أن لا قَدَرُ وأن الأمرُ نُفٌّ. قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنني برئ منكم وأنهم برآء مني. والذي يحلف به عبد الله بن عمر، لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قَبِلَ الله منه حتى يؤمن بالقدر،...»^(١).

وكانت بداية بدعة التشيع في عهد علي رضي الله تعالى عنه. وخرجت عليه الخوارج^(٢) كذلك، وقام هو وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما جميعاً بمناظرتهم أكثر من مرة^(٣). نذكر شيئاً منها باختصار.

يقول الإمام البغدادي عن مناظرة علي رضي الله تعالى عنه للخوارج: «... فقال لهم قبل القتال: ماذا نَقَمْتُمْ مني؟ فقالوا له: أننا قاتلنا بين يديك يوم الجَمَل، فلما انهزم أصحاب الجمل أُبْحَثَ لنا ما وجدنا في عسكرهم من المال ومنعتنا من سبي نسائهم وذرائعهم، فكيف اسْتَحْلَلْتْ ما لهم دون النساء والذرية. فقال: إنما أبحثُ لكم أموالهم بدلاً عما كانوا أغاروا عليه من بيت مال البصرة قبل قدومي عليهم، والنساء والذرية لمرىقاتلونا، وكان لهم حكم الإسلام بحكم دار الإسلام، ولم يكن منهم ردة عن الإسلام، ولا يجوز استرقاق من لم يكفر. وبعدُ لو أبحثُ لكم النساء، أيكم يأخذ عائشة أم المؤمنين في سهمه؟ فخجل القوم من هذا، ... إلى آخر المناظرة»^(٤) اهـ.

كما ظهرت بدايات الاعتزال والحشو من بعض من كان يحضر حلقة الحسن

(١) مسلم: (١٠٢).

(٢) ومن أسماهم الحُرُورِيَّةَ والشُّرَاةَ. وهم الذين قاتلهم علي رضي الله تعالى عنه في النهروان، وقد كانوا في جيشه قبل ذلك، ورفضوا قبوله للتحكيم يوم صِفِّينَ، وحكموا بكفر عثمان وعلي وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهم جميعاً. ومن أشهر أقوالهم تكفير مرتكب المعصية، وأنه لا يغفر الله له إلا إذا أسلم من جديد.

(٣) انظر: علي بن أبي طالب، د. علي محمد الصلابي (٢/ ٣٤٢).

(٤) الفرق بين الفرق، لأبي منصور البغدادي (١/ ٥٩).

نصري^(١). فكل ذلك يثبت أن الاختلاف في بعض مباحث العقيدة أسبق في الوجود من حركة الترجمة.

ويرجع ذلك الاختلاف والتفرق إلى عاملين رئيسين:

الأول: كثرة الفتوحات الإسلامية، ودخول الناس في الإسلام أفواجا. والبلاد المفتوحة كان فيها العرب والعجم، مما أثر في اللسان العربي الفصح والسليقة العربية الصافية التي كانت تميز الصحابة رضوان الله تعالى عليهم. فمن المعروف أن النبي ﷺ بُعث بين أفصح الناس لسانا وأسرعهم بديهة وأصحهم سليقة، فلم يكونوا عاجزين عن فهم كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ على الوجه الصحيح، هكذا كان حال المهاجرين والأنصار، بل وحال الكفار الذين عاندوا الدعوة. فلأنهم فهموا ما يستتبعه الإسلام من مسئوليات، رفضوه وحاربوا النبي ﷺ.

لكن عندما دخلت في الإسلام شعوب لا تعرف العربية ولا مدلولات خطابها ولا ما تفيد تراكيب الجمل فيها. وفوق ذلك كان منهم المتأثرون بقوالب معينة للتفكير، وقضايا بعينها هي كل معلوماتهم عن الألوهية، أرادوا فهم الإسلام من خلال هذه القوالب والقضايا، فأدّى ذلك إلى وقوعهم في أخطاء جسيمة، في أبواب العقائد والأحكام الشرعية.

والثاني: أن بعض من دخلوا الإسلام لم يدخلوه عن إيمان ومحبة وإذعان، بل دخلوه حنقا وحقدا وكيدا منهم للمسلمين الذين فتحوا بلادهم وأزالوا الطواغيت عنها، فاستر أولئك الحاقدون بالإسلام ليلبسوا على المسلمين دينهم ويُسَكِّكُوهُمْ فيه. وأصدق مثال

(١) إمام أهل البصرة وأحد كبار التابعين والعلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك. كانت أمه مولاة لأُم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، فربما غابت فتعطيه أم سلمة نديها تُعَلِّله به إلى أن تحيي أمه فيدر عليه نديها، فكانوا يقولون فصاحته من بركة ذلك. وكانت أم سلمة تخرجه إلى الصحابة وهو صغير، فأخرجته إلى عمر فدعا له وقال: اللهم فقهه في الدين وحببه إلى الناس. وشب في كنف علي بن أبي طالب، وعظمت هيئته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم لا يخاف في الحق لومة لائم، توفي سنة ١١٠ هـ. انظر سير أعلام النبلاء: (٤/ ٥٦٣).

لذلك هو عبد الله بن سبأ^(١) اليهودي، الذي اخترع بدعة التشيع في عهد علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه.

لذلك. ما من فتنة فكرية وقعت بين المسلمين إلا وسببها الجهل بلغة القرآن، أو إلقاء الشبهات بدافع من الحقد على الإسلام.

وأمرُ الحاقدين يسهل اتصاحه للمسلم اللبيب العاقل، ولو بعد حين. لكن المصيبة الأكبر في الجاهلين، لكونهم يريدون الوصول إلى الحق بطرق خاطئة.

ورغم ذلك، كان وجود الصحابة وكبار التابعين أماناً للناس من الفهم المغلوط للنصوص. فمهما حاول مبتدع أن يفسد في الدين - بقصد أو بغير قصد-، كان يجد من يردّ عليه ويحذر الناس منه.

فقد كانوا يقفون ضد هذه المقولات بحزم. تارة بالبراءة من أهلها، كما فعل ابن عمر رضي الله عنهما مع القَدَرِيَّة، أو بإهانتهم واحتقارهم كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع صبيغ، أو بالتشيع عليهم وفضحهم على رءوس الأشهاد كما فعل طاووس بن كيسان^(٢) مع معبد الجُهَنِيِّ رأس القَدَرِيَّة حين رآه في المطاف، حيث التفت إلى الناس وقال: هذا معبد فأهينوه^(٣). أو بقتلهم وقطع دابر فتنهم بعد إقامة الحجة عليهم وتكفيرهم، كما فعل بَغْيَلَانُ الدمشقي^(٤) الذي تتلمذ لمعبد الجهني، حين أصر على هذه العقيدة الفاسدة.

وبعد عصر الصحابة وكبار التابعين كان الأمر يتصاعد شيئاً فشيئاً، متزامناً مع الخلاف

(١) من غلاة الزنادقة. زعم أن القرآن جزء من تسعة أجزاء وعلمه عند علي، وكان يقع في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وله أتباع يعتقدون ألوهية علي بن أبي طالب، وقد أحرقهم عليٌّ بالنار في خلافته. توفي نحو سنة ٤٠ هـ. انظر لسان الميزان (٣/ ٢٩٨).

(٢) طاووس بن كيسان الهمداني، من أكابر التابعين تفقها في الدين ورواية للحديث، وتشفأ في العيش، وجرأة على وعظ الخلفاء والملوك. توفي سنة ١٠٦ هـ. انظر: الأعلام للزركلي (٣/ ٢٢٤).

(٣) الضعفاء الكبير للعقيلي: (٤/ ٢١٨)، تهذيب الكمال: (١٨/ ٢٤٠).

(٤) الرجل الثاني في القَدَرِيَّة بعد معبد الجهني. كانت له أخبار ومجادلات في القدر مع أئمة عصره، ودعا عليه عمر بن عبد العزيز بما انتهى إليه أمره من القتل سنة ١٠٥ هـ. انظر المجروحين لابن حبان (٢/ ٢٠٠).

السياسي بين تلك الفرق. وبدأت مقالات جديدة في الظهور كذلك، بعد أن انفتح الباب ولا مُوصد له، ولا مرجع يحتكم الناس إليه عند الخلاف إلا القليل من أهل العلم. حتى وصل الناس إلى عصر العباسيين وجاءت حركة الترجمة عن الإغريق، واتسع الخرق على الراقق. فقد رفع كل مبتدع رأسه بما يريد أن يقول، وبلبلوا أفكار الناس بشبهاتهم، وتكلموا في ذات الله وصفاته وأفعاله.

مواقف العلماء عند ظهور مقالات أهل البدع:

- قبل دخولهم هذا المعترك وخوضهم بحره، رفض علماء أهل السنة الانسياق وراء هذه الموجة الثقافية الجديدة، لما رأوه من خطورة المسلك. وأعرضوا عن الخوض في هذه اللُجَج وحذروا الناس من الخوض فيها.

فعلى سبيل المثال: قد سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن^(١) عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، فقال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلىنا التصديق»^(٢) اهـ.

- بل وكانوا يتأثمون من محاورة أولئك المبتدعة، ويرون في هَجْرِهِمْ أفضل طريقة لاجتناب الناس إياهم.

ومن ذلك الآثار الصريحة عن الأئمة الكبار، أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد رحمهم الله تعالى في النهي عن مجالسة أصحاب الكلام. فقد كان لقب أصحاب الكلام في العصور الإسلامية الأولى يُطلق على المبتدعة خاصة.

(١) الإمام الفقيه شيخ مالِك، يقال له ربيعة الرأي، لأنه كان يُعرف بالرأي والقياس، وهو تابعي جليل حافظ. كان من أعقل الناس، وكان صاحب معضلات أهل المدينة ورئيسهم في الفتيا. واتفق العلماء من المحدثين وغيرهم على توثيقه وجلالته وعظم مرتبته في العلم والفهم. توفي بالمدينة سنة ١٣٣ هـ. وقال الدراوردي: إذا قال مالِكٌ: وعليه أدركتُ أهل بلدنا، وأهل العلم ببلدنا، والأمر المُجْتَمَعُ عليه عندنا، فإنه يريد ربيعة وابن هرمز. وكان مالِكٌ يفضلُه ويثني عليه في الفقه والفضل، اهـ. انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢٦٤/١)، تذكرة الحفاظ (١١٨/١).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٣/٣٩٨)، وسيأتي الكلام على هذا الأثر مفصلاً في الحاشية إن شاء الله تعالى في الفصل الخاص بأقوال السلف.

قال تقي الدين العزّبي: «قال أبو حنيفة: لعن الله عمرو بن عبيد^(١)، فإنه فتح للناس باباً إلى علم الكلام. وقال: قاتل الله جهنم بن صفوان^(٢)، ومقاتل بن سليمان^(٣). هذا أفرط في النفي^(٤)، وهذا أفرط في التشبيه^(٥)» اهـ.

فالإمام رحمه الله تعالى كان في أول الأمر ينهى عن الزيادة على المأثور والوارد من السنن والآثار المروية عن النبي ﷺ وأصحابه. مع أن الإمام الأعظم رحمه الله تعالى اشتهر عنه بعد ذلك مناظرةً المبتدعة، وإسكاتهم بالحجة والدليل العقليين .. حتى أن بعض المحدثين زعموا كفره، ونسبته بعضهم إلى القول بالقدر وبعضهم إلى الإرجاء وبعضهم إلى القول بخلق القرآن رحمه الله تعالى ورضي عنه^(٦)!

قال المرتضى الزبيدي: «الإمام أبو حنيفة وصاحباؤه -أبو يوسف ومحمد- أول من

(١) شيخ المعتزلة في عصره ومفتيها، وهو من رءوس الضلال كما وصفه الأئمة، على ما كان فيه من الزهد. قال أبو إسحاق الجوزجاني في أحوال الرجال (١/١٠٨): غير ثقة ضال، وكان غالياً في القدر، ما ينبغي أن يُكْتَبَ حديثه اهـ. وقال ابن الجوزي في الضعفاء والمتروكين نقلاً عن ابن حبان (٢/٢٢٩): كان من أهل الورع والعبادة إلى أن أحدث ما أحدث، وكان يشتم الصحابة، ويكذب في الحديث وهما لا تعمداً. توفي بمران قرب مكة سنة ١٤٤هـ.

(٢) قال الذهبي في السير (٢٦/٦): الكاتب المتكلم أَسُّ الضلالة ورأس الجهمية. كان ينكر الصفات، وكان يقول بخلق القرآن، ويقول: إن الله في الأمكنة كلها. قال ابن حزم: كان يخالف مقاتلا في التجسيم، اهـ. وقال ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣١٨/٥): انتسب إليه خلق كثير. ومن قوله: أن الله تعالى لا يوصف بأنه حي عالم. اهـ. قتل سنة ١٢٨هـ.

(٣) قال ابن الجوزي في الضعفاء والمتروكين: (١٣٦/٣): قال النسائي: الكذابون المعروفون بوضع الحديث على رسول الله ﷺ أربعة، ابن أبي يحيى بالمدينة، والواقدي ببغداد، ومقاتل بن سليمان بخراسان، ومحمد بن شعبة المصلوب بالشام. وقال ابن حبان: كان مقاتل يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن الذي يوافق كتبهم، وكان مُسَبِّهاً، يُشَبِّهُ الرب عز وجل بالمخلوقين، وكان يكذب مع ذلك في الحديث، اهـ. وقال الذهبي في تذكرة الحفاظ (١٣١/١): متروك الحديث، وقد لطمخ بالتجسيم مع أنه كان من أوعية العلم، بحرًا في التفسير! اهـ. توفي سنة ١٥٠هـ.

(۴) یعنی نَفَى صفات الباری سبحانه.

(٥) الطبقات السنية في تراجم الحنفية، لتقى الدين الغزي: (١/ ٣١).

(٦) وسيأتى ذلك في ذكر الكتب التي اعتمدها المجسمة مصدر العقيدتهم.

تكلّم في أصول الدين^(١) بالتوسع وأتقنها بقواطع البراهين، على رأس المائة الأولى. وفي مناقب الكردي عن خالد بن زيد العمري: أنه كان أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد بن الحسن وزُفر وحماد بن أبي حنيفة قد خَصَّمُوا الناس بالكلام، أي ألزموا المخالفين الحجة، وهم أئمة العلم^(٢) اهـ.

- لكن أولئك الأئمة وغيرهم لما وجدوا أنَّ تركهم الاحتكاك بأهل البدع وهجرهم إياهم وإعراضهم عن مناقشتهم أو الخوض في المباحث التي يلقونها على الناس، نتج عنه إخلاء الميدان للمبتدعة وانفرادهم بعقول الناس، اقتحموا باب علم الكلام بقوة، مستعينين في ذلك بما أوتوا من علم وفهم، فأعادوا تأصيله وترتيب مباحثه من جديد بما يتوافق مع النصوص القطعية الواردة في الكتاب والسنة، ليكون سلاحاً ماضياً في أيديهم يقصمون به حجج أهل الضلال. يظهر ذلك بوضوح من خلال ملاحظة منهجهم في أول الأمر وتاليه.

قال الشهرستاني: «...، حتى انتهى الزمان إلى عبد الله بن سعيد الكُلابي^(٣) وأبي العباس القلانسي^(٤) والحارث بن أسد المحاسبي^(٥)».

(١) المراد بالأصول هنا علم العقائد. فالأصول قسمان: أصول الدين وهي علوم العقيدة، وأصول الفقه وهو علم استنباط الأحكام الشرعية العملية من الأدلة.

(٢) إتحاف السادة المتقين، للمرتضى الزبيدي: (١٣/٢-١٤).

(٣) قال الذهبي في السير (١١/١٧٥): أقرب المتكلمين إلى السنة، بل هو في مناظرهم، اهـ. وعلق شعيب الأرنؤوط: كان إمام أهل السنة في عصره، وإليه مرجعها، وشيخ الإسلام ابن تيمية يمدحه في غير ما موضع في كتابه «منهاج السنة» وفي مجموعة رسائله ومسائله، ويعدّه من حذاق المثبّته وأئمتهم، ويرى أنه شارك الإمام أحمد وغيره من أئمة السلف في الرد على مقالات الجهمية. اهـ. وقال السبكي في طبقات الشافعية (٢/٣٠٠): وصفه الخطيب الرازي بأنه أحد متكلمي أهل السنة، دمر المعتزلة في مجلس المأمون وفضحهم ببيانه، اهـ. وقال ابن حجر في الفتح عن مسائل الكلام والعقيدة في صحيح البخاري (١/٢٩٣): وأما المسائل الكلامية فأكثرها من الكرابيسي وابن كلاب ونحوهما. اهـ. قلت: كان حياً قبل ٢٤٠ هـ ولا يعرف له تاريخ وفاة.

(٤) أحمد بن عبد الرحمن بن خالد، من المعاصرين للإمام الأشعري، سمع منه الحاكم النيسابوري، وتوفي سنة ٣٥٥ هـ. قال عنه الشهرستاني في الملل والنحل: (٨١)، وابن خلدون في المقدمة (٨٥٣): متكلم على مذهب أهل السنة. وقال بدر الدين بن جماعة في إيضاح الدليل (٢٤): أنه إمام أهل السنة الذي زادت تصانيفه في الكلام على مائة وخمسين كتاباً.

(٥) قال ابن الصلاح في طبقات الفقهاء الشافعية (١/٤٣٩): إمام المسلمين في الفقه والأصول والتصوف =

وهؤلاء كانوا من جملة السلف، إلا أنهم باشروا علم الكلام، وأيدوا عقائد السلف بحجج كلامية وبراهين أصولية، وصنّف بعضهم ودرّس بعض^(١) اهـ.

وقال العلامة الزركشي: «إن الأئمة انتدبوا الرد على أهل البدع والضلال، وقد صنّف الشافعي كتاب «القياس»، ردّ فيه على من قال يقدّم العالم من الملاحدين، وكتاب «الرد على البراهمة» وغير ذلك، وأبو حنيفة «الفقه الأكبر» وكتاب «العالم والمتعلم»، رد فيه على المخالفين^(٢) اهـ.

- وقد بلغ رفض بعض علماء السلف للولوج في هذا التيار أن نَهَى عن مجالسة المتكلمين من أهل السنة، الذين أحسوا بخطورة التجاهل لأهل البدع وتَرْكِهِمْ يضلون الناس، وشعروا أن التقاعس عن مناظرة أولئك المبتدعة ودَحْضِ باطلهم سيترتب عليه أن يخلو الميدان لأهل البدع، وينفردوا وحدهم بالناس، فَيَسْوَشُونَ عقائدهم بلا رادع ولا مَوْقِف لهم على الحق والصواب. ومن ذلك: الأثر المشهور عن الإمام أحمد في النهي عن مجالسة الحارث بن أسد المحاسبي.

وعلق الإمام الغزالي على هجر أحمد للمحاسبي بقوله: «وبالغ أحمد في ذم الكلام، حتى هَجَرَ الحارث المحاسبي مع زهده وورعه، بسبب تصنيفه كتاباً في الرد على المبتدعة، وقال له: ويحك! أأنت تحكي بدعتهم أولاً ثم تردّ عليهم؟، أأنت تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر في تلك الشبهات، فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث؟!»^(٣) اهـ.

وقال الخطيب البغدادي: «...، إسماعيل بن إسحاق السَّرَّاج يقول: قال لي أحمد بن حنبل يوماً: يبلغني أن الحارث يُكثِر الكَوْنَ عندك، فلو أحضرته منزلك وأجلستني من حيث

= والحديث والكلام، وكتبه في هذه العلوم أصولاً من يصنف فيها، اهـ. وقال الخطيب في تاريخ بغداد (١/ ٢١١): أحد من اجتمع له الزهد والمعرفة بعلم الظاهر والباطن، وكتبه كثيرة الفوائد حمة المنافع. اهـ. وترجمته حافلة، توفي سنة ٢٤٣هـ.

(١) الملل والنحل للشهرستاني: (٨١).

(٢) تشنيف المسامع، للزركشي (٤/ ٢٥٨).

(٣) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي: (١/ ١٣٣).

لا يراني فأسمع كلامه، فقلت: السمع والطاعة لك يا أبا عبد الله،، فحضر بعد المغرب وصعد غرفة في الدار، فاجتهد في ورّده إلى أن فرغ، وحضر الحارث وأصحابه، ...، فابتدأ واحد منهم وسأل الحارث عن مسألة، فأخذ في الكلام وأصحابه يستمعون وكأن على رؤوسهم الطير، فمنهم من يبكي ومنهم من يزق وهو في كلامه، فصعدت الغرفة لأتعرف حال أبي عبد الله، فوجدته قد بكى حتى غشي عليه، فانصرفت إليهم، ولم تنزل تلك حالهم حتى أصبحوا فقاموا وتفرقوا، فصعدت إلى أبي عبد الله وهو متغير الحال، فقلت: كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله؟ فقال: ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء القوم، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل، وعلى ما وصفت من أحوالهم، فإني لا أرى لك صحبتهم، ثم قام وخرج»^(١) اهـ.

وذكر التاج السبكي هذه القصة، قال: «وقال الحاكم أبو عبد الله ... وساق القصة بتامها ... ثم قال: وفي رواية أخرى أن أحمد قال: لا أنكر من هذا شيئاً»^(٢) اهـ.

ونقل ابن كثير تعليق البيهقي عليها بقوله: «يحتمل أنه كره له صحبتهم؛ لأن الحارث بن أسد وإن كان زاهداً، فإنه كان عنده شيء من علم الكلام، وكان أحمد يكره ذلك. أو كره له صحبتهم من أجل أنه لا يطبق سلوك طريقتهم وما هم عليه من الزهد والورع»^(٣) اهـ.

وعلق عليها الإمام تاج الدين السبكي، فقال: «تأمل هذه الحكاية بعين البصيرة، واعلم أن أحمد بن حنبل إنما لم ير لهذا الرجل صحبتهم لقصوره عن مقامهم، فإنهم في مقام ضيق لا يسلكه كل أحد، فيُخاف على سالكه، وإلا فأحمد قد بكى وشكر الحارث هذا الشكر، ولكل رأي واجتهاد»^(٤) اهـ.

فرغم أن المحاسبي رحمه الله تعالى من أهل السنة والجماعة ينافح عن عقيدتهم ويدافع

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: (٨/ ٢١٥)

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: (٢/ ٢٧٩).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير: (١٠/ ٣٦٣) في ترجمة الإمام أحمد.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: (٢/ ٢٦٩).

عن طريقهم، إلا أن ذلك لم يمنع الإمام أحمد رحمه الله تعالى من التحذير من مجالسته حتى لا يتأثر الناس بعلم الكلام، فيقع ضعفاء العقول فريسة للشبهات.

وكذلك الآثار المشهورة في منابذة الإمام أحمد للحسين الكرابيسي^(١) رحمهما الله تعالى، واحتدام الأمر بينهما.

قال ابن كثير: «أحمد بن حنبل كان تكلم فيه -أي الكرابيسي- بسبب مسألة اللفظ^(٢)، وكان هو أيضاً يتكلم في أحمد، فتجنب الناس الأخذ عنه لهذا السبب.

قلت [ابن كثير]: الذي رأيتُ عنه أنه قال: كلام الله غير مخلوق من كل الجهات، إلا أن لفظي بالقرآن مخلوق، ومن لم يقل إن لفظي بالقرآن مخلوق فهو كافر.

ثم قال ابن كثير: وهذا هو المنقول عن البخاري ودأود بن علي الظاهري. وكان الإمام أحمد يسدُّ الباب في هذا، لأجل حسم مادة القول بخلق القرآن»^(٣) اهـ.

فممن كان يقول بقول الكرابيسي أيضاً: الإمام البخاري والإمام مسلم والحارث

(١) قال ابن حجر في تهذيب التهذيب (٢/ ٣١٠): الفقيه البغدادي. سمع الحديث الكثير وصحب الشافعي وحمل عنه العلم، وهو معدود في كبار أصحابه...، قال الخطيب البغدادي: كان فهِماً عالماً فقيهاً، وله تصانيف كثيرة في الفقه وفي الأصول تدل على حسن فهمه وغزارة علمه. وذكر ابن منده في مسألة الإيمان: أن البخاري كان يصحب الكرابيسي، وأنه أخذ مسألة اللفظ عنه، اهـ. قلت: وقوله في مسألة اللفظ هو الصواب كما أوضح الذهبي. والإمام أحمد إنما هجره ليغلق الباب على من أراد التوصل إلى أن القرآن مخلوق، وسيأتي قول الإمام أحمد في مسألة اللفظ بعد ذلك. وتوفي سنة ٢٤٥ أو ٢٤٨ هـ.

(٢) مسألة اللفظ: يُقصد بها تَلَفُّظُ القارئ بكلمات القرآن. فأهل السنة الأشاعرة والماتريدية والمحققون كالبخاري ومسلم والكرابيسي والقلاسي، وحتى الذهبي: على أن ألفاظنا - التي هي خليط من انبعاث الهواء الحامل للصوت من جوفنا وأفواهنا، وممزوجا بحركة اللسان والشفيتين والفكين أثناء تلاوة القرآن - مخلوقة، وليست هي صفة الله تبارك وتعالى، سواء كان المقروء قرآناً أو غيره. ويقابله ما ذهب إليه طوائف من المبتدعة إلى أن ألفاظنا بالقرآن قديمة غير مخلوقة، وأنها هي صفة الله تبارك وتعالى. وما ذهب إليه طوائف أخرى أن القرآن نفسه مخلوق!!

(٣) طبقات الفقهاء الشافعيين لابن كثير: (١/ ١٣٣).

المحاسبي ومحمد بن نصر المروزي^(١) وغيرهم . وما الفتنة التي حدثت بين البخاري والذهبي^(٢) إلا بسبب هذه المسألة -مسألة اللفظ بالقرآن- . ولقد صنّف الإمام البخاري في هذه المسألة كتابه «خلق أفعال العباد» لإثبات رأيه فيها، والردّ على مخالفه^(٣) . وأما الإمام مسلم، فقد كان يُظهر القول باللفظ ولا يكتمه^(٤) .

إذن. نفهم من هذا أن الإمام أحمد رحمه الله تعالى وغيره من كبار علماء السلف، أرادوا بهجرهم علماء الكلام من أهل السنة أن يغلقوا باب الكلام في الأمور التي يثيرها المبتدعة، ظناً منهم رحمهم الله تعالى أن اجتنابهم إياهم يُنهيهم عن الخوض في مثل هذه الأمور وينزع فتيل الفتنة. ويشهد لهذا الرأي ما قاله الإمام الذهبي رحمه الله تعالى.

قال الذهبي: «ولا ريب أن ما ابتدعه الكرابيسي وحرّره في مسألة اللفظ وأنه مخلوق هو حق، لكنّ أباهُ الإمام أحمدٌ ثلاثاً يُتذرّع به إلى القول بخلق القرآن، فسدّ الباب»^(٥) اهـ.

ويشهد لهذا الرأي أيضاً ما روي عن الإمام أحمد نفسه، أنه لا يرى من فرق بين اللفظ والملفوظ مبتدعاً أو جهمياً.

قال الذهبي: «كان هذا الإمام -يعني أحمد- لا يرى الخوض في هذا المبحث، خوفاً من أن يُتذرّع به إلى القول بخلق القرآن.

ثم قال: ومعلومٌ أن التلفّظ شيءٌ من كَسْبِ القارئ غيرِ الملفوظ، والقراءة غير الشيء

(١) أحد الأئمة المشهورين والعلماء الأكابر في الحديث والفقه والزهد، ولد ٢٠٢هـ وتوفي ٢٩٤هـ. قال الذهبي

في تذكرة الحفاظ (٢/ ١٦٥): ذكر الخطيب أنه كان من أعلم الناس باختلاف الصحابة فمن بعدهم، اهـ.

(٢) محمد بن يحيى الذهلي، قال الذهبي في السير (١٢/ ٢٧٣): الإمام العلامة الحافظ البارع شيخ الإسلام وعالم

أهل المشرق وإمام أهل الحديث بخراسان. قال الخطيب: كان أحد الأئمة العارفين، والحفاظ المتقين. اهـ.

قلت: كان من أمراء المؤمنين في الحديث، روى عنه الأكابر في عصره، وأما الإمام مسلم، فقد ترك الرواية

عنه، انتصاراً للبخاري في مسألة اللفظ بعدما عرّض الذهبي به، رحم الله الجميع. توفي سنة ٢٥٨هـ.

(٣) أهل السنة الأشاعرة، حمد السنان وفوزي العنجري: (٥٣).

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي: (١٢/ ٤٥٣ وما بعدها)، (١٢/ ٥٧٢).

(٥) المرجع السابق: (١١/ ٥١٠)، (١٢/ ٨٢).

المقروء، والتلاوة وحسنها وتجويدها غير المتلّو. وصوتُ القارئ من كَسَبه، فهو يُحْدِث التلفّظ والصوتَ والحركة والنطق وإخراج الكلمات من أدواته المخلوقة، ولم يُحْدِث كلمات القرآن ولا ترتيبه ولا تأليفه ولا معانيه^(١).

ثم روى الذهبي عن الحاكم بسنده إلى فوران صاحب أحمد أنه قال: سألني الأثرم وأبو عبد الله المعيطي أن أطلب من أبي عبد الله -يعني الإمام أحمد- خلوة، فأسأله فيها عن أصحابنا الذين يفرقون بين اللفظ والمحكي. فسألته، فقال: القرآن كيف تُصَرِّف في أقواله وأفعاله فغير مخلوق، فأما أفعالنا فمخلوقة. قلتُ [فوران]: فالفظة^(٢) تعدُّهم يا أبا عبد الله في جملة الجهمية؟ فقال: لا، الجهمية الذين قالوا: القرآن مخلوق^(٣) اهـ.

وكذلك ما يروى عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى من ترك الكلام وذم أهله، على ما كان من مناظراته لهم.

قال الحافظ الذهبي: «...، الربيع قال: قال لي الشافعي: لو أردت أن أضع على كل مخالف كتاباً لفعلت، ولكن ليس الكلام من شأني، ولا أحب أن ينسب إليّ منه شيء»^(٤) اهـ.

قال الإمام البيهقي: «إنما أراد الشافعي رحمه الله بهذا الكلام حَفْصاً الفَرْدَ وأمثاله من أهل البدع، وهذا مراده بكل ما حُكِيَ عنه في ذم الكلام وذم أهله، غير أن بعض الرواة أطلقه، وبعضهم قيده، وفي تقييد مَنْ قَيَّده دليل على مراده. وعن أبي الوليد بن الجارود قال: دخل حفص الفرد على الشافعي فكلّمه، ثم خرج إلينا الشافعي، فقال لنا: لَأَنَّ يَلْقَى الله العبدُ بذنوب مثل جبال تهامة خير له من أن يلقاه باعتقاد حرف مما عليه هذا الرجل وأصحابه، وكان يقول بخلق القرآن.

(١) قلت: يقصد بالإحداث التلبّس بالفعل، وليس الإحداث المرادف للمخلوق، بمعنى الإيجاد من العدم كما تقول المعتزلة.

(٢) اللفظة: هم الذين يقولون بقول البخاري وابن كُلاب والكرايسي أن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، وقد وافقهم الذهبي وابن كثير وعامة المحققين من أهل العلم. وحتى الإمام أحمد في هذا الأثر هنا يوافقهم ولا يبدعهم، لكنه لم يكن يجب أن يسمعه المبتدعة فيجدوا فيه طريقاً لخلطه بمقاتلتهم أن القرآن نفسه مخلوق.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي: (٢٩٠ / ١١).

(٤) المرجع السابق: (٣١ / ١٠).

ثم قال البيهقي: وهذه الروايات تدل على مراده بما أُطلق عنه فيما تقدم وفيما لم يُذكر هذا. وكيف يكون كلام أهل السنة والجماعة مذموماً عنده، وقد تكلم فيه، وناظر من ناظره فيه، وكشف عن تمويه من ألقى إلى سمع بعض أصحابه من أهل الأهواء شيئاً مما هم فيه»^(١) اهـ.

فالإمام الشافعي رحمه الله تعالى ناظر المبتدعة عندما لم يجد من ذلك بُدّاً، ومناظرته حفص الفرد مذكورة مشهورة عند أهل العلم.

وقال البيهقي أيضاً: «كَلَّمَ الشَّافِعِيُّ يَوْماً بَعْضَ الْفُقَهَاءِ، فَدَقَّقَ عَلَيْهِ وَحَقَّقَ وَطَالَبَ رِضِيقَ -أَيِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ-، فَقِيلَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، هَذَا لِأَهْلِ الْكَلَامِ لَا لِأَهْلِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، فَقَالَ: أَحْكَمْنَا ذَاكَ قَبْلَ هَذَا»^(٢) اهـ.

وقال الذهبي: «...، الرِّبْعُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: حَضَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ وَيُوسُفُ بْنُ عَمْرٍو وَحَفْصُ الْفَرْدِ، وَكَانَ الشَّافِعِيُّ يُسَمِّيهِ حَفْصَا الْمُنْفَرِدِ، فَسَأَلَ حَفْصُ عَبْدَ اللَّهِ: مَا تَقُولُ فِي الْقُرْآنِ؟ فَأَبَى أَنْ يُجِيبَهُ، فَسَأَلَ يَوْسُفَ فَلَمْ يُجِبْهُ، وَأَشَارَ إِلَى الشَّافِعِيِّ، فَسَأَلَ الشَّافِعِي وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ، فَطَالَتْ فِيهِ الْمُنَازَرَةُ، فَقَامَ الشَّافِعِيُّ بِالْحُجَّةِ عَلَيْهِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَبَكَفَرِ حَفْصِ»^(٣) اهـ.

وكذلك الإمام أحمد رحمه الله تعالى، ناظر من اختبروه من المعتزلة في مسألة خلق القرآن وهو معروض على الشياطين، فكان يبين لمن يسأله بالحجة والدليل العقلي.

قال الذهبي: «قال أبو عبد الله -يعني الإمام أحمد-: قال لي إسحاق بن إبراهيم^(٤) لا تُعَلِّمَ أَحَدًا أَنِي سَأَلْتُكَ عَنِ الْقُرْآنِ! فَقُلْتُ لَهُ: مَسْأَلَةٌ مُسْتَرَشِدٌ أَوْ مَسْأَلَةٌ مُتَعَنِّتٌ؟ قَالَ: بَلِ مُسْتَرَشِدٌ، قُلْتُ: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ، وَقَالَ لِي: مِنْ أَيْنَ قُلْتَ إِنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ؟

(١) مناقب الشافعي للبيهقي: (١/٤٥٣-٤٥٤).

(٢) المرجع السابق: (١/٤٥٧).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي: (١٠/٣٢).

(٤) أحد أمراء الواثق من بني العباس.

فمن هنا يُعلم أن ما يُروى عن الإمام مالك رحمه الله تعالى في ذم الكلام وأهله، إنما يقصد به كلام المبتدعة وأهل الأهواء لا علم الكلام المدحوح، الذي صنف فيه بنفسه، وكان يمدح عليه ابن هرمز شيخه ويصفه بأنه كان بصيرا به ويرد به على أهل البدع^(١).

ولا بد أن يصل الباحث المنصف بعد ما ذُكر إلى أنهم رحمهم الله تعالى لم يخوضوا هذا سبحر دون أن تدعو لذلك حاجة. كلا، وحاشاهم أن يتكلموا بشيء سكت عنه الصحابة والتابعون. لكنهم لما رأوا الناس تَقَحَّموْا هذا الباب، وخاضوا في هذا الأمر وحملوه على غير وجهه، ودعت الحاجة إلى إلجام المبتدعة ونقض حججهم، اضطروا رحمهم الله تعالى إلى تكلام فيه تبيانا للحق، وكفًّا للناس عن ذلك^(٢).

ظهور الفرق وتمايزها:

ومن الضروري التنويه إلى أنه في تلك الفترة بدأت تظهر التَّسمِيَّات وتتميز الفرق وتتسبب إلى مؤسسيها وكبار شيوخها. حتى أن لقب أهل السنة نفسه بدأ يظهر في هذه فترات تقريبا، لتمييز به أهل السنة عن غيرهم، بعد أن كان المسلمون ليس لهم اسمٌ غير الإسلام.

ولعل أشهر الفرق التي برزت في تلك الفترة كانت المعتزلة^(٣)، فقد عبَّوا من علوم إنغريق الشيء الكثير، وناظروا الملاحدة في بداية أمرهم، وقمعوهم بالحجج العقلية وسكتوا أصواتهم. إلا أنهم أغرقوا في علوم العقل، حتى طَفَّ ميزانهم عند الحكم في نقضها، وجعلوا العقل حاكما على كل شيء.

(١) التبيان في الرد على من ذم علم الكلام، لجمال صقر: (٤٢).

(٢) أهل السنة الأشاعرة، لحمد السنان، وفوزي العنجري: (٥٦).

(٣) هم عشرون فرقة. وأهم المبادئ التي اجتمعوا عليها: نفْيُ الصفات الأزلية عن الله عز وجل. واستحالة رؤية الله عز وجل بالأبصار. وقولهم بحدوث كلام الله عز وجل، وحدوث أمره ونهيه، وخبره، وقولهم بأن الله تعالى غير خالق لأكساب الناس، وأن الناس هم الذين يخلقون أفعالهم. وأن المعاصي والقبائح واقعة بغير إرادة الله ولا مشيئته. راجع الفرق بين الفرق (٩٣-٩٦)، مقالات الإسلاميين (١/ ٢٣٥-٢٤٩).

ولما افتن الناس بهم لما يستخدمونه من حجج وبراهين عقلية لم يعهدوا المسلمون بتلك الطريقة، اتبعهم بعض خلفاء بني العباس ونصروا مذهبهم، فأصبحت لهم سلطة فكرية وقانونية، وناصرتهم سيوف الخلافة على كل من خالفهم، حتى وقعت الفتنة الكبرى المعروفة بفتنة «خَلَقَ القرآن»، حيث صمد فيها الإمام أحمد رحمه الله تعالى ومجموعة من العلماء.

ورغم هذا الصمود لنته الفتنة، فقد كان الإمام أحمد كما سبق أن أشرنا ينهى عن علم الكلام والخوض فيه، وإن كانت له ردود عليهم إلا أنها أقل من القليل، فلم يندفع انبهار كثير من الناس بالمعتزلة..

وزاد الطين بلة أن العوام من الناس لما سمعوا كلام المعتزلة ورأوا سكوت عامة العباد والفقهاء وعلماء الحديث الذين كانوا يمثلون أهل السنة في ذلك الوقت، ظنوا أن الحق مع المعتزلة.

وجدير بالذكر أن بعض أهل الحديث كتب تصانيف في بعض المسائل التي أثارها الجهمية والمعتزلة، فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ. بل منهم من تعدى وجاوز الحد أيضاً، فكان على طرف النقيض من المعتزلة.

فالمعتزلة والجهمية بالغوا في نفي الصفات، وقابلهم بعض أولئك بالإغراق في الإثبات، وشبهوا الله تعالى بخلقه، فأثبتوا لله حداً ينتهي إليه، وجَهَةً يتحيز فيها، ويدين ورجلا وعينين مثل المخلوقين.

كما ظهر محمد بن كَرَّام^(١) إمام المَجَسِّمة في خراسان، وأثبت هو وأتباعه لله تعالى الحقائق اللغوية لبعض الألفاظ التي وردت في النصوص مضافة إليه تعالى، كاليد والعين

(١) قال الذهبي في السير (١٠٧/٢٣): السجستاني المبتدع شيخ الكرامية، كان زاهدا عابدا ربانيا، بعيد الصيت كثير الأصحاب، يروي الواهيات، قال ابن حبان: تُحْذَلُ حتى التقط من المذاهب أرداها، ومن الأحاديث أواهاها، ثم جالس الجويباري وابن تميم، ولعلهما قد وضعا مائة ألف حديث! وقال خلق من الأتباع له: أن الباري جسم لا كالأجسام. توفي ٢٥٥هـ.

تَبَّابُ الْأَوَّلِ: تَعْبِيدُهُمْ وَإِطْلَالُهُ تَرْيِخِيَّةً مُفِيدَةً ﴿٤١﴾
وَالسَّاقِ وَالْمَجِيءِ وَالتَّزْوِلِ وَالْهَرُولَةِ، يَمَّا يُؤْهِمُ مِثَابَةَ اللَّهِ تَعَالَى لِحَلْقِهِ، وَادْعُوا أَنَّهَا صِفَاتُ لَهُ،
يَلَا أَنَّهَا لَا تُشَبِّهُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ.

وَعَنْهُمْ أَخَذَ الْحَشَوِيَّةَ^(١) مَذْهَبُهُمُ الْبَاطِلُ فِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ تَعَالَى مُحَلٌّ
لِلْحَوَادِثِ، وَأَنَّهُ يُشَبِّهُ خَلْقَهُ مِنْ وَجْهِهِ وَيُخَالِفُهُمْ مِنْ وَجْهِهِ، وَأَنَّ الْمِثَابَةَ لَيْسَتْ تَامَةً بَيْنَهُمَا. تَعَالَى
لِلَّهِ عَنْ ذَلِكَ عَلَوًّا كَبِيرًا.

ظُهُورُ الْإِمَامِينَ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ وَأَبِي مَنْصُورِ الْمَأْتَرِيدِيِّ رَحِمَهُمَا اللَّهُ
تَعَالَى:

وَفِي خُضْمِ هَذِهِ الْعَوَاصِفِ الْمُتَلَاظِمَةِ، قَيَّضَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِلْسَّنَةِ شَيْخَ الْإِسْلَامِ وَالْمَلَّةِ
وَنَاصِرَ الدِّينِ أَبَا الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَضِيَ عَنْهُ، وَقَدْ كَانَ مَعْتَزَلِيًّا فِي بَدَايَاتِهِ،
وَتَرَبَّى فِي حِجْرِ أَبِي عَلِيِّ الْجَبَّائِيِّ شَيْخِ الْمَعْتَزَلَةِ، وَأَخَذَ عَنْهُ الْإِعْتَزَالَ وَبَرَعَ فِيهِ وَنَابَ عَنْهُ فِي
لِمُنَاطَرَةِ مَرَاتٍ عَدِيدَةٍ، حَتَّى أَتَاهُمْ كَانُوا يَعْتَبِرُونَهُ خَلِيفَةَ الْجَبَّائِيِّ، فَصَارَتْ مَلَكَاتُهُ الْعَقْلِيَّةُ فِي
عُلَى دَرَجَاتٍ تَوْهَجُهَا، وَعَرَفَ طَرِيقَ الْحُجْجِ الْمَعْتَزَلِيَّةِ وَرَأَى هِشَاشَتَهَا لَوْ أَحْسَنَ خُصُومُهُمْ
سَتَعْمَالَ الْعَقْلَ وَحُجْجَهُ فِي مَوَاطِنِ الْخِلَافِ، وَانْتَدَبَ نَفْسَهُ لِهَذِهِ الْمَهْمَةِ، فَأَسْكَنَتْهُمْ وَأَلْقَمَهُمْ
تُسْتَتَهُمْ فِي كُلِّ مَنَاطَرَةٍ وَاجْهَهُمْ فِيهَا.

قَالَ عَنْهُ الذَّهَبِيُّ: «الْعَلَامَةُ إِمَامُ الْمُتَكَلِّمِينَ، أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي بَشَرَ
إِسْحَاقَ بْنِ سَالِمَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُوسَى بْنِ أَمِيرِ الْبَصْرَةِ بِلَالِ بْنِ أَبِي بَرْدَةَ بْنِ
صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسِ بْنِ حِضَارٍ، الْيَمَانِيُّ، الْبَصْرِيُّ،
... وَكَانَ عَجَبًا فِي الذِّكَاةِ وَقُوَّةِ الْفَهْمِ، ... وَلَمَّا بَرَعَ فِي مَعْرِفَةِ الْإِعْتَزَالِ، كَرِهَهُ وَتَبَرَّأَ مِنْهُ، وَصَعِدَ
لِمَنْبَرِ النَّاسِ، فَتَابَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْهُ، ثُمَّ أَخَذَ يَرُدُّ عَلَى الْمَعْتَزَلَةِ، وَيَهْتِكُ عَوَارِهِمْ، ... قَالَ الْفَقِيه

(١) جَاءَ فِي شَرْحِ الْمُنْهَاجِ لِلْإِسْنَوِيِّ (١/٣٠٩): اِخْتَلَفَ فِي الْحَشَوِيَّةِ. فَقِيلَ: يَأْسُكُنَ الشَّيْنُ، لِأَنَّ مِنْهُمْ الْمَجْسَمَةَ،
وَالْجِسْمَ مَحْشُوًّا، وَالْمَشْهُورُ أَنَّهُ بَفَتْحِهَا، نِسْبَةٌ إِلَى الْحِشَاءِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَجْلِسُونَ أَمَامَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فِي حَلْقَتِهِ
فَوُجِدَ كَلَامُهُمْ رَدِيئًا، فَقَالَ: رَدُّوا هَؤُلَاءِ إِلَى حِشَاءِ الْحَلْقَةِ، أَيْ جَانِبِهَا. وَالْجَانِبُ يُسَمَّى حِشَاءً، وَمِنْهُ الْأَحْشَاءُ
لِجَوَانِبِ الْبَطْنِ.

عبد الله بن سعيد بن كلاب وأبي العباس القلانسي والحارث المحاسبي من أتباع السلف، وعلى طريقة السنة»^(١) اهـ.

ومنذ ظهور ذلك الرجل وتصديه للمعتزلة، بدأت الكفة تميل تدريجياً إلى أهل السنة. وتَلَمَّذَ على يديه خلق من أكابر علماء أهل السنة الذين أسسوا المدرسة الأشعرية في العقائد بعد ذلك، وأصبح أهل السنة في هذه العصور وما تلاها معروفين باسم الأشاعرة.

فالانتساب إليه رحمه الله تعالى بمنزلة الانتساب إلى الأئمة الأربعة، أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد رضوان الله عليهم في الفروع الفقهية. إذ مع كونهم مختلفين في طرق الاستنباط واستخراج الأحكام، إلا أنهم متفقون على المصادر التي يصدرون عنها والموارد التي يردونها. وكذلك الإمام أبو الحسن الأشعري في أبواب أصول الدين، إنما هو آخذٌ من القرآن الكريم والسنة الشريفة، وسائرُ على طريق السلف.

فقد أخذ أدلة القرآن والسنة وما تثبته نصوصهما من العقيدة الصحيحة، وأيدها بالأدلة العقلية القاطعة. حيث كان أهل البدع في هذا الزمان يستخدمون الأدلة العقلية ويلبسون على الناس عقائدهم، فكان لا بد أن يقوم علماء أهل السنة بالرد عليهم بطريقتهم، حتى لا يظن العوام أن أهل السنة عاجزون عن إثبات عقائدهم بالأدلة العقلية القطعية، أو أن العقل السليم لا يقبل عقيدة أهل السنة.

- فكما أن المسلم المالكي والحنفي والشافعي والحنبلي يطلق عليه أنه مسلم سُنيٌّ، ولم يطرأ عليه تغيير بسبب انتسابه إلى هؤلاء الأئمة، فكذلك المسلم الأشعري هو من أهل السنة على مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى.

فالانتساب إليه رحمه الله تعالى إنما هو من حيث كونه أضاء تلك الطريق ونصب عليها نطقاً وشهرها في الأمة، بعد أن حاول أصحاب البدع والأهواء طمسها^(٢).

(١) مقدمة ابن خلدون: (١٥٣).

(٢) أهل السنة الأشاعرة، حمد السنان، وفوزي العنجرى: (٣٤).

قال الإمام البيهقي: «إلى أن بلغت النبوة إلى شيخنا أبي الحسن الأشعري رحمه الله، فلم يُحدث في دين الله حَدَثًا، ولم يأت فيه ببدعة، بل أخذ أقاويل الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة في أصول الدين، فنصرها بزيادة شرح وتبيين، وأن ما قالوا وجاء به الشرع في الأصول صحيح في العقول. بخلاف ما زعم أهل الأهواء من أن بعضه لا يستقيم في الآراء، فكان في بيانه تقوية [ما لم يُدَلَّ عليه من أهل السنة والجماعة] ^(١)، ونصرة أقاويل من مضى من الأئمة، كأبي حنيفة وسفيان الثوري من أهل الكوفة، والأوزاعي وغيره من أهل الشام، ومالك والشافعي من أهل الحرمين، ومن نحا نحوهم من الحجاز وغيرها من سائر البلاد، وكأحمد بن حنبل وغيره من أهل الحديث، والليث بن سعد وغيره، والبخاري ومسلم وإمامي أهل الآثار وحُفَظ السنن التي عليها مدار الشرع، رضي الله عنهم أجمعين» ^(٢) اهـ.

وقال الإمام ابن عساكر: «وهم - يعني الأشاعرة - المتمسكون بالكتاب والسنة، التاركون للأسباب الجالبة للفتنة، الصابرون على دينهم عند الابتلاء والمحنة، الظاهرون على عدوهم مع أطراح الانتصار والإحقة، لا يتركون التمسك بالقرآن والحجج الأثرية، ولا يسلكون في المعقولات مسالك المعطلة القدرية. لكنهم يجمعون في مسائل الأصول بين الأدلة السمعية وبراهين العقول، ويتجنبون إفراط المعتزلة ويتنبهون طرق المعطلة، ويَطْرَحون تفريط المُجَسِّمة المُشَبَّهة، ويفضحون بالبراهين عقائد الفرق المموَّهة، وينكرون مذاهب الجهمية، وينفرون عن الكرامية والسالمية، ويُطِيلُون مقالات القدرية ويُردُّون شبه الجبرية.

فمذهبهم أوسط المذاهب، ومشرَبهم أعذب المشارب، ومنصبهم أكرم المناصب، ورتبتهم أعظم المراتب. فلا يؤثر فيهم قَدَح قَادَح، ولا يظهر فيهم جرح جَارِح» ^(٣) اهـ.

(١) هكذا نقلها ابن عساكر في التبيين والتاج السبكي في الطبقات، أو هكذا طُبعت، ولا أرى معناها يتماشى مع السياق. ولرأى أحدها ذرًا للتهمة بالتصرف على حسب الهوى. ولعل الإمام البيهقي يريد أن الأشعري أرشد الله به الأمة لنصرة عقائد أهل الحق بطريقة لم يُسبق إليها من أحد من علماء أهل السنة رحمهم الله تعالى ورضي عنهم جميعا، والله تعالى أعلم.

(٢) تبين كذب المفتري لابن عساكر: (١٠٣)، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي: (٣/٣٧٩)، وانظر: أهل السنة الأشاعرة، لحمد السنان، وفوزي العنجرى: (٣٥).

(٣) تبين كذب المفترى لابن عساكر: (٣٩٧)، وانظر: أهل السنة الأشاعرة، لحمد السنان، وفوزي العنجرى، ص: (٣٧).

ويشير الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى في آخر هذه الفقرة إلى ما لا كُتِبَ ألسنة بعض القادحين والجارحين له ولمذهبه، سواء كانوا من أولئك الذين ينتسبون لأهل السنة ولم يفهموا طريقته لنقص معرفتهم وعدم إلمامهم بعلوم الحجاج ومناظرة الملحدين وأهل البدع، أو كانوا من أهل البدع والضلالات الذين كشف زيف مقالاتهم ورأوا في طريقته ومذهبه ما يتقوض دعائم مذاهبهم.

وفي هذا المعنى قال الإمام الزركشي: «ولا التفات لما نسب إليه الكرامية والحشوية، فلقوم أعداء له وخصوم، وهو إما مفتعل، أو لم يفهموا مراده»^(١) اهـ.

وقريب من الوقت الذي ظهر فيه أبو الحسن الأشعري، قيص الله الإمام أبا منصور الماتريدي الحنفي^(٢) كذلك لأهل السنة في بلاد ما وراء النهر ليقوم بنفس الدور.

قال العلامة كمال الدين البياضي: «الماتريدي مفصل لمذهب الإمام -يعني الإمام أبا حنيفة- وأصحابه، المظهرين لمذهب أهل السنة، فلم يخل زمان من القائمين بنصرة الدين وإظهاره»^(٣) اهـ.

وقال الأدنوي: «إمام الهدى والدين، كان إمام المتكلمين ومصحح عقائد المسلمين، نصره الله بالصراط المستقيم، فصار في نصرة الدين القويم. تفقه عليه الحكيم السمرقندي وفقهاء ذلك العصر»^(٤) اهـ.

(١) تشيف المسامع للزركشي: (٤/ ٢٦٢).

(٢) إمام أهل السنة والجماعة، وأحد من أجمع الأكابر من علماء هذه الملة على رئاسته وصحة اعتقاده وإمامته للمسلمين. قال عنه ابن قطلوبغا في تاج التراجم: (١/ ٢٠): إمام الهدى. اهـ. وقال عبد الله المراغي في الفتح المبين (١/ ١٩٣): كان أبو منصور قوي الحجّة، فحجّا في الخصومة، دافع عن عقائد المسلمين، ورد شبهات الملحدين. اهـ. وقال أبو الحسن الندوي في رجال الفكر والدعوة (١٣٩): جهّز من جهاينة الفكر الإنساني، امتاز بالذكاء والنبوغ وحذق الفنون العلمية المختلفة، اهـ. توفي بسمرقند سنة ٣٣٣هـ.

(٣) إشارات المرام من عبارات الإمام، للبياضي، ص: (٢٣).

(٤) طبقات المفسرين للأدنوي: (١/ ٦٩).

ويظهر هذين الإمامين الكبيرين بدأ اهتمام علماء أهل السنة والجماعة بعلم الكلام يأخذ منحى أكثر عمقا وتخصصا، فكانوا يواجهون شبهات المبتدعة بأدلة وبراهين يتضافر فيها العقل والنقل، فلا تستطيع المبتدعة معها تضليل الناس والتلبس عليهم.

فلا تكاد بعد ذلك تجد عالما من أكابر المسلمين إلا وهو أشعري أو ماتريدي. والماتريدية يسمّون الأحناف أيضا، لأنهم على مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى في العقائد والفروع.

قال المرتضى الزبيدي: «وَلْيُعْلَمَ أَنَّ كُلًّا مِنَ الْإِمَامِينَ أَبِي الْحَسَنِ وَأَبِي مَنْصُورٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَجَزَاهُمَا عَنِ الْإِسْلَامِ خَيْرًا لِمُيْتَدَعَا مِنْ عِنْدَهُمَا رَأْيًا، وَلَمْ يَشْتَقَّا مَذْهَبًا، وَإِنَّمَا هُمَا مُقَرَّرَانِ لِمَذَاهِبِ السَّلَفِ، مُنَاضِلَانِ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَنَازِعُونَ كُلُّ مَنْهَا ذَوِي الْبِدْعِ وَالضَّلَالَاتِ حَتَّى انْقَطَعُوا وَوَلَوْ أَمْنَهُمْ مِنْ»^(١) اهـ.

واستقر الحال على هذا الأمر، وتخرج عظماء المسلمين من العلماء والقضاة والأمراء والخلفاء والقواد والولاة على هاتين المدرستين العقائديتين.

التجسيم يعلن عن نفسه:

ولم يكن يعكّر هذا الاستقرار بعد كسر شوكة المعتزلة إلا ظهور بعض الأغرار من أتباع مذهب الحشو والتجسيم على فترات متباعدة، وكان أكثر أتباع هذا المذهب من الحنابلة بعد وفاة الإمام أحمد رحمه الله تعالى.

فقد فهموا بعض العبارات عنه بصورة خاطئة، لاقتصاره رضي الله عنه على الوارد فقط أثناء محنته في القول بخلق القرآن، فظنوا أنه يأخذ بالظواهر، ثم نسبوا إليه مذهبهم في التجسيم والتشبيه، واتبعوا تلك المقالة على أنها مذهب الإمام، والإمام منهم بريء.

وربما كثر أتباع هذا المذهب من الحنابلة؛ لأن مذهبهم ابتلي بخوض عدد من علمائهم

(١) إتحاف السادة المتقين للمرتضى الزبيدي: (٧/٢). وانظر: أهل السنة الأشاعرة، لحمد السنان، وفوزي العنجري، ص: (٣٧).

في التجسيم، على عكس المذاهب الأخرى، التي لم يتكلم علماؤها عن هذه المسائل بالطريقة التي تكلم بها بعض علماء الحنابلة.

يقول الحافظ ابن الجوزي الحنبلي: «ورأيت من أصحابنا -يعني الحنابلة- من تكلم في الأصول بما لا يصلح، فصنفوا كتباً شأنوا بها المذهب. وقد نصحت التابع والمتبوع، فقلت لهم: يا أصحابنا أنتم أصحاب نقل واتباع، وإمامكم الأكبر أحمد بن حنبل يقول وهو تحت السياط: «كيف أقول ما لم يُقَلَّ». فلا تُدْخِلُوا في مذهب الرجل الصالح السلفي ما ليس منه، فلقد كسيتهم هذا المذهب شيئاً قبيحاً، حتى لا يقال حنبلي إلا مُجَسِّم. وقد كان أبو محمد التميمي^(١) يقول في بعض أئمتكم: لقد شأن المذهب شيئاً قبيحاً لا يُغسل إلى يوم القيامة!!»^(٢) اهـ.

فآفة هؤلاء القوم آفة مركبة. فقد اعتنقوا التجسيم أولاً، ثم ادّعوا أنه مذهب الإمام أحمد وأهل الحديث والسلف الصالح من الصحابة والتابعين ثانياً، والثالثة أنهم آذوا الناس في ذلك في مناطق نفوذهم، كما فعل المعتزلة من قبلهم، فمن سَلِمَ من سيوفهم لم يسلم من ألسنتهم. لأنهم يتهمونهم في دروسهم ومصنفاتهم بأنه على خلاف ما كان عليه السلف الصالح، وخلاف ما كان عليه الإمام أحمد بن حنبل!!

وسجّل التاريخ ما فعلوه بالإمام الكبير محمد بن جرير الطبري^(٣) شيخ المفسرين

(١) رزق الله بن عبد الوهاب التميمي، ولد سنة ٤٠٠هـ. قال الذهبي في السير (١٨/٦٠٩): قال السمعاني: هو فقيه الحنابلة وإمامهم، قرأ القرآن والفقه والحديث والأصول والتفسير والفرائض واللغة والعربية، وعمر حتى قُصد من كل جانب، وكان مجلسه جم الفوائد. وقال ابن ناصر: ما رأينا مثله، وكان مقدماً وهو ابن عشرين سنة، وكان ذا قدر رفيع عند الخلفاء اهـ. قلت: هو وأبوه وعمه وجده من مشاهير علماء الحنابلة ومقدميهم. توفي سنة ٤٨٨هـ وانظر طبقات الحنابلة (٢/٢٤٨).

(٢) دَفَعُ شُبُهَيْهِ التَّشْبِيهِ لابن الجوزي بتحقيق الكوثري، ص: (٦-٩).

(٣) قال الخطيب في تاريخ بغداد (٢/١٦٣): أحد أئمة العلماء، قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان بصيراً بالمعاني فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، صحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين في الأحكام ومسائل الحلال والحرام، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم. وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة واختيار من أقاويل الفقهاء. وقال ابن خزيمة: ما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير، ولقد ظَلَمَتْهُ الحنابلة. اهـ. توفي سنة ٣١٠هـ.

والفقهاء وأهل الحديث، وإمام أهل السنة في عصره رحمه الله تعالى. فقد حبسوه في منزله ومنعوا الناس من الدخول عليه حتى توفي فيه، ومنعوا من دفنه نهاراً، فدفنه أهله ليلاً في بيته رحمه الله تعالى!!

قال الحافظ الذهبي: «قال حُسَيْنُكَ النيسابوري^(١): أول ما سألني ابن خزيمة قال: كتبتَ عن محمد بن جرير؟ قلت: لا، قال: ولم؟ قلت: لأنه كان لا يَظْهَرُ، وكانت الحنابلة تَمْنَعُ الناسَ من الدخول عليه. فقال: بئس ما فَعَلْتَ، ليتك لم تكتب عن كل من كتبت عنهم وسمعت منه»^(٢) اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير: «كان قد وقع بينه -الطبري- وبين الحنابلة، أظنه بسبب مسألة اللفظ^(٣)، واتَّهم بالتشيع، وطلبوا عقد مناظرة بينهم وبينه، فجاء ابن جرير لذلك ولم يجيء منهم أحد..!

وقد بالغ الحنابلة في هذه المسألة وتعصبوا لها كثيراً، واعتقدوا أن القول بها يفضي إلى القول بخلق القرآن، وليس كما زعموا، فإن الحق لا يُحتاط له بالباطل، والله أعلم^(٤) اهـ.

وقال العلامة ابن الأثير: «توفي محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ ببغداد ودفن ليلاً بداره، لأنّ العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهاراً، وادّعوا عليه الرّفص، ثم ادعوا عليه الإلحاد!! وهكذا ذكره ابن مسكويه صاحب تجارب الأمم. وحُوشِي ذلك الإمام عن مثل

(١) قال الذهبي في السير (٣١/ ٤٨١): الإمام الأئبل الحافظ القدوة، الحسين بن علي بن محمد بن يحيى التميمي النيسابوري، تربى في حجر ابن خزيمة وكان يقدمه حتى على أولاده. قَالَ الْحَاكِمُ: الغالب على سماعته الصدوق. توفي سنة ٣٧٥ هـ.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي: (٢٣/ ٢٨١)، حوادث سنة ٣١٠ هـ.

(٣) سبق الكلام عنها.

(٤) طبقات الفقهاء الشافعيين لابن كثير: (١/٢٢٦). وانظر محنة ابن جرير مع الحنابلة في البداية والنهاية لابن كثير: (١١/١٤٥)، الكامل في التاريخ لابن الأثير: (٧/٨)، سير أعلام النبلاء للذهبي: (١٤/٢٧٢-٢٧٧)، الوافي بالوفيات للصفي: (٢/٢٨٤).

الدين الرازي^(١) رحمه الله تعالى معهم في بلادهم أشهر من التنويه إليها، فقد كان شجاعاً في حلق أولئك المبتدعة، ويوم مات كانوا أكثر الناس فرحاً وشماتة فيه!

وَجَادَهُمْ سُلْطَانُ الْعُلَمَاءِ الْعَزُّ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ^(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَوَاخِرِ أَيَّامِ
الْأَيُّوبِيِّينَ^(٣)، وَأَوْذَى مِنْهُمْ حَتَّى أَنْهَمَ كَانُوا قَدْ أَوْشَكُوا عَلَى سَفْكِ دَمِهِ، وَادْعُوا عَلَيْهِ أَشْيَاءَ
بَاطِلَةٍ عِنْدَ السُّلْطَانِ لِيَتَخَلَّصُوا مِنْهُ. فَلَمَّا نَظَرَهُمْ رَحِمَهُ اللَّهُ أَمَامَ الْعُلَمَاءِ وَالسُّلْطَانِ، أَقَامَ عَلَيْهِمْ
الْحُجَّةَ وَغَضَّصَهُمْ بِرَبِّقِهِمْ^(٤).

(١) قال ابن العماد في الشذرات (٢٠/٥): العلامة المفسر المتكلم صاحب التصانيف الشهورة، ولد سنة ٥٤٤ هـ وكان صاحب وقار وحشمة. إذا ركب مثنى معه نحو الثلاثمائة مشغل على اختلاف مطالبيهم في التفسير والفقه والكلام والأصول والطب وغير ذلك. وكان فريد عصره ومتكلم زمانه، رزق الخطوة في تصانيفه وانتشرت في الأقاليم، وكان له باع طويل في الوعظ فيكي كثيرا في وعظه. اهـ. وقال ابن خلكان في الوفيات (٢٤٨/٤): كن يلقب في هراة بشيخ الإسلام. قلت: ولم يفرح أهل البدع من المجسمة والمعطلة وسائر النحل بموت أحد مثملا فرحوا بموته، وهو من ذرية الصديق رضي الله عنه. انظر ترجمته أيضا في الأعلام (٣١٣/٦)، وطبقات الشافعية الكبرى (٨٠/٨)، وطبقات المفسرين للسيوطي (١٠٠)، وغيرها.

(٢) شيخ الإسلام و سلطان العلماء، عبد العزيز بن عبد السلام السُّكُومِيُّ. أحد من بلغ رتبة الاجتهاد المطلق، ومن كانت تهتز لكلماتهم عروش السلاطين. بلغ من جرأته في الحق أنه رفض إنفاذ تعاملات سلاطين وأمراء دولة المماليك إلا بعد أن يباعوا في سوق العبيد ويعتقهم من يشترونهم ليصبحوا أحراراً وتصح معاملاتهم. وهو أحد العلماء المجاهدين بالسيف والقلم رحمه الله تعالى. توفي سنة ٦٦٠هـ. قال النووي في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٩٩٥): الشيخ الإمام المجمع على إمامته وجلالته وتمكُّنه في أنواع العلوم وبراعته، اهـ.

(٣) يُنسَبُ إلى أيوب بن شادي. أصلهم من قرية دوين في شرقي أذربيجان، وهم بطن من الأكراد. أبلوا في خدمة الإسلام بلاءً حسناً في كنف آل زنكي، ثم صارت لهم دولة بعد موت الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ٥٦٩ هـ. أولُ ملوكهم السلطان الشهير الكبير الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي قاتل الفرنج في حطين واستخلص بيت المقدس، ثم ساءت أحوالهم بعده واستقل كل منهم بناحيته وقاتل بعضهم بعضاً حتى تحالف بعضهم مع الفرنجة والتآمر على بني عمه وإخوته. وكانت دولتهم في أقصى اتساعها تضم مصر والشام والحجاز وأجزاء من العراق وتركيا واليمن وليبيا. وآخر ملوكهم الملك المقتول توران شاه الملقب بالعظيم بن الصالح نجم الدين أيوب. قتله ممالك أييه سنة ٦٤٨ هـ وقامت بعده دولة المماليك المشهورة.

(٤) طبقات الشافعية، لتاج الدين السبكي: (٣١٢/٨).

بن تيمية رحمه الله تعالى ونُصْرَتُهُ لمذهب المجسمة:

ثم جاء القرن السابع الهجري وحمل في أحشائه إحدى أكبر فتَنِ الحشوية، حيث أثارها شيخ تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية. ولولا خوضه في تلك المسائل وانخراطه في تجسيم ونصرتَه له لكان من أفراد أئمة هذه الأمة.

وستعرض لذكره إن شاء الله في هذا الكتاب، لأن كلامه أصبح عند أتباعه من مجسمة والحشوية -خاصة المتأخرين والمعاصرين- فوق كل كلام، ورأيه فوق كل رأي، دَّعَاهُ قَرَأَنُ مُنْزَلٌ يُجْتَجَبُ بِهِ عَلَى مَنْ خَالَفه! فيحَاكِمُونَ آراءَ العلماء من السلف والخلف سَبَقِينَ وَاللاحِقِينَ إِلَى رَأْيِهِ، فَمَا وَافَقَ رَأْيَهُ قَبِلُوهُ وَمَا خَالَفَ رَأْيَهُ رَفَضُوهُ وَبَذَلُوهُ، وَرَبَّاهُ تَتَعَرَّاهُ عَلَى قَائِلِهِ، وَلَا يَرُونَ أَحَدًا مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ غَيْرَهُ هُوَ وَتَلَامِيذُهُ، وَلَا سِوَاهُ الشَّيْخِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ، الَّذِي كَانَ أَيْضًا كَأَسَاتِذِهِ، وَلَوْ لَا عَقِيدَتُهُ تِلْكَ لَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ.

ولقد كان ابن تيمية رحمه الله تعالى ذا لسان ذلق فصيح، وصاحب نَفْسٍ طویل في كُتُبِهِ، ينتقل فيها من وجه إلى وجه بمرونة قلَّ أن توجد عند كثير من العلماء، ولولا عقيدته لأُجمعت الأمة بأسرها على إمامته وتقدمه، لكنَّ الكمال لله وحده عز وجل.

وكان له ذهن سيال وبديهة حاضرة قوية مكَّنته من جمع الكثير من الأفكار والنظريات وخلطها مع بعضها البعض لنصرة مذهبه الذي عاش أغلب عمره ينافح عنه. فكان رحمه الله بمثابة مجددٍ يقوم بتشذيب وترتيب مذهب التجسيم، إلا أنه كان أفطن ممن قبله وأكثر ذكاء. ونيس أدل على ذلك من أنه حاول أن يستدرج قواعد علم الكلام لمذهبه في مناقشات طويلة مع أهل السنة. لكنَّ خُروق مذهب التجسيم استعصت على كل محاولات الترقيع والترميم.

وَجِدَّةُ ذِكَاثِهِ وَسَيَلَانُ ذَهْنِهِ جَرَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْعُجْبِ وَالاعتداد بالنفس إلى حد بعيد كما ذكر الذهبي رحمه الله تعالى في «زغل العلم والطلب». فقد انزل ابن تيمية رحمه الله تعالى بعد شذوذاته العقائدية في شذوذات واختيارات أخرى فقهية انفرد بها عن جمهور المسلمين، بل وخرق الإجماع في بعضها، ثم تعدَّى الأمر وزاد بعد ذلك إلى طعنه في العلماء وعدم الاكتراث بهم، سواء من القدامى أو من المعاصرين له، طالما خالفوا فكرته. وليس أدلَّ على

فقد كان أكثر الناس إنصافاً لابن تيمية رحمه الله هم معاصريه من أهل العلم، حيث حاسبوه على أخطائه، وحاكموه على قدر ما صدر منه، في الوقت الذي لم يبخسوه حقه من المدح والإطراء بفطر ذكائه وكثرة محفوظاته وغيرها مما كان يمتلكه من المواهب.

وليس الأمر كما يشيع أدعياء السلفية اليوم، أن العلماء جميعاً حسدوه ونافسوه وكرهوه وكلاماً من هذا القبيل، حتى إن الإنسان لَيَظُنُّ لتلك الأكاذيب أن جميع علماء عصره كانوا شياطين فجرة، لا ضمير لهم ولا أخلاق، ولم يكن هناك أصحاب ضمير إلا ابن تيمية وحده وتلاميذه!! فحاشاهم من ذلك ثم حاشاهم رحمهم الله تعالى.

فَهَبْ أن واحداً أو اثنين أو خمسة من الشيوخ حسدوه أو كرهوه، فهل يصح اتهام كل شيوخ الإسلام الذين عاصروه بذلك؟ بل إن انقلاب جميع علماء عصره عليه أمانة وعلمة واضحة أنه ارتكب خطأ فادحاً لم يمكن للعلماء السكوت عليه، وفي طليعتهم من أحبه وناصره كأبي حيان^(١) والذهبي وغيرهما، رحم الله الجميع.

ونعرض هنا مواضع من الرسالة المشهورة بالنصيحة الذهبية، وقد أرسلها الحافظ الذهبي إلى شيخه ابن تيمية، حتى يتبين للقارئ مدى انحراف أصحابه المحبين له عنه بعد نصرته له، لا سيما بعد أن عرفوا ما آل إليه حاله وما تبوح به أقواله. وقد أرسلها إليه الذهبي بعد دخول ابن تيمية في شرخ السبعين من العمر، مما يدل على أنه غير رأيه فيه.

= للذهبي رحمه الله كالحافظ السخاوي والحافظ ابن حجر في إنباء الغمر عند ترجمته لبهاء الدين العسقلاني. فقال ابن حجر: وقد بالغ الذهبي في الثناء عليه في كتابه بيان زغل العلم، وفي غيره، قال (١/٦٨-١٦٩): وكان شيئاً عجيباً في الزهد والانجماع وقول الحق، اهـ. ولينظر مقدمة السير للذهبي بتحقيق بشار عواد معروف (١/٨٣). وانظر: التعليقات الجلية على النصائح الذهبية لغيث الغالبي، ضمن مجموعة: رسائل في تدعيم ثوابت الصحوة الإسلامية: [مشاعل للتحويل من ولأى لأشخاص إلى ولأى للحق].

(١) محمد بن يوسف بن علي الأندلسي. قال ابن حجر في الدرر (٦/٥٨): كان ثباتاً فيما ينقله، عارفاً باللغة، وأما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق فيها، خدم هذا الفن أكثر عمره حتى صار لا يذكر أحد في أقطار الأرض فيها غيره، وله اليد الطولى في التفسير والحديث وتراجم الناس ومعرفة طبقاتهم. أقرأ الناس قديماً وحديثاً حتى ألحق الصغار بالكبار، وصارت تلامذته أئمة وأشياخاً في حياته، اهـ. توفي سنة ٦٤٥هـ.

والذهبي تلميذ لابن تيمية وأي تلميذ، لقد كان تلميذا مفتونا معجبا بأستاذه وشيخه
يُفتنه وإعجاب. وترجمته له في كتبه تشهد بذلك وتفصح عنه.

وصدور مثل هذه الرسالة منه لابن تيمية، معناه أن ابن تيمية تنكّب طريق الجادة
وحدد عن الصواب، فاجتلب على نفسه ملامة الأحباب قبل الخصوم.

فهل يقول الذين يرفعون ابن تيمية إلى درجة من القداسة لا مثيل لها أن الحافظ
نذهبي كان من الحاقدين عليه والناقمين منه؟ وهل يصح بعد ذلك إلقاء الكلام على
عواهنه، واتهام علماء الإسلام بأنهم كانوا مجرد حاقدين وحاسدين معدومي الضمائر؟
سبحانك هذا بهتان عظيم!

يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني في ترجمة ابن تيمية: «في شهر ربيع الأول سنة
٦٩٨ هـ قام عليه جماعة من الفقهاء بسبب الفتوى الحموية، وبحثوا معه ومُنِع من الكلام.

= الثقات. فأثبتها عدد من أهل العلم ولم يُعرجوا على أقوال المشككين بها لضعف الشكوك وركاكة.
والحافظ السخاوي ذكر تلك الرسالة كذلك في كتابه الإعلان بالتوبيخ (ص ٧٧) وقال عنها: «وقد رأيت
له - أي للذهبي - عقيدة مجيدة ورسالة كتبها لابن تيمية هي لدفع نسبته لمزيد تعصبه مفيدة»، اهـ. ولا
يمكن أن يقصد بها رسالة زغل العلم، لأن رسالة زغل العلم غير موجهة لابن تيمية بخلاف النصيحة
الذهبية فهي صريحة في المناصحة لشيخه رحمها الله تعالى، اهـ. ومن أثبتها الدكتور المحقق: صلاح الدين
المنجد الذي ألحق الرسالة بكتابه: «شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين»، ثم قال معلقاً
عليها: «شك بعضهم في نسبة هذه النصيحة للذهبي، ولا شك عندنا أنها له. فقد نُقلت مخطوطاتها من خط
الذهبي، ولم ينكرها أحد من العلماء الذين نقلوها، كتقي الدين بن قاضي شبهة وغيره. ثم إن هذا هو
أسلوب الذهبي عندما يُهاجم، ويبدو أنه كتبها في آخر عمره. ولم يشأ أحد على الشيخ كثناء الذهبي عليه،
لكنه انتقده بعد ذلك في بعض الأمور جاً له، وإشفاقاً عليه»، اهـ. ومنهم: الدكتور المحقق بشار عواد
معروف، الذي قال في كتابه: «الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام» وهو يتحدث عن انفراد السخاوي
بذكر بعض آثار الذهبي: «وهو الوحيد الذي أشار إلى رسالة الذهبي إلى ابن تيمية، مما وثق نسبتها إليه، لا
سيما وقد شك فيها غير واحد»، اهـ. ثم أوردها الدكتور بشار في عداد آثاره، وقال: «وذهب بعضهم إلى
القول بأنها مزورة، ولا عبرة بذلك»، اهـ. وكرر ذلك في مقلّمته على (سير أعلام النبلاء) قائلاً: «وأرسل
إليه نصيحته الذهبية التي يلومه ويتقد بعض آرائه وآراء أصحابه بها»، اهـ. وكذلك قطع بنسبتها عدد من
العلماء. وانظر: التعليقات الجلية على النصائح الذهبية لغيث الغالبي، ضمن مجموعة: رسائل في تدعيم
ثوابت الصحوة الإسلامية: [مشاعل للتحوّل من ولاءٍ لأشخاص إلى ولاءٍ للحق].

ووصل إلى دمشق في آخر سنة ٧١٢هـ وكان السبب في هذه المحنة أن مرسره السلطان ورد على النائب بامتحانهِ في مُعْتَقَدِهِ، لما وقع إليه من أمور تُتَكَرَّر في ذلك، فعُتِدَ له مجلس في سابع رجب وسئل عن عقيدته، فأملأ منها شيئاً،... ثم احتضروا العقيدة التي تعرف بالواسطية فَقَرَأَ منها وبحثوا في مواضع، ثم اجتمعوا في ثاني عشره وقرروا الصَّفِيَّ الهندي^(١) يبحث معه، ثم أخروه وقدموا الكمال الزملكاني^(٢)، ثم انفصل الأمر على أنه شهد على نفسه أنه شافعي المعتقد^(٣). وتعصب سلاّر -نائب السلطنة- لابن تيمية^(٤)، وأحضر القضاة الثلاثة -الشافعي والمالكي والحنفي- وتكلم معهم في إخراجهم، فاتفقوا على أنهم يشترطون فيه شروطاً، وأن يرجع عن بعض العقيدة، فأرسلوا إليه مرات فامتنع من الحضور إليهم واستمر، ولم يزل ابن تيمية في الحب إلى أن شفع فيه مهنا أمير آل فضل، فأُخرج،.... وأحضر إلى القلعة ووقع البحث مع بعض الفقهاء، فَكُتِبَ عليه محضر بأنه قال: أنا أشعري.

ثم وُجد خطه بما نصه: الذي أعتقد، أن القرآن معني قائم بذات الله، وهو صفة من

(١) صفى الدين الهندي الأرموي. قال الصفدي في الوافي (١/٣٩٣): العلامة الأوحى الشافعي الأصولي شيخ الشيوخ، ولد بالهند سنة ٦٤٤هـ وتفقّه هناك بجده لأمه ثم رحل من دلهي. قدم دمشق، وأقرأ الأصول والمقول، وأفتى. فيه دين وتعب وله أوراد. دَرَسَ بالرواحية، وأشغل بالجامع، وكان حسن العقيدة. مات سنة ٧١٥هـ.

(٢) قال ابن حجر في الدرر (٢/٤٠): أحد المتقدمين في الفتاوى والتدريس والمجالس، والمرجع إليهم في المناظرة. وأطلق عليه الذهبيُّ عالمُ العصر وكبير الشافعية، قال: وكان بصيراً بالمذهب وأصوله، قوى العربية ذكياً فطناً فقيه النفس، وكان يضرب بذكائه المثل، أفتى وله نيف وعشرين سنة، وتخرج غالب علماء العصر عليه، ولم يروا غيره في كرم نفسه وعلو همته، ودَرَسَ بمدارس. قال ابن كثير: انتهت إليه رئاسة المذهب تدريجاً وإفتاء ومناظرة، وساد أقرانه بذهنه الوقاد وتحصيله الذي منعه الرقاد وعبارته الرائقة وكلماته الفاتكة، ولم يُسمع أحد من الناس يدرّس أحسن منه، ولا سمعت أحلى من عبارته وجودة تقريره وصحة ذهنه وقوة قريحته. اهـ. توفي سنة ٧٢٧هـ.

(٣) قلت: كانوا في هذا العصر ينعنون الأشاعرة بشافعية المعتقد، لأن أكابر الأشاعرة أكثرهم شافعية، ومثل ذلك ما يقال عن الماتريدية أنهم الحنفية، فيكون ابن تيمية أشهد على نفسه أنه أشعري، وسيأتي بلفظه بعد ذلك.

(٤) وهذا ينقض ما يزعمه أدعياء السلفية أن العلماء حرضوا عليه السلطة، حيث كان سلاّر حاكم الشام يتعصب لصالحه على العلماء.

صفات ذاته القديمة، وهو غير مخلوق، وليس بحرف ولا صوت، وأن قوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى عَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] ليس على ظاهره، ولا أعلم كنهه المراد به، بل لا يعلمه إلا الله، والقول في النزول كالقول في الاستواء، وكتبه أحمد بن تيمية.

ثم أشهدوا عليه أنه تاب مما ينافي ذلك مختاراً، في خامس عشري ربيع الأول سنة ٧٠٧هـ، وشهد عليه بذلك جمعٌ جمٌ من العلماء وغيرهم وسكن الحال^(١) اهـ.

ويبدو أن الرجل كان يصانعههم، ويداري عنهم خبيثة نفسه. لكن الذي تَقَرَّرَ على كل حل في الشيخ ابن تيمية وتلميذه الشيخ ابن قيم الجوزية: أَنَّ حَكَمَ قِضَاءِ المذاهب بحبسهما، وَمَنَعَ الناس من الاختلاف إليهما، وتحريم قراءة كتبهما، إلى أن مات ابن تيمية في السجن، ثم ضَلِقَ ابن القيم بعد وفاته. لكنه كان قد حمل علوم شيخه ورتبها ونظمها وزينها بزخارف كلام وكثرة التحير.

وانقضت فتنة الشيخ ابن تيمية وأتباعه، واختفت كتبهم ولم يعد لها وجود بين أهل نعلم، إلا ما كان حشوية الحنابلة يخفونه ويتناقلونه بعيداً عن عيون أهل السنة.

ومنها المتون المختصرة لابن تيمية، التي طبعت وانتشرت بكثرة في بدايات القرن الرابع عشر الهجري، كالواسطية والتلمرية والحموية، والكتب المطولة كَدَرِّءِ التعارض ومنهاج السنة، وقد جُمع أكثرها في الفتاوى الكبرى ومجموعة الفتاوى، وكذلك طُبعت كتب تلميذه ابن القيم فيما يخص العقائد.

وكل تلك الكتب لم يكن العلماء يعولون عليها ولا يركنون إليها، لما كان فيها من نصريح بالتجسيم وتشبيه الله تعالى بخلقه والوقوع في علماء الأمة وتنقيصهم.

التجسيم يسفك دماء المسلمين تحت شعار التوحيد وعقيدة السلف:

وسبب نهضة تلك الكتب وإخراجها من قبورها مرة أخرى، ظهور الوَهَابِيَّةِ بِنَجْدٍ، وهي الفتنة الكبرى الأخيرة من فِتَنِ المَجْسَمَةِ. نَصَرَتْهَا سيوف السلطان وَنَشَرَتْهَا في أنحاء

الحجاز ونجد، ولا زالت حية إلى الآن تطلق قذائف التبديع والتفسيق والتكفير على أكابر علماء المسلمين، وتحكم على عشرة قرون من عمر هذه الأمة بالضلال وفساد العقيدة. حتى وصل الحال بأحد المعاصرين في رسالة له مَلَأَهَا بالكاذيب عن الأشاعرة، أن يصف شيخ الإسلام وخير من تلقب بالحافظ، الإمام ابن حجر العسقلاني أنه كان متذبذبا في العقيدة !!، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(١).

وفي بداية هذه الفتنة رفض العلماء الانصياع لهم، فقاموا بحمل الناس على تلك العقيدة قسراً، وهددوهم بالسلاح وإراقة الدماء، وحكموا على غيرهم بالكفر واستحلال دمه، وسبى نسائه وذريته!!

حتى أضحي الحرمان الشريفان في مكة والمدينة، وأضحت سائر بلاد الحجاز وأرض نجد قفرا خالية من العلماء الراسخين، الذين فروا بدينهم من سيوف المجسمة.

قال مفتي الحنابلة بمكة الشيخ محمد بن حميد النجدي: «فإنه -يعني ابن عبد الوهاب- كان إذا بايئه أحد وردَّ عليه ولم يقدر على قتله مجاهرةً، يرسل إليه من يغتاله في فراشه أو في السوق ليلاً، لقوله بتكفر من خالفه واستحلاله قتله!»^(٢) اهـ.

وقال رئيس المدرسين بمكة ومفتي الشافعية فيها العلامة السيد أحمد دحلان: «كان يقول لأهل الدَّرْعِيَّة: إنما أدعوكم إلى التوحيد وترك الشرك بالله، ويزين لهم القول وهم أهل

(١) هو الدكتور سفر الحوالي ساعه الله تعالى في رسالة «منهج الأشاعرة في العقيدة». فالرجل ما ترك صفحة في رسالته إلا ووسط فيها كذبة أو أكثر، ولم يرقب في علماء المسلمين إلا ولا ذمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقد أحسن الدكتور عمر عبد الله كامل في كتاب رد عليه فيه وسماه «كفى تفريقاً للأمة باسم السلف»، والدكتور صلاح الدين الإدلبي في كتابه «عقائد الأشاعرة»، وكلاهما أحسن غاية الإحسان، كما رد عليه العلامة محمد صالح الغرسي في كتابه «منهج الأشاعرة في العقيدة بين الحقائق والأوهام». ولم يستطع الرد بحرف واحد عليهم جزأهم الله كل خير، رغم مرور فترة طويلة، تكفي لكتابة مجلدات لا مجرد ردود.

(٢) السحب الوابلة على ضرائح الخنايبة لمحمد بن حميد النجدي، ص: (٢٧٦). وكان معاصرا للأحداث رحمه الله تعالى.

. ذي في غاية الجهل، لا يعرفون شيئاً من أمور الدين، فاستحسنوا ما جاءهم به. وكان يقول
 - بني أدعوكم إلى الدين. وجميع ما هو تحت السبع الطباق مشرك على الإطلاق، ومن قتل
 - يك فله الجنة. فتابعوه وكانت نفوسهم بهذا القول مطمئنة. فكان محمد بن عبد الوهاب
 - كالتبي في أمته، لا يتركون شيئاً مما يقول ولا يفعلون شيئاً إلا بأمره، ويعظمونه غاية
 - عظيم. وإذا قتلوا إنساناً أخذوا ماله وأعطوا أميرهم الخمس واقتسموا الباقي، وكانوا
 - سرن معه حيثما مشى ويأتمرون له بما شاء!! ولما ملكوا الطائف في ذي القعدة سنة
 ١٠هـ قتلوا الكبير والصغير والمأمور والامر، ولم ينج إلا من طال عمره. وكانوا يذبحون
 - صغير على صدر أمه، ونهبوا الأموال وسبوا النساء وفعلوا أشياء يطول الكلام
 - ترحه»^(١) اهـ.

وذكر مؤرخ الوهابية ابن غنام حواراً دار بين أمير الدرعية وابن عبد الوهاب: « قال
 - سير للشيخ: أريد أن أشرط عليك اثنتين: نحن إذا قمنا في نصرتك والجهاد في سبيل الله
 - تح الله لنا ولك البلدان، أخاف أن ترحل عنا وتستبدل بنا غيرنا. والثانية: أن لي على
 - رعية قانوننا^(٢) آخذه منهم في وقت الثمار، وأخاف أن تقول لا تأخذ منهم شيئاً. فقال
 - شيخ: أما الأولى فابسط يدك. الدم بالدم والهدم بالهدم. وأما الثانية، فلعل الله أن يفتح لك
 - تحرح، فيعوضك الله من الغنائم ما هو خير منهم»^(٣) اهـ.

ويلاحظ تكفيرهم لغيرهم من المسلمين. حيث كانوا يسمون أنفسهم -فقط-
 - سمنين وأهل الإسلام وأهل التوحيد، ويسمون غيرهم بالكفار وأهل الكفر وأهل
 - ضلال، ويعتبرون أموالهم غنائم ونساءهم وذرايرهم سبايا، وينعتون الذين يخرجون عليهم
 - عد أن عاهدوهم -خوفاً من سيوفهم- بالمرتدين!!

نדרر السنية في الرد على الوهابية، لمفتي مكة السيد أحمد زيني دحلان، ص: (٤٧-٤٨).

* قل د. ناصر الدين الأسد، محقق الكتاب: القانون هو ما يدفعه الضعيف للقوي ليحميه ويدافع عنه.
 ويسمى الخفارة والقانون في أهل نجد.

- تاريخ نجد لابن غنام: (٨٧).

قال ابن غنام: «ثم سار المسلمون في سنة ١١٦٢ إلى الرياض...، فوصلوا وقت الصبح إلى نخل هناك يعرف بالحبونية. فخرج إليهم أهل الرياض وتراموا من بعيد بالرصاص. وقد قتل من أهل الرياض سبعة...، وقتل من المسلمين ثلاثة...، وهدم المسلمون ما بالمكان من جدار، ثم عادوا في المساء إلى منفوحة.

وقال ابن غنام أيضا: وفي هذه السنة ارتدَّ إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن أمير ضرمى، ونقض عهد الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير!!»^(١) اهـ.

وقال الشيخ ابن باز يصف الوضع في نجد بعد ظهور الوهابية: «وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، وساد الأمن في الأمصار والقرى والطرق والبوادي ووقف البادية عند حدهم. ودخلوا في دين الله وقبلوا الحق، ونشر الشيخ فيهم الدعوة. وأرسل الشيخ إليهم المرشدين والدعاة في الصحراء والبوادي، كما أرسل المعلمين والمرشدين والقضاة إلى البلدان والقرى. وعم هذا الخير العظيم والهدى المستبين نجدا كلها وانتشر فيها الحق، وظهر فيها دين الله عز وجل»^(٢) اهـ.

ولما استفحل أمرهم وكثر إيذاؤهم للناس، بل وتعطل الحج من بعض بلاد المسلمين إلى البيت الحرام بسببهم، ولريذهب الناس إلى مكة خوفا من إجبار الوهابية لهم على تغيير عقيدتهم، أرسل الخليفة العثماني إلى محمد علي الألباني والي مصر أن يدخل بالعساكر المصرية والتركية إلى أراضي نجد والحجاز ويقضي على هذه الفتنة.

يقول الشيخ ابن باز أيضا: «فجرئ ما جرى من الفتن والقتال، وصار القتال بين الجنود المصرية والتركية ومن معهم، وبين آل سعود في نجد والحجاز سجالا مدة طويلة، من عام ١٢٢٦ هـ إلى عام ١٢٣٣ هـ، سبع سنين كلها قتال ونضال بين قوى الحق وقوى الباطل»^(٣) اهـ.

(١) المرجع السابق: (١٠٤).

(٢) مجموع فتاوى ابن باز: (١/ ٣٦٩)، وانظر «الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته»، لعبد العزيز بن باز. مجموعة: «دعائى المناوئين للشيخ محمد بن عبد الوهاب»، فريق عمل موقع صيد الفوائد.

<http://saaid.net/monawein/t.htm>

(٣) المصدر السابق.

وقالها الشيخ محمد بن عبد الوهاب نفسه صراحة، بألفاظ لا تحتل التأويل ولا إساءة
خيم، أن منهجه هو الإسلام وما عداه ليس كذلك!!

قال في رسالته إلى أهل الرياض ومنفوحة: «وأنا أخبركم عن نفسي. والله الذي لا إله
هو لقد طلبت العلم، واعتقد من عرفني أن لي معرفة^(١)، وأنا ذلك الوقت لا أعرف معنى
«لا إله إلا الله»، ولا أعرف دين الإسلام قبل هذا الخير الذي من الله تعالى به^(٢)؛ وكذلك
شيخي ما منهم رجل عرف ذلك! فمن زعم من علماء العارض أنه عرف معنى «لا إله إلا
الله» ومعنى الإسلام قبل هذا الوقت، أو زعم عن مشايخه أن أحدا عرف ذلك، فقد كذب
فترى ولبس على الناس ومدح نفسه بما ليس فيه!»^(٣) اهـ.

وقد صنف الكثيرون من علماء الإسلام رسائل وكتباً في الرد على هؤلاء الذين كانوا
يسمون أنفسهم فقط بالمسلمين، ونسبوا أنفسهم للسلف الصالح والإمام أحمد بن حنبل، كما
نعت سابقوهم في عصر الإمام ابن الجوزي، كأنهم تواصلوا به!

فألف الشيخ سليمان بن عبد الوهاب التميمي الحنبلي، أخو محمد بن عبد الوهاب
كتاباً في الرد والتشنيع على بدعة أخيه.

قال فيه رحمه الله تعالى: «ابتلي الناس بمن يتسبب إلى الكتاب والسنة ويستنبط من
علومهما، ولا يبالي بمن خالفه. وإذا طلبت منه أن يعرض كلامه على أهل العلم ليرفع، بل
يُرجب على الناس الأخذ بقوله وبمفهومه، ومن خالفه فهو عنده كافر. هذا، وهو لم يكن فيه
خصلة واحدة من خصال أهل الاجتهاد، ولا - والله - عشر واحدة. ومع هذا، راج كلامه
على كثير من الجهال. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ويقول في موضع آخر: فإنكم الآن تُكفرون من شهد أن لا إله إلا الله وحده، وأن
محمداً عبده ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان وحج البيت، مؤمناً بالله

(١) قلت: يقصد بالمعرفة علوم الشرع.

(٢) قلت: يقصد دعوته التي خرج بها على الناس بعد ذلك.

(٣) تاريخ نجد لابن غنام، ص: (٣١٠).

وملائكته وكتبه ورسله، ملتزماً لجميع شعائر الإسلام، وتجعلونهم كفاراً، وبلادهم بلاد حرب. ولكن، هذه التفاصيل التي تَفَصِّلُون من عندكم أَنَّ مَنْ فَعَلَ كَذَا فهو مشرك. وتخرجونه من الإسلام. من أين لكم هذا التفصيل؟ أَسْتَبْطَأْتُمْ ذلك بمفاهيمكم؟ فقد تقدم لكم من إجماع الأمة أنه لا يجوز لمثلكم الاستنباط. أَلَكُم في ذلك قدوة من إجماع أو تقليد من يجوز تقليده؟ مع أنه لا يجوز للمقلِّد أن يُكفِّر إن لم يُجمِع الأمة على قول مُتَّبِعِهِ»^(١) اهـ.

وشهادته رحمه الله تعالى في حق أخيه كافية في نفي أن المخالفين له من العلماء حسدوه وكذبوا في حقه، كما يدعي الوهابية اليوم. وهو نفس الادعاء الذي ساقوه ليبرروا به خلاف علماء الإسلام للشيخ ابن تيمية!!

ولولا خوف الإطالة لنقلْتُ ما قاله علماء الإسلام فيهم، كالعلامة الصاوي المالكي والعلامة ابن عابدين الحنفي والعلامة النبهاني الشافعي وغيرهم. فقد قاموا بواجبهم تجاه تلك الفتنة، فكفَّوا وَوَفَّوْا رحمهم الله تعالى.

وكان فكر الوهابية في بداية أمره محصوراً في مناطق نفوذهم لا يتجاوزها، حتى جاء العصر الحديث وكثرت أمواهم. فقاموا بخدمة دعوتهم بالمطبوعات والكتب والأشرطة وبناء الصروح التي تنشر مذهبهم.

وفي الوقت الذي اتسعت فيه أرزاق دولة المبتدعة، ابْتَلِيَتْ بقية بلاد العالم الإسلامي بحكومات عميلة خاضعة للمحتل، حاربت الدين والعلم والعلماء بغض النظر عن مذهبهم، وضيق عليهم، فمنهم من قُتِلَ ومنهم من نُفِيَ ومنهم من اعتقل، ومَنْ بقي منهم حورب في رزقه ودعوته.

فلم يعد مذهب أهل السنة الأشعرية والماتريدية يلقي من الخدمة والنشر والدعم ما يلقاه ذلك المذهب البدعي، بل على العكس كان يلقي العنت والتعتيم ومحاولات الإزهاق،

(١) فصل الخطاب في مذهب محمد بن عبد الوهاب، وهو نفسه الكتاب المشهور «الصواعق الإلهية في الرد على مذهب الوهابية»، لسليمان بن عبد الوهاب الحنبلي النجدي، أخو الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حسب ما جاء في إيضاح المكنون: (٧٢/٢)، ومعجم المؤلفين: (٤/٢٦٩).

في الأزهر الشريف وغيره من المؤسسات السُّنِّيَّة، التي قادت حركات المقاومة ضد
العلمنة ومحاولات التغريب!

وكان نتيجة لخروج الكثيرين من المسلمين سعياً وراء أرزاقهم في تلك البلاد - ومنهم
- لا يفقهون في الدين قليلاً ولا كثيراً - أن انخدعوا بمظاهرتهم ورنين كلامهم، وأخذوا
- كثيراً من الأفكار، لبساطتها وسطحياتها الشديدة، فنقلوا تلك الأفكار عند رجوعهم
- إلهم. فرأينا بعد ذلك الجماعات المسلحة، وسمعنا بالإرهاب وترويع الأمنيين تحت
- نصرته الدين بحجة أنهم كفار، ولم يكن ذلك معروفاً قبل انتشار كتبهم وبدعهم بين
- السُّنَّة، اللهم إلا ما كان من الخوارج ثم من الباطنية الحشاشين والقرامطة.

جسمة في لباس أهل السنة يصنّفون الناس:

ثم إنهم لم يكتفوا بمجرد نشر أفكارهم وتصديرها إلى خارج حدودهم، بل جعلوا من
أنفسهم حكماً على عقيدة المسلمين، يصنّفون الناس إلى أهل سنة وخوارج ومرجئة ورافضة
ومعطلة وجهمية، وغير ذلك من الألقاب القديمة، التي لها مدلولات عقديّة. فيحتكرون
لأنفسهم لقب أهل السنة، ثم يوزعون بقية الألقاب على من خالفهم. وادّعوا أنهم يقومون
بذلك اعتماداً على قواعد علم الجرح والتعديل.

مع أن علم الجرح والتعديل موضوعٌ للحكم على رواة الأحاديث النبوية في زمن
تدوين السنة. والآن قد انقطعت الرواية بانقضاء زمان أئمة الرواية، واستقرت دواوين السنة
وانتشرت وبلغت شهرتها الآفاق، وأصبح علم الجرح والتعديل في الأزمنة المتأخرة يستفاد
منه في معرفة أسباب تعديل الرواة وتجريحهم، ودراسة مناهج الأئمة السابقين، لا الحكم على
الفقهاء والعلماء المعاصرين!!

وتحت هذا شعار صبوا جام غضبهم على الأشاعرة والماتريدية - أهل السنة
الحقيقيين - وصوبوا إليهم سهامهم، وادّعوا أنهم أهل ضلال وإضلال لينفروا الناس عنهم.
رغم أن الأشاعرة والماتريدية تَبَلَّوْا مذهبهما ما بين القرنين الرابع والخامس الهجريين،
وأصبح اسمهما علماً على أهل السنة، بحيث إذا قيل أن فلاناً من أهل السنة عَرَفَ السامع أنه

أشعري أو ماتريدي، سواء كان السامع سنياً أو معتزلياً أو رافضياً، فلم يكن لهم مُنْزَعُ الانتساب إلى السنة. في حين أن مذهب هؤلاء لم يكن محسوباً على أهل السنة من الأسر. فضلاً عن أن يكون له أي ثقل يذكر قبل القرن الثالث عشر الهجري، حيث نشأت له د. ترعاه وتقوم على حمايته ونشره.

فهل كانت الأمة كافرة حتى ظهر هؤلاء؟ وهل كان كل شيوخ الإسلام من المفسرين والمحدثين واللغويين والفقهاء والأصوليين كفاراً مبتدعين حتى ظهر مذهب أولئك نجد؟ وأين نذهب بقوله ﷺ - وهو الذي لا ينطق عن الهوى -: «لَا يَجْمَعُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عِزَّ الضَّلَالَةِ أَبَدًا، وَيَدُّ اللَّهُ عَلَى الْجَمَاعَةِ، فَاتَّبِعُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ، فَإِنَّهُ مَنْ شَذَّ، شَذَّ فِي النَّارِ»^(١). ومما زاد الأمر سوءاً، ما أطلقوه على أنفسهم من الأسماء والألقاب، ليموهوا عن الناس ويلبسوا عليهم أمرهم.

فتارة يطلقون على أنفسهم أهل الحديث: والحديث يعمل فيه وفي علومه مخالفون بل وأئمة الحديث جُلُّهم أشاعرة وماتريديّة إن لم يكونوا كلهم!!، كالبيهقي وابن حبان والخطيب البغدادي والحاكم وأبي نعيم وابن عساكر وابن الصلاح والنووي وابن كثير والعراقي والهيثمي والزيلعي والعجلوني وابن حجر العسقلاني والسيوطي والسخاوي والدمياطي، وكثير غيرهم سنذكرهم إن شاء الله تعالى في هذا الكتاب. والوهابية أنفسهم يقتبسون منهم ويرجعون إليهم ويحتكمون إلى كلامهم!!، ولا يوافقون عقيدة بعض أهل الحديث إلا في تعريف الإيمان فقط!!

وتارة يسمون أنفسهم الفرقة الناجية: متأولين الحديث الوارد في افتراق الأمة إلى بضعة وسبعين فرقة، ومنزلين إياه على أنفسهم فقط.

(١) قال السخاوي في المقاصد الحسنة (٧١٦/١): حديث مشهور المتن، وأسانيده كثيرة متعددة الطرق والمخارج، وذلك علامة القوة، فلا يتزل عن الحسن. وصححه الزرقاني في مختصر المقاصد: (١١٧٩). بلفظ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة». وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢/٤٧٠): مشهور المتن وله أسانيد كثيرة وشواهد عديدة. وضعفه الحافظ ابن حجر في إتحاف المهرة: (٨/٥٢٩). قلت: وتراجع الألباني عن تضعيف الفقرة الأولى إلى قوله: الضلالة. وصححه في السلسلة الصحيحة: (٣/٣٢٠).

وتارة يسمون أنفسهم بالطائفة المتصورة: يتأولون حديثاً آخر، أصله في المجاهدين الذين يرابطون ويقاتلون الكفار في أرض الجهاد وعلى ثغور المسلمين.

وتارة يسمون أنفسهم -هم فقط- أهل السنة والجماعة: بزعم أنهم حماها ورعاتها، ويجردون مخالفيهم -ولا سيما الأشاعرة والماتريدية- من الانتساب إلى السنة في كتبهم وأشرطتهم ومنشوراتهم. ونتج عن ضجيجهم، أن ظنَّ كثيرٌ من الناس أنهم على الحق، وأنهم وحدهم الناطقون به.

وتارة يطلقون على أنفسهم اسم السلفية والسلفيين، نسبة إلى السلف الصالح: كأن بقية الأمة لا يعرفون شيئاً عن السلف.

وقد اضطروا إلى اختراع هذا اللقب بعد أن أصبح اسم الوهابية علماً على الشذوذ في 'الدين ومخالفة إجماع المسلمين، فهم الآن يرفضون تسميتهم بالوهابية رفضاً شديداً، سواء كنوا من أهل نجد أو ممن اتبع نهجهم من أهل البلاد الأخرى.

فينسبون أنفسهم -دون غيرهم- للسلف الصالح، رغم أن أسانيد الأشاعرة والماتريدية أقوى اتصالاً وأصح وأوثق نقلاً عن السلف. ولا يخفى على كل ذي عينين أن الأشاعرة والماتريدية هم الذين نقلوا علوم السلف في كتبهم وعلموها للناس وأوصوهم أن يتمسكوا بها قبل أن يظهر هؤلاء. حيث نُقلت إلينا كل علوم الدين من التفسير والحديث والعقيدة والفقه وأصوله واللغة وغيرها، بسلاسل أسانيد يمثل الأشاعرة والماتريدية جميع حلقاتها، دون أن يخرج اتصالها مذهبٌ آخر في طبقة من الطبقات. وإثبات ذلك لا يحتاج إلى أكثر من النظر في المكتبة الإسلامية، وحصر مراجعها في كل فن من الفنون، وتتبع أسانيد هذه المراجع.

بينما أسانيد أولئك القوم -وخاصة في العقيدة- منقطعٌ ما بينها وبين السلف انقطاعاً معضلاً، لا يمكن تربيعة بحال، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. وإثبات ذلك أيضاً لا يحتاج إلى أكثر من النظر في مراجعهم العقديّة التي ترجع بأفكارها ومنهجيتها وتقسيمها وتبويبها إلى الشيخين ابن تيمية وابن القيم.

لا إله إلا هو لقد طلبت العلم، واعتقدت من عرفني أن لي معرفة^(١)، وأنا ذلك الوقت لا أعرف
معنى «لا إله إلا الله»، ولا أعرف دين الإسلام قبل هذا الخير الذي من الله تعالى به^(٢)!
وكذلك مشايخي ما منهم رجل عرف ذلك! فمن زعم من علماء العارض أنه عرف معنى «لا
إله إلا الله» ومعنى الإسلام قبل هذا الوقت، أو زعم عن مشايخي أن أحدا عرف ذلك، فقد
كذب وافترى ولبس على الناس ومدح نفسه بما ليس فيه!»^(٣) اهـ.

ثم إن ابن تيمية وابن القيم ليسا على عقيدة أهل العلم في زمانها من الأشاعرة
والماتريدية، رغم أن كل شيوخ ابن تيمية أشاعرة أو ماتريدية، فكيف يدعى أنه على عقيدة
السلف، وأهل زمانه جميعا من شيوخته وزملائه لم يأخذوا عن السلف ما يدعي هو أخذه
عنهم، رغم أنهم نقلوا علومهم بالأسانيد المتصلة. إلا إذا كان قرأ كتباً فهمها بفهمه هو ثم
نسب ما فهمه للسلف. وهذا الانقطاع هو الإعضال بلا نزاع!

وهذا ما يؤكد كلام ابن تيمية نفسه، والذي يشبه كلام ابن عبد الوهاب إلى حد بعيد،
وابن القيم ليس إلا دائرا في فلكه مقرر الكلامه.

قال ابن تيمية: «وأنا وغيري كنا على مذهب الآباء في ذلك»^(٤) نقول في الأصلين بقول
أهل البدع، فلما تبين لنا ما جاء به الرسول، دار الأمر بين أن نتبع ما أنزل الله أو نتبع ما وجدنا
عليه آباءنا، فكان الواجب هو اتباع الرسول، وأن لا نكون ممن قيل فيه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا
مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ أَنشَأَ شِطْرًا يُدْعَوْنَ إِلَىٰ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾
[لقمان: ٢١]»^(٥) اهـ.

-
- (١) أي: المعرفة بعلوم الشرع.
(٢) يقصد دعوته التي خرج بها على الناس بعد ذلك.
(٣) تاريخ نجد لابن غنم، ص: (٣١٠).
(٤) يقصد بقوله «ذلك» بعض المسائل التي حكم فيها على غالب الأمة بالكفر والبدعة، مخالفا لأهل السنة
وأجلاء علمائهم.
(٥) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (٢٥٨/٦).

تعالى والعلوم المتعلقة به، كالقراءات والغريب والمشكل ونحوها. والمأمة عَجَلَى بِثَلَّة من أعلام هذا الباب تُطلع الباحث المنصف على هذه الحقيقة.

- الإمام الفذ المفسر والمحدث العلامة القرطبي رحمه الله تعالى، صاحب تفسير «الجامع لأحكام القرآن»، وقد سارت بتفسيره العظيم الشأن الركبان، حكى في تفسيره مذاهب السلف كلها، قال عنه الداودي في الطبقات: «هو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا».

- الإمام الحافظ المفسر أبو الفداء إسماعيل بن كثير رحمه الله تعالى، صاحب «تفسير القرآن العظيم» و«البداية والنهاية» وغيرها، فقد نقل عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى التصريح بأشعريته^(١)، أضف إلى ذلك أنه ولي مشيخة دار الحديث الأشرفية، التي كان شرط واقفها أن لا يلي مَشِيخَتَهَا إلا أشعري، وزدّ عليه ما في تفسيره من التّزّيه والتقديس والتشديد على من يقول بظواهر المتشابه.

- الإمام المفسر الكبير قدوة المفسرين ابن عطية الأندلسي رحمه الله تعالى، صاحب تفسير «المحرر الوجيز»، ألف كتابه في التفسير فأحسن فيه وأبدع. وكان رحمه الله من أفاضل أهل السنة والجماعة ومن أكابر أهل الفضل، قال أبو حيان الأندلسي فيه في مقدمة «البحر المحيط»: «هو أجل من صنف في علم التفسير، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير».

- الإمام أبو حيان الأندلسي رحمه الله تعالى، صاحب «البحر المحيط»، و«النهر الماد من البحر»، الحجة الثابت اللغوي، وهو غني عن التعريف به والتنويه بذكره.

- الإمام المقدم فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى، صاحب تفسير «مفاتيح الغيب». المفسر، المتكلم، الأصولي، إمام وقته، وفريد عصره، كان شجاعاً في حلوق المبتدعة، وسيفاً مصلتاً على أهل الزيغ والإلحاد.

- الإمام المفسر الحافظ البغوي محي السنة رحمه الله تعالى، صاحب كتاب «شرح

(١) الدرر الكامنة لابن حجر: (١/٦٥)، الدارس في تاريخ المدارس للنعمي: (١/٢٧)، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبه: (٣/٨٦).

ومن المفسرين المتأخرين والمعاصرين:

- الشيخ العلامة الطاهر بن عاشور، صاحب التفسير العظيم «التحرير والتنوير».
- الأستاذ الداعية الشيخ سعيد حوى رحمه الله تعالى، صاحب كتاب «الأساس في التفسير».
- الشيخ العلامة محمد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى، الذي ارتبط اسمه بالقرآن، حتى إذا ما ذكر القرآن ذكر الشيخ، وإذا ذكر الشيخ ذكر القرآن.
- والشيخ الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى، صاحب زهرة التفاسير.
- والشيخ الدكتور وهبة الزحيلي حفظه الله تعالى ورعاه، صاحب «التفسير المنير» و«الفقه الإسلامي» وغيرها من الكتب النافعة.
- والشيخ الداعية الدكتور عبد الله شحاتة رحمه الله تعالى، صاحب «تفسير القرآن الكريم» وغيره.
- والشيخ محمد علي الصابوني حفظه الله تعالى، صاحب المختصرات الكثيرة القيمة في التفسير و«روائع البيان في تفسير آيات الأحكام».

أكبر محدثي الأمة وحفاظها من الأشاعرة والماتريدية:

منهم على سبيل المثال:

- الإمام الحافظ أبو الحسن الدارقطني رحمه الله تعالى، إمام وقته والذي لم يرَ مثل نفسه، وقصته مع الإمام الباقلاني تغني عن الإطالة في إثبات أتباعه لمذهب الأشعري^(١).
- الحافظ أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله تعالى، صاحب «حلية الأولياء»، كان من الطبقة الثانية من أتباع الإمام الأشعري، أي من طبقة الإمام الباقلاني والأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني والحاكم وابن فورك رحم الله الجميع^(٢).

(١) انظر تبين كذب المفتري: (٢٥٥)، تذكرة الحفاظ: (٣/ ١١٠٤). سير أعلام النبلاء: (١٧/ ٥٥٨) في ترجمة أبي ذر الهروي.

(٢) تبين كذب المفتري لابن عساكر: (٢٤٦)، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: (٣/ ٣٧٠).

- الحافظ أبو ذر الهروي عبد بن أحمد رحمه الله تعالى، عدّه الحافظ ابن عساكر في الطبقة الثالثة من أخذ عن أصحاب أصحاب الأشعري^(١).

- الحافظ أبو طاهر السلفي رحمه الله تعالى، ذكره التاج السبكي في الخامسة^(٢).

- الحافظ الحاكم النيسابوري رحمه الله تعالى، صاحب «المستدرک على الصحيحين»، وإمد أهل الحديث في عصره، وشهرته تغني عن التعريف به، اتفق العلماء على أنه من أئمة الأئمة الذين حفظ الله بهم هذا الدين. ذكره الحافظ ابن عساكر في الطبقة الثانية، أي من أصحاب أصحاب الإمام^(٣).

- الحافظ أبو سعد بن السمعاني رحمه الله تعالى، صاحب كتاب «الأنساب»^(٤).

- الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي رحمه الله تعالى، صاحب التصانيف التي طار صيتها في الدين والمؤلفات المرضية عند المؤيدين والمخالفين.

- الإمام الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى، صاحب كتاب «تاريخ دمشق»، الذي لم يترك فيه شاردة ولا واردة إلا أحصاها.

- الإمام الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى، ذكره الحافظ ابن عساكر أول الضبعة الرابعة.

- الإمام الحافظ محي الدين يحيى بن شرف النووي رحمه الله تعالى، صاحب المؤلفات النفع التي كتب الله لها القبول عند الناس، مثل كتاب «رياض الصالحين» و«الأذكار» و«شرح صحيح مسلم» وغيرها.

- الإمام المحقق بقية الحفاظ صلاح الدين خليل بن كيكلدئي العلائي، الذي لم يخلف بعده في الحديث مثله، ولم يكن في عصره من يدانيه في علم الحديث.

(١) تبين كذب المفترى لابن عساكر: (٢٥٥).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: (٣/ ٣٧٢).

(٣) تبين كذب المفترى لابن عساكر: (٢٢٧).

(٤) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: (٣/ ٣٧٢).

- شيخ الإسلام الإمام الحافظ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله تعالى، وهو أول من ولي مشيخة دار الحديث الأشرفية، التي كان لا يليها إلا أشعري.
 - الإمام الحافظ ابن أبي جمرة الأندلسي مسند أهل المغرب رحمه الله تعالى ورضي عنه، صاحب كتاب «بهجة النفوس في شرح مئة حديث من صحيح البخاري».
 - الإمام الحافظ الكرمانى شمس الدين محمد بن يوسف رحمه الله ورضي عنه، صاحب الشرح المشهور على صحيح البخاري.
 - الإمام الحافظ المنذري رحمه الله تعالى، صاحب «الترغيب والترهيب» وغيره.
 - الإمام الحافظ الأبي رحمه الله تعالى، شارح صحيح مسلم.
 - الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى، صاحب أعظم شرح على صحيح البخاري المسمى بـ «فتح الباري» والذي قيل فيه: لا هجرة بعد الفتح.
 - الإمام الحافظ السخاوي رحمه الله تعالى.
 - الإمام القسطلاني رحمه الله تعالى، شارح الصحيح.
- وغيرهم من أئمة الحديث وحفاظ الأمة، كانوا من أهل السنة الأشاعرة والماتريدية.

أكبر فقهاء وأصوليّ الأمة من الأشاعرة والماتريدية:

قال الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى: «وأكثر العلماء في جميع الأقطار عليه^(١)، وأئمة الأمصار في سائر الأعصار يدعون إليه، وهل من الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية إلا موافق له، أو متسبب إليه، أو راضٍ بحميد سعيه في دين الله، أو مُثْنٍ بكثرة العلم عليه»^(٢) اهـ.

وقال الإمام تاج الدين السبكي رحمه الله تعالى: «وقد ذكر شيخ الإسلام عز الدين بن

(١) يعني مذهب الأشعري.

(٢) تبين كذب المفترى لابن عساكر: (٤١٠).

هؤلاء هم المتقدمون من أئمة اللغة والأدب والنحو، ثم جاء من بعدهم وساروا على نفس الطريق السوي في الاعتقاد، لم يبدلوا ولم يغيروا، مثل الإمام ابن الأنباري، وابن سيده صاحب كتاب «المخصص» في اللغة، وابن منظور صاحب كتاب «لسان العرب»، والجوهري صاحب «الصحاح»، والمجد الفيروزآبادي صاحب كتاب «القاموس المحيط»، والمترضي الزبيدي صاحب كتاب «تاج العروس». ومن النحويين محمد بن مالك صاحب «الألفية» المشهورة في النحو، وشارحها ابن عقيل وابن هشام المصري، وغيرهم ممن لا غناء نتعلم أو متأدب عن كتبهم ومصنفاتهم. وكلهم كانوا على عقيدة أهل السنة والجماعة من لأشاعرة والماتريدية ومن وافقهم.

كتاب سيرة المصطفى ﷺ من الأشاعرة والماتريدية:

قال الإمام أبو المظفر الإسفراييني رحمه الله تعالى: «علوم المغازي والسير والتواريخ والتفرقة بين السقيم والمستقيم، ليس لأهل البدعة من هو رأس في شيء من هذه العلوم. فهي مختصة بأهل السنة والجماعة»^(١) اهـ.

ومن صنف في السير والمغازي من الأشاعرة والماتريدية، فبلغت مصنفاته ما بلغ الليل والنهار:

- الإمام البيهقي رحمه الله تعالى، صاحب دلائل النبوة.
- الإمام أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله تعالى، صاحب دلائل النبوة أيضاً.
- القاضي عياض رحمه الله تعالى، صاحب الشفا في شمائل وأحوال المصطفى ﷺ، الذي ليس له نظير.
- الإمام الحلي رحمه الله تعالى، صاحب السيرة الحلبية، المسماة بـ «إنسان العيون».
- الإمام السهيلي رحمه الله تعالى، صاحب «الروض الأنف».

(١) التبصير في الدين لأبي المظفر الإسفراييني: (١/ ١٩٢).

- الإمام القسطلاني رحمه الله تعالى، صاحب «المواهب اللدنية».
- الإمام الصالحى الدمشقي رحمه الله تعالى، صاحب «سبل الهدى والرشاد».
- العلامة المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى.
- الحافظ ابن كثير الدمشقي رحمه الله تعالى، صنف «السيرة»، و«دلائل النبوة» في كتاب البداية والنهاية.

ومن المعاصرين:

- الشيخ الداعية الكبير محمد الغزالي رحمه الله تعالى، وكتاباه الرائع «فقه السيرة».
- العلامة الكبير الشيخ الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، كَتَبَ «فقه السنة» أيضاً.
- الشيخ محمد الحضري بك، صاحب نور اليقين.
- الدكتور أحمد الطيب النجار أحد رؤساء جامعة الأزهر الشريف، صنف «السيرة النبوية»، وهي تدرس إلى الآن في المعاهد الأزهرية.
- ومصنفات هؤلاء الأئمة المتقدمين والمتأخرين كذلك هي أهم المراجع التي عنيب المعتمد في سيرة المصطفى ﷺ، وكلهم على عقيدة الأشاعرة والماتريدية، وعلى ما كان عليه المتقدمون من كتاب السيرة الأوائل، مثل ابن إسحاق والواقدي وابن سعد وابن هشام وغيرهم من أكابر العلماء في السيرة والمغازي.

وكذلك مَنْ صَنَفَ في التواريخ من الأئمة غالبهم من الأشاعرة والماتريدية:

- مثل الإمام الحافظ ابن عساكر، في كتابه الفذ «تاريخ مدينة دمشق».
- والإمام الخطيب البغدادي، في كتابه «تاريخ بغداد».
- والعلامة عبد الرحمن بن خلدون، في كتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» المشهور باسم تاريخ ابن خلدون.

- والعلامة ابن الأثير صنف «الكامل».
- والحافظ ابن كثير، صنف «البداية والنهاية».
- والعلامة عبد الرحمن الجبرقي رحمه الله تعالى، صنف كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار».
- والعلامة محمد بن إياس الحنفي الماتريدي، صنف كتابه «بدائع الزهور في وقائع الدهور». وغيرهم كثير وكثير.

وكذلك من صُنِّفَ في تراجم الأعلام:

- مثل الإمام الصَّفَدِيّ رحمه الله تعالى في كتابه الوافي في الوفيات، الذي اختصره في كتابه «أعيان العصر».
- وابن شاعر الكتبي رحمه الله تعالى، صاحب كتاب «وفات الوفيات».
- قاضي القضاة ابن خلكان الشافعي رحمه الله تعالى، صاحب كتاب «وفيات الأعيان».
- وغيرهم من المحدثين والعلماء السابق ذكرهم الذين شاركوا في فنون عديدة كابن حجر والنووي والسيوطي وابن عساكر والخطيب وابن الأثير.

وَكُتِّبَ تراجم طبقات علماء المذاهب الفقهية، وأصحاب كتب التراجم التي وضعت حسب القرون:

مثل «الدرر الكامنة» و«إنباء الغمر»، كلاهما للحافظ ابن حجر، و«الضوء اللامع» للحافظ السخاوي، و«مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي، و«مرآة الجنان» لليافعي، و«خلاصة الأثر» للمحبّي، و«سلك الدرر» للمراي، و«الكواكب السائرة» للغزّي، و«الديباج المذهب» لابن فرحون، وغيرهم الكثير.

ومما يلحق بما مرّ وهو قريب منه، ما صُنِّفَ في الأنساب والأماكن والبلدان:

مثل كتاب «الأنساب» للإمام السمعاني، و«معجم البلدان» لياقوت الحموي،

السني وقمع مذاهب أهل البدع بالحجج والبراهين. ومن أشهرها نظامية بغداد، التي كانت أكبر جامعة في الدنيا يومئذ^(١). وَلِي مَشِيخَتَهَا الإمام أبو إسحاق الشيرازي رحمه الله تعالى، ومن وليها أيضاً الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، ونظامية نيسابور التي ولي مشيختها إمام الحرمين الجويني رحمه الله تعالى، وبعده الإمام الغزالي أيضاً.

ومن تلك الصروح العلمية التي كان لها أكبر الأثر في التاريخ الإسلامي والحركة العلمية في العالم الإسلامي أجمع مدرسة دار الحديث الأشرفية، التي كان شرط وإِقِفَهَا أن لا يلي مشيختها إلا أشعري^(٢)، وكان أول من استلم مشيختها الحافظ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله تعالى، ثم تعاقب الأئمة بعده، فمنهم الإمام الرباني الحافظ يحيى بن شرف النووي رحمه الله تعالى، والحافظ جمال الدين المَزِّي، والحافظ تقي الدين السبكي، والحافظ ابن كثير، وغيرهم. والذين تخرجوا فيها من العلماء لا يُحْصَوْنَ كثرة. وهكذا استمرت هذه المدرسة بتخريج العلماء والأئمة والحفاظ والفقهاء والمقرئين قروناً طويلة. وبقيت كذلك حتى القرن الحادي عشر الهجري، ثم بدأ يدب إليها الضعف. وذلك تبعاً لما كان يمرّ به العالم الإسلامي من تفكك وخور. ثم هباً الله لها عالين جليدين استطاعا بجهودهما أن يعودا بالمدرسة إلى سابق عهدها، فاستؤنفت فيها حلقات العلم وقراءة الحديث وروايته منذ عام ١٢٧٢هـ. كان ذلك بجهود الشيخ يوسف المغربي، ودعم الأمير عبد القادر الجزائري، الذي افتتح المدرسة بقراءة صحيح البخاري، وكان عملها ذاك تمهيداً لبروز مجدد القرن الرابع عشر الهجري المحدث الأكبر محمد بدر الدين الحسيني، الذي تسلم مشيختها وأعاد لها عزها ومجدها وفخرها، فمن دار الحديث وعلى يدي شيخها المحدث الأكبر تخرج علماء الشام والبلدات الشامية، وما من عالم بدمشق في عصرنا الحاضر أو طالب علم إلا وهو تلميذ له أو تلميذ لتلاميذه^(٣).

(١) هكذا وصفها الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى. الفتاوى (٢/ ٢٥٣).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: (١٠/ ٣٩٨، ٢٠٠).

(٣) من كتاب «دار الحديث الأشرفية بدمشق»، للدكتور محمد مطيع حافظ، بتصرف يسير.

سلاطين الأمة وفتحوها وأبطالها سابقا وحاضرا أشاعرة وماتريديّة:

وأما الملوك والسلاطين والقادة والفاخون والعظماء، فحدّث عن انتسابهم لأهل الأشاعرة والماتريديّة بلا شك أو تحرج.

فمنهم الملك المجاهد الشهيد عماد الدين زنكي، وابنه الملك العادل المجاهد نور محمد رحمه الله تعالى ورضي عنه. وقد كانا معروفين بالتدين الشديد، ومحبة العلم، ومحاربة البدع الاعتقادية والعملية، ومنهم السلطان المجاهد الناصر لدين الله تعالى ص - الدين الأيوبي رحمه الله، وهو الذي حظي بشرف تطهير المسجد الأقصى من الصليبيين.

يقول الجبرتي عن الأشاعرة وصلاح الدين: «وأظهر الناصر يوسف الشريعة المحمدية، وطهر الإقليم يقصد مصر - من البدع والتشيع والعقائد الفاسدة، وأظهر عدا أهل السنة والجماعة، وهي عقائد الأشاعرة والماتريديّة، وبعث إليه الإمام أبو حامد الغزالي بكتاب ألفه له في العقائد، فحمل الناس على العمل بما فيه، ومحا من الإقليم مستنكرات الشرع وأظهر المهدي»^(١) اهـ.

ومنهم الملك الصالح نجم الدين أيوب، والملك المظفر المجاهد التقي سيف الدين قطز رحمه الله تعالى، الذي حظي بشرف دحر التتار عن بلاد الإسلام، والملك المجاهد الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، والملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي، وابنه الملك الناصر محمد بن قلاوون وابنه السلطان حسن، وبقية السلاطين من نسل قلاوون، ومن جاء بعدهم من حكام وسلاطين دولة المماليك، حتى أنهى حكمها العثمانيون.

ومما يُستشهد به لإثبات فضل السادة الأشاعرة والماتريديّة: ما جاء في الحديث النبوي الشريف من الدعاء والثناء على الجيش الذي يفتح القسطنطينية وأمير ذلك الجيش. وهو من الإشارات الباهرة لحبيبتنا رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.

(١) عجائب الآثار للجبرتي: (١/ ١٠). قلت: توفي الغزالي رحمه الله تعالى سنة ٥٠٥ هـ قبل أن يملك صلاح الدين الأيوبي مصر بكثير. لكن الثابت المجمع عليه أن صلاح الدين هو الذي قرر عقيدة الغزالي في مصر بعد طرد الباطنية. فلعل بعض طلاب الغزالي أرسلها إليه عندما طلب منه صلاح الدين عقيدة يقرأها الشيوخ على أهل مصر.

فقد روى جمع من الأئمة عن بشر الغنوي عن النبي ﷺ قال: «لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ»^(١).

وهذا الحديث حَدَا بكثير من المسلمين منذ زمن الصحابة إلى الذين بعدهم والذين بعدهم أن يحاولوا الكَرَّةَ بعد الكَرَّة فتح القسطنطينية، وما ذلك إلا ليحظوا بهذا الشرف السامي والثناء العظيم العاطر من المصطفى ﷺ، فذخر الله هذا الشرف وهذه المنقبة للسلطان العثماني محمد الفاتح رحمه الله تعالى، ولجيشه المقدم الجسور. وفتحت القسطنطينية وفاز الفاتح وجيشه بثناء رسول الله ﷺ.

ومما لا يخفى على شاذٍ في التاريخ، أن محمداً الفاتح والعثمانيين جميعاً كانوا أحنافاً في الفروع، ماتريديّة في الاعتقاد.

والسؤال الذي يرد هنا: أيكون ثناء رسول الله ﷺ على مبتدع وضال؟! أيصح أن يكون هذا الثناء العاطر على فاتح القسطنطينية من نصيب منحرف في الاعتقاد؟!

ومن متأخري الأبطال والمجاهدين الذين يفخر أهل السنة والجماعة بهم: الأسد الهصور عمر المختار رحمه الله تعالى، وهو أحد أعلام وأتباع الحركة السنوسية المباركة، ومنهم العلامة المجاهد الصوفي الناسك بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله تعالى، محبي الإسلام في تركيا بعد أن كادت تودي به رياح اللادينية الأتاتوركية، ومنهم البطل المجاهد الأزهري عز الدين القسام رحمه الله تعالى، وهو من أعلام العلماء النُّسَّاك المتصوفة والمجاهدين، والبطل المجاهد عبد القادر الجزائري رحمه الله تعالى، والبطل المجاهد الشهيد الشيخ أحمد ياسين مؤسس حركة حماس، والبطل المجاهد الإمام شامل في القوقاز. وغير هؤلاء الكثير ممن لا يحصيهم إلا خالقهم سبحانه وتعالى.

وهؤلاء بعض الذين اشتهروا بين الخواص والعوام على السواء. فمفاخر أهل السنة لا

(١) صححه الحاكم في المستدرک (٤/٤٦٨)، ووافقه الذهبي. وعزاه الهيثمي في المجمع (٦/٣٢٣) إلى أحمد والبخاري والطبراني، وقال رجاله ثقات. وقال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٨/١٠٦): رواه ثقات.

الفتن وإسكات صوت الخلاف؟ أليس السكوت عن هذه الخلافات أولى لجمع كلمة المسلمين؟ ألم يَسكت السلف عن هذه المهاترات ويتعدوا عنها وينهوا أتباعهم عن الخوض فيها؟

فأقول له ما قاله سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى، عندما قيل له مثل ذلك الكلام، لما أراد إسكات الحشوية المجسمة بالحجة والبرهان.

قال رحمه الله تعالى: «كيف يُدعى على السلف أنهم يعتقدون التجسيم والتشبيه أو يسكتون عند ظهور البدع؟ والعلماء ورثة الأنبياء، فيجب عليهم من البيان ما وجب على الأنبياء، وقال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ٤]. ومن أنكر المنكرات التجسيم والتشبيه، ومن أفضل المعروف التوحيد والتزيره. وإنما سكت السلف قبل ظهور البدع.

فورب السماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع، لقد تشمر السلف للبدع لما ظهرت فقمعوها أتم القمع، فجاهدوا في الله حق جهاده. والجهاد ضربان: ضرب بالجدل والبيان، وضرب بالسيف والسنان.

فليت شعري، فما الفرق بين مجادلة الحشوية وغيرهم من أهل البدع. وإذا سئل أحدهم عن مسألة من مسائل الحشو أمر بالسكوت عن ذلك، وإذا سئل عن غير الحشو من بدع أجاب فيه بالحق، ولولا ما انطوى عليه باطنه من التجسيم والتشبيه لأجاب في مسائل حشو بالتوحيد والتزيره.

ولم تنزل هذه الطائفة المبتدعة قد ضربت عليهم الذلة أينما نفقوا، لا تلوح لهم فرصة إلا ضروا إليها ولا فتنة إلا أكبوا عليها، والكلام في مثل هذا يطول. ولولا ما وجب على العلماء من إعزاز الدين وإخمال المبتدعين، وما طوّلت به الحشوية ألسنتهم في هذا الزمان من الطعن في أعراض الموحدين والإزراء على كلام المتزihin لما أطلت النفس في مثل هذا مع إيضاحه، ينكن قد أمرنا الله بالجهاد في نصره دينه. إلا أن سلاح العالم علمه ولسانه، كما أن سلاح سبك سيفه وسنانه.

فالسكوت عن هذا الإصرار على الخوض في البدعة وتبديع أهل الحق، يغري أصحاب البدع بالكلام فيها والتجاسر على نشرها، لضمائم سكوت العلماء من أهل السنة، مخفة الخوض في الفتنة!!

ومن ذلك قول ابن قتيبة: «ولم أر أقل عذراً ممن أَمَرَ بالسكوت والتجاهل بعد هذه فتنة، وإنما يجوز أن يُؤمر بهذا قبل تفاقم الأمور ووقوع الشحناء، وليس في غرائز الناس حتمال الإمساك عن أمر في الدين قد انتشر هذا الانتشار، ولو أمسك عقلاؤهم ما أمسك جهلاؤهم، ولو أمسكت الألسنة ما أمسكت القلوب. وأما قولهم هذه بدعة لم يتكلم الناس فيها فلا تتكلفوها، فإنما يفزع الناس إلى العال في البدعة لا فيما جرت فيه السنة وتكلم فيه نرائل. والكلام لا يعارض بالسكوت، والشك لا يداوى بالوقوف، والبدعة لا تُدفع -سنة، وإنما يَقْوِي الباطل أن تبصره وتمسك عنه. فإن قيل إن الثوري وابن المبارك لم يتكلموا، قلنا: لكل زمان رجال»^(١) اهـ.

ويعلم الله تعالى أنه لولا ما تسبب فيه هؤلاء من إيقاع الفتنة وزرع البغضاء والعداوة بين المسلمين، بتضليلهم لعلماء الأمة وفقهائها ومحدثيها ومفسيها ومتكلميها، ولولا انخداع كثير من طلبة العلم فيهم، ما كتبت حرفاً واحداً في ذلك. فالله المستعان.

اختلاف في اللفظ لابن قتيبة الدينوري: (٤٧-٥١). وانظر: التجسيم في الفكر الإسلامي - د. صهيب

الباب الثاني

التجسيم في الفكر الإسلامي

الباب الثاني

التجسيم في الفكر الإسلامي

في التمهيد السابق ألمحنا إلى التجسيم وأهله وبعض فرقه، ومن الأهمية بمكان أن نتناول أهم فرق ومظاهر ومراجع ومؤلفات التجسيم عند المسلمين بشيء من التفصيل، حتى يكون القارئ على بينة من حجم تلك الطائفة وما لها من تأثير في عصرنا الحاضر، بعد أن كانت لا تُذكر في الماضي، بل وتُنبذ من كل فرق المسلمين التي عرفت منهجها وفكرها. وسوف يكون الكلام على من اشتهروا بالتجسيم دون غيرهم، كي لا يطول البحث.

وأشهر الفرق والأسماء التي سَرَتْ فيها مقالات التجسيم واعتنقه أتباعها ودافعوا عنه واشتهروا به في التاريخ، فرقة الكَرَامِيَّة وما تفرَّع عنها، وهم أتباع محمد بن كَرَام السَّجِسْتَانِي^(١).

وهناك فِرْقٌ تَسَمَّى بها المجسمة وتَسَتَّروا تحتها، وظهروا للناس في ثيابها قديما وحديثا، -وليس هناك تلازمٌ في الأصل بين هذه الفرق وبين مذهب التجسيم-: كالحنابلة وأهل الحديث، لما هذين اللقيين من قبول عند عامة المسلمين.

وسنبداً بالكلام عن الحنابلة وأهل الحديث، ثم نتبع ذلك بالكلام عن الكرامية، ثم نختمه بالكلام عن المجسمة المعاصرين أدعياء السلفية.

أما الحنابلة: فمنسوبون لإمام أهل السنة وعلمها الكبير المجل، أبي عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ورضي عنه، أحد الأئمة الأربعة المجتهدين، الذين اتفقت الأمة على قبول اجتهادهم وجواز التعبد على مذهب أحدهم.

(١) السَّجِسْتَانِي، وكذلك يقال السَّجَزِي: نسبة إلى سَجِسْتَان، وأغلب الظن أن هذا الإقليم الآن بين أفغانستان وباكستان، ولعله كله أو الجزء الأكبر منه في باكستان.

وأما أهل الحديث: فهم حَمَلَةُ السنة النبوية المطهرة، الذين يعرفون عن رسول الله وأصحابه ما لا يعرفه غيرهم إلا من طريقهم. فهم الذين ينقلون للأمة هدي قدس. ويعرفون الصحيح من السقيم فيما روي لنا من الآثار ونقل إلينا من الأخبار. ولأجر - كانوا أحرص الناس على الاتِّباع وأبعدهم عن الابتداع.

فلماذا إذن كانت هاتان الفرقتان دون غيرهما يُرمى كثير من ممن انتسبوا إليهما بـ... والتجسيم؟ وكيف اشتهر ذلك عنهما مع عِظم قدر أئمتها وعلو شأنهم في الدين؟

الفصل الأول

التجسيم في فكر الحنابلة^(١)

نعوذ بالله أن يكون غرضنا في عقد هذا البحث هو الطعن بمذهب من مذاهب أهل سنة، بل الأمر على عكسه؛ لأن الذي دعا إلى تخصيص البحث في مسألة التجسيم في فكر حنابلة خاصة دون غيره من المذاهب الفقهية، هو ميل بعض الحنابلة إلى الغلو في الإثبات، برغبة بعض مخالفيهم في عدّ قول هؤلاء الغلاة قولاً لعامة الحنابلة. والحق، أن علماء الحنابلة سترهون عن هذا الغلو، وقد لهجوا بالبراءة منه وبثبوت إمامهم أحمد ابن حنبل رحمه الله تعالى عنه أيضاً.

يقول العلامة ابن الجوزي رحمه الله كلاماً ينبغي أن يكتب بهاء الذهب: «اعلم وفقك الله تعالى، أني لما تتبع مذهب الإمام أحمد رحمه الله تعالى رأيته رجلاً كبير القدر في العلوم، بلغ رحمة الله عليه في النظر في علوم الفقه ومذاهب القدماء، حتى لا تأتي مسألة إلا وله نيب نص أو تنبيه، إلا أنه على طريق السلف، فلم يُصنّف إلا المنقول، فرأيت مذهبه خالياً من تصانيف التي كثر جنسها عند الخصوم.

ورأيت من أصحابنا -يعني الحنابلة- من تكلم في الأصول بما لا يصلح. وانتدب للتصنيف ثلاثة: أبو عبد الله بن حامد^(٢)، وصاحبه القاضي^(٣)، وابن

(١) إلى آخر الباب الثاني مستفاد -إلا قليلاً- من كتاب «التجسيم وأثره في الفكر الإسلامي» للدكتور صهيب محمود السقار - رسالة دكتوراه من جامعة بغداد، يشر الله طباعتها ونشرها. وربما تصرف بتغيير الترتيب، رغبة في التيسير أو التنبيه على شيء، أو تصرف في بعض الجمل بالتغيير في الألفاظ أو إضافة ملاحظات وذلك نادر، لكون الشيخ كفى ووفى، ولم أجد خيراً من عبارته، وقد استأذنته في نقل هذا الباب فأذن لي حفظه الله تعالى وتقبل منه جهده في خدمة العقيدة الصحيحة ونفع به ويعلمه.

(٢) قال العلامة الكوثري في تعليقه على «دفع شبه التشبيه»: هو شيخ الحنابلة أبو عبد الله الحسن بن حامد بن علي البغدادي الوراق، المتوفى سنة ٤٠٣ هـ كان من أكبر مصنفيه، له «شرح أصول الدين»، فيه طامات، ولديه تخرّج القاضي أبو يعلى الحنبلي.

(٣) قال الكوثري في المرجع السابق: هو القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء الحنبلي، =

الزاغوني^(١). فصنفوا كتباً شأنوا بها المذهب، ورأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام، فحمد الصفات على مقتضى الحس. فسمعوا أن الله تعالى خلق آدم على صورته، فأثبتوا له صر ووجهاً زائداً على الذات، وعينين وفماً ولهاوت، وأضراساً ويدين وأصابع وكفاً وخنص وإبهاماً، وصدرأ وفخذأ وساقين ورجلين. وقالوا: ما سمعنا بذكر الرأس!! وقالوا: يجوز . يَمَسُّ وَيُمَسَّ، ويدي العبد من ذاته. وقال بعضهم: ويتنفس!! ثم يُرضون العوام بقولهم: . كما يُعقل^(٢).

ثم يتخرجون من التشبيه ويأنفون من إضافته إليهم، ويقولون: نحن أهل السـ وكلامهم صريح في التشبيه. وقد تبعهم خلق من العوام. فقد نصحت التابع والمتبوع، فقس لهم: يا أصحابنا أنتم أصحاب نقل، وإمامكم الأكبر أحمد بن حنبل يقول وهو تحت السيـ «كيف أقول ما لم يُقَلَّ». فإياكم أن تبدعوا في مذهبه ما ليس منه. فلو أنكم قلتم: نـ الأحاديث ونسكت، ما أنكر عليكم أحد. إنما حملكم إياها على الظاهر قبيح، فلا تُدْخِلُوا مذهب هذا الرجل الصالح السلفي ما ليس منه، ولقد كسيتم هذا المذهب شيئاً قبيحاً، حـ صار لا يقال حنبلي إلا مجسم^(٣) اهـ.

ولهج شيوخ الحنابلة من قبل ابن الجوزي في الإنكار الشديد على أبي يعلى، حتى قـ فيه كلمة شنيعة، لا نقصد بنقلها إلا بيان غيرة أكابر هذا المذهب على مذهبهم. كما فعل شيخ

= المتوفى سنة ٤٥٨هـ، وقال فيه أبو محمد التميمي ما معناه: «لقد شأن أبو يعلى الحنابلة شيئاً لا يغسله ر البحار» على ما نقله ابن الأثير وأبو الفداء، وعزا في طبقاته إلى الإمام أحمد ما يبعد أن يصح عنه كل البعد ونقل ابن بدران الدشتي في جزء «إثبات الحد» عن كتاب الأصول لأبي يعلى هذا ما هو أفظع مما سينتـ المصنف عنه في التشبيه، على تضارب في أقواله بين تنزيه وتشبيه، ولا يخفى على الناظر أنه غير الحافظ . يعلى أحمد بن علي الموصلي صاحب المسند وراوي كتب أبي يوسف عن بشر بن الوليد.

(١) قال الكوثري في المرجع السابق: هو أبو الحسن علي بن عبيد الله بن نصر الزاغوني الحنبلي، المتوفى سـ ٥٢٧هـ وهو من مشايخ ابن الجوزي، وله في كتاب «الإيضاح» من غرائب التشبيه ما يحار فيه النبيه.

(٢) وهي بعينها كلمة أدعياء السلفية اليوم. فيثبتون لله تعالى ما يثبتون للأجسام، ثم يقولون ليس كمثـ مـ عـ الأجسام!

(٣) دفع شبه التشبيه لابن الجوزي: (٣٠-٣٣).

حنابلة رزق الله التيميم. فقال في حق القاضي أبي يعلى وكتابه إبطال التأويلات: «لقد خري - يعلى الفراء على الحنابلة خِرْيَةً لا يغسلها الماء^(١)»^(٢) اهـ.

وأنت إذا تأملت منزلة هذا القائل المشهود له بالرياسة والتقدم في الفقه والأصول والتفسير والعربية، مع ما له من الحشمة والهيبة وعلو الكعب في الوعظ، اَحْتَجَّتْ مع ذلك إلى اطلاع على كتاب أبي يعلى، لتعرف أن هذه الكلمة لم تصدر منه إلا لغيرته الشديدة على مذهب الحنابلة، من أمر فظيع نُسِبَ إليهم بسبب أبي يعلى. فإذا وقفت على ما في إبطال تأويلات من إثبات الأضراس واللهوات والفخذ والساعد والساق والأبغاض ورؤيته على صرة شاب أمرد، ونحو ذلك مما هو مبسوط في موضعه، علمت أن التيميم رحمه الله لم يغدر وقاره إلا لأمرٍ لو سكت عنه لما بقي معه شيء من وقار ولا حشمة. وكان الغرض من هذه اللفظة لفت الأنظار إلى براءة المذهب مما نسب إليه بسبب الغالين فيه.

ولكن بعض المعاصرين وقع فيما خاف منه أكابر الحنابلة على مذهبهم. من ذلك أن نسَّاف^(٣) إذا حكى قولاً من الأقوال المنكرة، ينسبه إلى مذهب الحنابلة والمجسمة^(٤)، بل يتطاول على الإمام أحمد.

فيقول تعليقاً على قولٍ وقف هو نفسه على عدم صحته إلى أبي ثور: «وكل هذه خرافات أتى بها أبو ثور من أحمد بن حنبل، على أنه بعد هذا الولاء لأحمد، رجع أحمد فقال إنه جهمي»^(٥) اهـ.

(١) وهذا الكتاب كثر الكلام فيه وفي مؤلفه القاضي أبي يعلى، وأشار الذهبي في السير (٩٠ / ١٨) إلى ما يقتضي رجوع أبي يعلى عنه بعد ما قام عليه العلماء لتأليفه هذا الكتاب، ووصل الأمر إلى الخليفة القادر بالله العباسي، وقال أبو يعلى على الملأ: القرآن كلام الله، وأخبار الصفات تُمرُّ كما جاءت.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير: (٣٧٨ / ٨).. وتبديد الظلام المخيم للكوثري مع السيف الصقيل للسبكي: (١٤٨).

(٣) مؤلف معاصر من المهتمين بمباحث التجسيم والمجسمة.

(٤) انظر العلو للذهبي بتحقيق حسن السقاف: (٥٣١).

(٥) المرجع السابق: (٤٦٨).

بل انسأقت نفسه إلى التطاول على الأشاعرة أيضاً إذا ذُكروا مع الحنابلة، فيتحدث عن الإمام الباقلاني، الذي لفت نظره في ترجمته أنه كان موافقاً لكبار الحنابلة. فقال: «ذكر الذهبي في ترجمته: «أمر شيخُ الحنابلة أبو الفضل التميمي^(١) نادياً يقول بين يدي جنازته، هذا ناصر السنة والدين، والذائب عن الشريعة». فهذا أمر عجب عجاب، مع ما عُرف به الحنابلة من معاداتهم للأشعرية وشدة بغضهم لهم، ... وقال الذهبي في ترجمة شيخ الحنابلة التميمي في السير أيضاً: «كان صديقاً للقاضي أبي بكر الباقلاني ومُؤاداً له». وفي كتاب تبين كذب المفتري لابن عساكر بيان أكثر من هذا عن الصداقة»^(٢) اهـ. وذكر السقافُ الإمامَ الباقلانيَّ في غير هذا الموضع، فرماه بالتجسيم صراحة^(٣)!

والذي دعانا إلى ذكر هذا الكلام، هو بيان ما آل إليه الوهم في خلط مذهب الحنابلة وإمامهم بمذهب بعض الغلاة منهم، أو الأدعياء المنتسبين إلى المذهب وهم في الواقع متمذهبون بما فهموه بأنفسهم وظنوه مذهبَ الإمام أحمد، خاصةً المتأخرون منهم. ولا يخفى أن غالبية المتقدمين والمقلِّمين من أصحاب أحمد على مذهبه في التنزيه، لا خلاف بينهم وبين الأشاعرة في ذلك.

يقول ابن الجوزي في الكتاب الذي حققه السقاف: «وكان الإمام أحمد يقول: أمرو الأحاديث كما جاءت، وعلى هذا كبار أصحابه كإبراهيم الحربي^(٤). ومن كبار أصحابنا أبو

(١) عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث التميمي، شيخ الحنابلة ورئيسهم في عصره، عني بعدة علوم وأمل الحديث بجامع المنصور. وكانت له حلقة في جامع المدينة للوعظ والفتوى. توفي سنة ٤١٠ هـ ودفن بجوار الإمام أحمد، وحضر جنازته أكثر من خمسين ألفاً. انظر: طبقات الحنابلة: (١٧٧/٢)، وسير أعلام النبلاء: (٢٧٣/١٧).

(٢) المرجع السابق: (٥٣٩).

(٣) المصدر السابق: (٥١٩).

(٤) قال السيوطي في بغية الوعاة (١/٤٠٨): إبراهيم بن إسحاق بن بشير بن عبد الله بن ديسم أبو إسحاق الحربي. قال ياقوت: كان إماماً في العلم ورأساً في الزهد، عارفاً بالفقه بصيراً بالأحكام، حافظاً للحديث. مميزاً للعلة، قيمياً بالأدب جماعاً للغة. وقال الدارقطني: كان إماماً يقاس بأحمد ابن حنبل في زهده وعلمه وورعه، وهو إمام مصنف، عالم بكل شيء، بارع في كل علم، صدوق ثقة. مات ببغداد في ذي الحجة سنة ٢٨٥ هـ.

الحسن التميمي، وأبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب، وأبو الوفاء بن عقيل^(٢) (٢) اهـ. وهذا مما لا ينكره أحد من أهل التنزيه.

وحكى أبو الفضل التميمي اعتقاد الإمام أحمد بن حنبل، فقال: «وأنكر على من يقول بالجسم، وقال: إن الأسماء مأخوذة بالشرعة واللغة، وأهل اللغة وضعوا هذا الاسم على كل ذي طول وعرض وسُمْك وتركيب وصورة وتأليف، والله تعالى خارج عن ذلك كله، فلم يجز أن يسمى جسماً، لخروجه عن معنى الجسمية، وليرجي في الشريعة ذلك، فَبُطِلَ»^(٣) اهـ.

ومثل هذه النصوص كثيرة مذكورة في مواضعها، فنبرأ إلى الله عز وجل من نسبة التجسيم إلى الحنابلة، كما برّأهم الأشاعرة من ذلك.

قال الشهرستاني: «فأما أحمد بن حنبل وجماعة من أئمة السلف، فَجَرَّوْا على منهاج السلف المتقدمين عليهم من أصحاب الحديث، وسلكوا طريق السلامة. فقالوا: نؤمن بما ورد به الكتاب والسنة ولا نتعرض للتأويل، بعد أن نعلم قطعاً أن الله عز وجل لا يشبه شيئاً من المخلوقات، وأن كل ما تَمَثَّل في الوهم فإنه خالقه ومُقدِّره، وكانوا يحترزون عن التشبيه، إلى غاية أن قالوا: مَنْ حَرَّك يده عند قراءة قوله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وجب قطع يده»^(٤) اهـ.

(١) قال ابن العماد في شذرات الذهب (٤/ ٣٤): قال السلفي: ما رأيت مثله، وما كان أحد يقدر أن يتكلم معه، لغزارة علمه وبلاغه كلامه وقوة حجته. قال ابن الجوزي: وأفنى ودرس وناظر الفحول واستفتي في زمرة من الكبار، وجمع علم الفروع والأصول وصنف فيها الكتب الكبار، اهـ. وقال ابن حجر في لسان الميزان (٤/ ٢٤٣): من كبار الأئمة، كان معتزلياً، ثم أشهد على نفسه أنه تاب عن ذلك، وصحت توبته، ثم صنف في الرد عليهم، وقد أثنى عليه أهل عصره ومن بعدهم، اهـ. وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١٢/ ١٨٤): كان يجتمع بجميع العلماء من كل مذهب، فربما لامه أصحابه، فلا يلوي عليهم، فلهذا برز على أقرانه، وساد أهل زمانه، في فنون كثيرة، مع صيانة وديانة، وحسن صورة، وكثرة اشتغال، اهـ توفي سنة ٥١٣ هـ.

(٢) دفع شبه التشبيه لابن الجوزي بتحقيق السقاف: (١١١).

(٣) اعتقاد الإمام الميجل ابن حنبل: (٢٩٤-٢٩٥).

(٤) الملل والنحل: (١٠٤).

فهذا التوافق بين الحنابلة والأشعرية يدل على اتفاق المذهبيين على تنزيه الله عز وجل. فأبي سبب يدعو إلى الخلاف والنزاع؟ وأي ضير وجده السقاف وغيره من الوفاق بين أهل السنة، حنابلة وأشاعرة وماتريديّة.

ولأنما حصل النزاع والافتراق بين غلاة الحنابلة وبين الأشاعرة، فقد كان أكابر ومقدمو الحنابلة مع الأشاعرة في هذا النزاع.

وفي ذلك يقول الإمام الحافظ ابن عساكر: «وعلى الجملة، فلم يزل في الحنابلة طائفة تغلو في السنة وتدخل فيها لا يعينها، حُباً لِلْحُفُوفِ في الفتنة. ولا عار على أحمد رحمه الله من صنيعهم، وليس يتفق على ذلك رأي جميعهم. قال أبو ذر الهروي: سمعت ابن شاهين -وهو من أقران الدارقطني ومن أصحاب الحديث المتسنين- يقول: رجلان صالحان ابْتِئَ بأصحاب سوء، جعفر بن محمد^(١)، وأحمد بن حنبل^(٢)» اهـ.

وربما كان من أسباب ابتعاد كثير من الحنابلة عن عقائد جمهور الأمة، هو مزيد التعصّب بكل ما يُعزّي للإمام أحمد، مع تساهلهم في دراسة أسانيد تلك الأقوال المروية عنه.

خذ على سبيل المثال الرسالة التي رواها ابن أبي يعلى بسنده عن أحمد بن جعفر بن يعقوب الاصطخري عن الإمام أحمد. ففيها عبارات مُوهِّمة، ينبو عنها القلب ويستنكرها منها: وصف الله جل وعلا بأنه يتحرك^(٣). والمعلّق على الطبعة القديمة لا يعلق بشيء، وكذا المعلق على الطبعة الجديدة، رغم أن هذا لم يجد ترجمة لبعض رجال السند، لكنه لا يهتم بهذا.

(١) هو الإمام ابن الأئمة سليل العترة المحمدية، جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم سلام الله تعالى. حيث ابتلي بالروافض الذين يدعون أنهم على مذهبه وهو منب بريء، وابتلي أحمد بن حنبل بالمجسمة أدعياء السلفية وهو منهم بريء. توفي سنة ٢٤٨هـ.

(٢) تبين كذب المفتري لابن عساكر: (١/١٦٣).

(٣) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى: (١/٢٩). وهي كذلك في الطبعة المحققة: (١/٦١). والمحقق لا يعلق على السند ولا على المتن! وقد صار المقصود من التحقيق عند كثيرين إخراج نص المؤلف بالمقابلة عن النسخ الخطية، بغض النظر عن التحقق من صحة النص! فحسبنا الله ونعم الوكيل، وإنا لله وإن يـ. راجعون.

بل لعلك تجد عند بعض الحنابلة في كتب العقيدة: أن الله تعالى يتحرك! وأن هذا هو قول السلف! وأن من لم يعتقد ذلك فهو جهمي مُعَطَّل! وكأنهم يجعلون الكلمة التي رويت عن الإمام أحمد جزءاً من عقيدة السلف لمجرد أنها رويت عنه، ولو كان في سندها إليه راو مجهول! فتأمل واعجب. هذا مع قولهم إنهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، ويسكتون عما سكنت عنه! (١)

لكن الإمام الذهبي رحمه الله ذكر إحدى الرسائل المنقولة عن الإمام أحمد بن حنبل وأثنى عليها، ثم قال: «وأما غيرها من الرسائل المنسوبة إليه كرسالة الاصطخري ففيها نظر» (٢) اهـ.

وقال: «لا كرسالة الاصطخري، ولا كالرد على الجهمية، الموضوع على أبي عبد الله» (٣) اهـ.

وإنما علا زَبَدُ هؤلاء الغلاة في فترة عصيبة مرت بها الدولة الإسلامية، فاستغلوا غفلة السلطان وخدعوا العوام بما هم عليه من التَّزَهُد، وبما رفعوه من شعار السنة ونبذ البدعة والتَّجَهُم، وهذا ما شهد به المؤرخون.

من ذلك قول ابن خلدون وهو يصف بغداد: «واضطرب آخرُ الدولة العباسية بالفتن، وكثر فيها المفسدون والدُّعَار، وأُعيّا على الحُكام أمرهم. وربما حدثت الفتن بين الحنابلة والشافعية وغيرهم، من تصريح الحنابلة بالتشبيه في الذات والصفات، ونسبتهم ذلك إلى الإمام أحمد -وحاشاه منه-، فيقع الجدال والنكير، ثم يفضى إلى الفتنة بين العوام. ولم يحصل من ملوكهم (٥) اهتمام لحسم ذلك، لاشتغالهم بما هو أعظم منه في الدولة والنواحي» (٦) اهـ.

(١) عقائد الأشاعرة، صلاح الدين الإدلي، ص: (٥٩).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي: (١٣٦).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي: (٢٨٦/١١).

(٤) وانظر: عقائد الأشاعرة في حوار هادئ مع شبهات المناوئين، د. صلاح الدين الإدلي: (٥٩).

(٥) يقصد الملوك الذين يحكمون البلاد تحت اسم العباسيين. فقد ضعفت الخلافة العباسية بعد وفاة المعتصم، وبقيت في عصورها المتأخرة مجرد اسم يرفعه الملوك المتغلبون على الأقل.

(٦) تاريخ ابن خلدون: (٤٧٧/٣). وانظر بعض فتن هؤلاء في الكامل لابن الأثير: (٥٧/٧) و(١١٤/٧).

فإن قيل ما السبب في اختيار الغلاة مذهب الإمام أحمد بن حنبل؟

فالجواب لسبيين: الأول: أن الإمام أحمد قد اشتهر موقفه في محنة خلق القرآن وطر فيها صبره وثباته، حتى صار له من القبول ما دفع إلى ادعاء الغلاة الانتساب إلى مذهبه. متظاهرين بالتمسك بالأثر والسنة كما فعل الإمام أحمد. ولا يخفى أن الإمام لم يتمسك بالاسرائيليات والأخبار الضعيفة والمتون المنكرة كما فعل هؤلاء. واستغلوا ما كتبه الله للإمام من القبول عند العوام، فزخرفوا مذهبهم بالانتساب إليه واستثاروهم بالغيرة على مذهبه.

الثاني: أن الإمام لورعه لم يصنف إلا في المنقول المأثور.

فقد قال الحافظ ابن الجوزي: «وكان الإمام لا يرى وضع الكتب، وينهي عن كتابة كلامه ومسائله»^(١) اهـ.

ولهذا طمع هؤلاء في نسبة بعض أفكارهم إليه. فتجد الاختلاف في الرواية عن الإمام أحمد كثيراً، حتى أن القاضي أبا يعلى صنف في الاختلاف عن الإمام أحمد كتاباً خاصاً، وهو «الروايتان والوجهان»، وجعل آخره خاصاً في المسائل المتعلقة بالعقيدة^(٢).

وتجد بعض الرسائل المنسوبة إلى الإمام اعتمد عليها الكثيرون، مع أن فيها رواة مجهولين. مثل رسالة مسدد بن مسرهد، ورسالة الاصطخري وغيرهما^(٣). بل تجد مصنفاً معتمداً ومنسوباً إلى الإمام وفي سنده رجل مجهول، وهو «الرد على الزنادقة والجهمية»!

فهل انقطعت الرواية عند أهل الرواية عن إمام الرواية حتى لم يبق لها إلا المجاهيل؟! ونختم الكلام في هذه المسألة بأبيات صادقة .. ختم بها ابن الجوزي دَفْعَهُ عن مذهب الحنابلة، فقال:

(١) انظر دفع شبه التشبيه لابن الجوزي: (٣٠). وسير أعلام النبلاء للذهبي: (٣٢٧/١١).

(٢) حُقق ما يتعلق منه بمسائل الفقه وبقي الجزء المتعلق بالعقيدة مخطوطاً في قسم المخطوطات بالمكتبة المركزية في الجامعة الإسلامية بالمدينة، انظر المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة للدكتور عبد الإله الأحدي، ص: (٤٨).

(٣) جمع هذه الرسائل عبد الإله الأحمدى، ولم يمنعه الاعتراف بوجود مجاهيل في أسانيد أكثرها من نسبتها إلى الإمام.

وجاءك قوم يدعون تمذُّبًا بمذهبه ما كُـلُّ زرع له أَكـُلٌ
فلا في فروع يثبتون لنصرة وعندهم من فهم ما قاله شغل
إذا ناظروا قاموا مقام مقاتل فوا عجباً والقوم كلهم عُزِّل
قياسهم طردا إذا ما تَصَدَّرُوا وهم من علوم النقل أجمعها عُطِّل
إذا لم يكن في النقل صاحب فطنة تشابهت الحياة وانقطع الحبل
ومالوا إلى التشبيه أخذاً بصورة لما نقلوه في الصفات وهم غفل
وقالوا الذي قلناه مذهب أحمد فمال إلى تصديقهم من به جهل
وصار الأعادي قائلين لكلنا مشبهة قد ضلنا الصحب والخل
فقد فضحوا ذاك الإمام بجهلهم ومذهبه التَّزْيِيَةُ لكن هم اختلفوا
لعمري لقد أدركت منهم مشايخاً وأكثر من أدركتهم ماله عقل
وما زلت أجلو عندهم كل خصلة من الاعتقاد الرذل كي يجمع الشمل
تسموا بألقاب ولا علم عندهم موائدهم لا حرم فيها ولا حل^(١)

الفصل الثاني

التجسيم في فكر المحدثين

في البداية يجب توضيح أننا لا نقلل من أهل الحديث ولا نطعن في صدقهم وأمانتهم، حتى أولئك الذين انزلت أقدامهم في هذا الباب، فمنهم أئمة أعلام كبار في الحديث. لكنّ كثرهم عاش في فترة عاصفة بالفتن والأهواء التي لم يختبرها المجتمع المسلم قبل ذلك وبذلك قوة، ولم يكن كثير منهم يحسن غير فتنه، أو يملك من الإتيان في الفنون الأخرى - وخاصة علوم الآلة - ما يمكنه من تفادي هذا الانزلاق.

بل والذي نبرئ به ساحتهم من تهمة التجسيم، أن كثيرين منهم لم يجدوا الوقت الكافي لدراسة علوم أخرى، وعلى رأسها علوم الآلة كالنحو والصرف والأصول والبيان، تلك العلوم التي يتمكن بها المسلم من معرفة دلالات الكلام ومراميه. حيث كانت همتهم في تلك نعصور منصرفه إلى جمع ما استطاعوا من الروايات في الأبواب التي يصنفون فيها. أضف إلى ذلك كون الغالبية العظمى من المتقدمين منهم أعاجم، نشأتهم وثقافتهم ومعارفهم بعيدة عن الحواضر العربية.

وقد استغرقت هذه المهمة أعمارهم وجهودهم. بل وربما حتى لم يجدوا الوقت الذي يتمكنون فيه من تنقيح مروياتهم وتهذيبها. ولذلك نجد في كتب الأئمة الكبار أحاديث صحيحة وحسنة وضعيفة، بل وموضوعة أيضاً، فقد كان ما يهمهم هو جمع كل ما يستطيعون جمعه وإسناده إلى رواته، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة التنقية وإصدار الأحكام، كان هذا شأن الكثيرين منهم. وقليلون فقط هم الذين جمعوا بين الإمامة والتصدر في علم الحديث وغيره من العلوم كالفقه واللغة والأصول والكلام. فلذلك انجرف عدد منهم إلى التجسيم والتشبيه.

وهم في النهاية بشر لا يتمتعون بالعصمة من الخطأ. فيؤخذ من أقوالهم ويترك بحسب موافقتها ومخالفتها لكتب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

وقال أبو هلال العسكري: «الأهل يكون من جهة النسب والاختصاص، فمن جهة نسب قولك أهل الرجل لقربته الأذنين، ومن جهة الاختصاص قولك أهل البصرة وأهل نعل»^(١) اهـ.

إذن، كلمة الأهل تطلق باعتبارين، اعتبار النسب والقربة، واعتبار الاختصاص.

وكل ما قيل في المعاجم اللغوية يؤكد هذا المعنى ولا يختلف حوله. فلو نظر الباحث في معني «أهل الشيء» وجد أن اللغويين وغيرهم أجمعوا على كونهم مَنْ لهم وجه اشتراك معه في شيء من الأشياء، مع بعض الفروق بين ما يضاف إليه لفظ «الأهل».

فإن أضيف إلى شخص فالمراد به مَنْ يجمعهم به نسب واحد، وإن أضيف إلى بلد فالمراد سُكَّانها حتى لو اختلفت مذاهبهم. وإن أضيف إلى مذهب أو دين فالمراد من يعتقده حتى لو اختلفت أنسابهم وبلادهم. وإن أضيف إلى صناعة أو مهنة فالمراد مَنْ يشتغلون بها مهما اختلفت بلادهم وأديانهم ومذاهبهم وأنسابهم.

والأخير هو ما يهمننا، لأن فن الحديث النبوي باعتبار تلك الإضافة ليس مذهباً ولا شخصاً ولا داراً، بل هو صناعة لمن اشتغل به. ومنْ أهل صناعة الحديث مَنْ هو على مذهب أهل السنة والجماعة، ومنهم من نسب إلى القدر، ومنهم من نسب إلى الرِّفْضِ، ومنهم من نسب إلى غير ذلك.

وعلى ذلك فأهل الحديث: هم المشتغلون برواية الحديث ودرايته. فكل مَنْ صَنَّفَ في متون الحديث النبوي، وكل من اندرج في دراسة أسانيده، وكل من غلب عليه الاشتغال بعلم مصطلحه، استحق أن يُعَدَّ من أهل الحديث، مهما كان نسبه أو داره أو مذهبه. وفي هذه الدائرة يتفاوت هؤلاء جميعاً في مواقفهم من التجسيم.

ويمكن إجمال تعاطي أهل الحديث مع موضوعنا في موقفين:

الأول: موقف من يجاهر بتتزيه الله عز وجل، باختياره مذهب تفويض المراد من الألفاظ الواردة في نصوص المتشابه وينفي الكيف، أو باختياره تأويل هذه النصوص.

وعلى رأس هؤلاء من المحدثين: إمام دار الهجرة، وأحد العلماء الراسخين المقدمين المقبولين عند الخواص والعوام، الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى. الذي كان ينهى عن التحديث بالأحاديث التي توهم التشبيه وتُشكّل في المعنى^(١)، مثل آيات الاستواء، والحديث الذي جاء في صورة آدم، وكان ينكر ذلك إنكاراً شديداً^(٢). وكان مجرد السؤال عن التشبيه موجباً لغضبه على السائل وطرده من المجلس كما هو مشهور عنه.

فأين الإنكار على مجرد التحديث ومجرد السؤال عن التحديث بخلق آدم على صور:
وجهه، مِنْ إثبات الاستواء مع الأُطيط، ونحو ذلك مما يعدونه مذهباً لأهل الحديث؟

ومن أصحاب هذا الموقف كذلك: الإمام المجلد أحمد بن حنبل، الذي ثبت عنه التأويل وتفويض المعنى، وسيأتي ذلك بشكل أوضح وأوسع في مبحث تفويض السلف وتأويلهم.

يروى ابن قدامة عن الإمام أحمد قوله في نصوص المتشابهات: «هذه الأحاديث نؤمن بها ونصدق، لا كيف ولا معنى، ولا نصف الله تعالى بأكثر مما وصف به نفسه»^(٣) اهـ.

وقال ابن كثير: «روى البيهقي عن الحاكم عن أبي عمرو بن السماك عن حنبل: - أحمد بن حنبل تأول قول الله تعالى ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] أنه: «جاء ثوابه». ثم قد - البيهقي: وهذا إسناد لا غبار عليه» (٤) اهـ.

ويروي الحافظ البيهقي عن سفيان بن عيينة^(٥) قوله: «ما وصف الله تبارك وتعالى - نفسه في كتابه، قراءته تفسيره، وليس لأحد أن يفسره بالعربية ولا بالفارسية»^(٦) اهـ.

(١) الشفا للقاضي، عياض: (٥٤٢/٢).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي: (٥/٤٤٩).

(٣) لمعة الاعتقاد لابن قدامة: (٣).

(٤) البداية والنهاية لابن كثير: (١٠/٣٢٧). ونقله ابن كثير من غير انتقاد للرواية، كما يفعل مع الروايات الضعيفة والساقطة.

(٥) أحد كبار الأئمة وأعلام الهدى، قال الذهبي في السير (٨/٤٥٧): قال الإمام الشافعي: لولا مالك وسننه - بن عينه، لذهب علم الحجاز.. وقال ابن خلكان: كان إماماً عالماً ثبتاً حجة زاهدا ورعا مجتمعا على صحبته وروايته، توفي ١٩٨هـ.

(٦) الأساء والصفات للبيهقي: (١١٧/٢). وكذلك يروي ابن قدامة في كتابيه «المعة الاعتقاد» و«ذم التأويل» من أقوال السلف التي تؤيد فهمنا هذا ما تقرّ به الأعين.

وها هو إمام المدينة عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون^(١) يقول: «كَلَّتِ الألسن عن تفسير صفته، كما أُحْصِرَت العقول دون معرفة قدره»^(٢) اهـ.

وها هو الإمام وكيع بن الجراح^(٣) يقول عن أحاديث الصفات: «كان إسماعيل بن أبي خلد^(٤) والثوري^(٥) ومسعر^(٦) يروون هذه الأحاديث، لا يفسرون منها شيئاً»^(٧) اهـ.

ومنهم أيضاً من نص على اختيار وجه من وجوه التأويل في أحد الأحاديث كما سيأتي إن شاء الله تعالى، ولولا أنهم رأوا ما يقتضيه الحمل على الظاهر من مخالفة أدلة التزييه ما ختاروا التأويل.

(١) قال الذهبي في السير (٣٠٩/٧): الإمام المفتي الكبير الفقيه، فصيح كبير الشأن. قال أبو حاتم والنسائي وجماعة: ثقة. قال ابن وهب: حجبت سنة ثمان وأربعين ومائة، وصائح يصيح: لا يفتي الناس إلا مالك، وعبد العزيز بن أبي سلمة. قال محمد بن سعد: كان عبد العزيز ثقة، كثير الحديث، قدم بغداد، وأقام بها إلى أن توفي ١٦٤ هـ. قال ابن حبان: وكان فقيها ورعا متابعا لمذاهب أهل الحرمين، مفرعا على أصولهم، ذابا عنهم.

(٢) الحموية: (١١٣-١١٤)، والتسعينية: (٧٨)، والعلو للذهبي: (١١٤).

(٣) قال الذهبي في التذكرة (٢٢٣/١): الإمام الحافظ الثبت، أحد الأئمة الأعلام. قال أحمد بن حنبل: ما رأت عيني مثل وكيع قط، يحفظ الحديث ويذاكر بالفقه، فيحسن مع ورع واجتهاد. وقال إبراهيم بن شماس: كان وكيع أفقه الناس. توفي سنة ١٩٧ هـ.

(٤) قال الذهبي في السير (١٧٦/٦): الحافظ الإمام الكبير. روى ابن المبارك عن سفيان: حفاظ الناس ثلاثة: إسماعيل بن أبي خالد، وعبد الملك ابن أبي سليمان، ويحيى بن سعيد الأنصاري. قلت [الذهبي]: أجمعوا على إتقانه والاحتجاج به، ولم يُتَبَرِّزْ بتشيع ولا بدعة، والله الحمد، اهـ. توفي سنة ١٤٥ أو ١٤٦ هـ.

(٥) قال ابن خلكان في الوفيات (٣٨٦/٢): أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق، الثوري الكوفي؛ كان إماماً في علم الحديث وغيره من العلوم، وأجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته، وهو أحد الأئمة المجتهدين. ويقال: كان عمر بن الخطاب في زمانه رأس الناس، وبعده عبد الله بن عباس، وبعده الشعبي، وبعده سفيان الثوري. توفي سنة ١٦١ هـ على الأرجح، اهـ.

(٦) قال الذهبي في تذكرة الحفاظ (١٤١/١): الإمام الحافظ أحد الأعلام. قال أحمد بن حنبل: الثقة مثل شعبة ومسعر. وقال وكيع: شك مسعر كيقين غيره. قال شعبة: كنا نسمي مسعرا المصحف من إتقانه. وعن يعلى قال: كان مسعر قد جمع العلم والورع. وقال معن: ما رأيت مسعرا إلا ويزداد كل يوم خيراً.

(٧) العلو للذهبي: (١٥٠).

وأما كتابه الآخر: فهو مثل سابقه. وزاد فيه إثبات الحركة لله عز وجل، وفيه إثبات الحد، وأنه مس آدم مَسِيساً بيده، وأنه تعالى يقعد على العرش فما يفضل منه إلا قدر أربعة أصابع، وأنه قادر على الاستقرار على ظهر بعوضة، وأنه إذا غضب ثَقُلَ على حمة العرش، وأن رأس المنارة أقرب إليه من أسفلها، وغير ذلك مما يندى له الجبين، ولا يستسيغه عقل أو يحيزه نقل!

وهذان الكتابان لهما منزلة عظيمة عند ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وقد أكثرا من نقل عن هذين الكتابين.

يقول ابن القيم بعد الثناء على الدارمي: «وكتابه من أجل الكتب المصنفة في السنة وأنفعها، وينبغي لكل طالب سُنَّةٍ مراده الوقوف على ما كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة أن يقرأ كتابيه، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يوصي بهذين الكتابين أشد الوصية ويعظمهما جداً. وفيهما من تقرير التوحيد والأسماء والصفات بالعقل والنقل ما ليس في غيرهما!!»^(١) اهـ.

ومع أن الذهبي ينقل عن الدارمي ويشني عليه، إلا أنه نبه إلى غلو الدارمي فقال: «وفي كتبه بحوث عجيبة مع المريسي يبالغ فيها في الإثبات، والسكوت عنها أشبه بمنهج السلف في القديم»^(٢) اهـ.

وهذا التنبيه لا يكفي، لأننا نحتاج أن نعلم إلى أي مدى وصل الدارمي في الإثبات. ويلاحظ تردد الذهبي في الحكم على ما أثبتته الدارمي، فهو يكتفي بأن ينبه إلى أن سكوت عنه أشبه بمنهج السلف. فهل يشبهه بمنهج السلف بمنهج إثبات الثقل والحركة والحد والقرب الحسي وغير ذلك من لوازم الجسم التي أثبتتها الدارمي، بحيث يعد السكوت عن إثباتها أشبه بمنهجهم؟!

(١) اجتماع الجيوش لابن القيم: (١٤٣).

(٢) العلو للعلي الغفاري، للذهبي: (١/ ١٩٥).

نسلفية. وهذا الهروي شديد التعصب ربما ركب له إسناداً، فرواه عن أبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم القَرَّاب الهروي^(١) عن شيخ مجهول عن شيخ مجهول عن المؤلف. وأبو إسماعيل هروي لا يُستبعد صدور ما في هذا الكتاب منه، كما سوف يتبين في الحديث على مؤلفاته نسلفية! أما ابن الإمام أحمد، فلا نظن به أن يتعدى على الله سبحانه وعلى رسوله ﷺ وعلى الإمام أحمد والإمام أبي حنيفة النعمان^(٢).

وقد ذكر المحقق في توثيق الكتاب وصحة نسبه إلى المؤلف نقل الحنابلة عنه وأخذهم منه. وكل من ذكر نقلهم عنه جاءوا بعد عصر الهروي المذكور، فلا تدفع هذه النقول هذا 'شك' في نسبة الكتاب إليه، ولا الشك في صحة نسبه إلى المؤلف^(٣) اهـ.

واشتمل هذا الكتاب على أكثر من مائة وثمانين نصاً في الطعن في دين ورأي الإمام الأعظم أبي حنيفة رحمه الله تعالى ورضي عنه، بل في بعضها تكفيره، وأنه أخذ من لحيته كأنه نيس يُدار به على الحلق يُستتاب من الكفر أكثر من مرة، وأنه كذلك أفتى بأكل لحم الخنزير! وفيه نقل عن الإمام مالك أنه ذكره بسوء، وقال: كاد الدين، ومن كاد الدين فليس من الدين، ووثق المحقق رجال سند هذه الرواية^(٤).

وغير ذلك من المثالب التي تقشعر منها الأبدان، كله في حق إمام من أئمة الهدى وواحد من أجمعت الأمة على دينه وحسن اعتقاده وجودة مذهبه واتباع رأيه. عامل الله بعدله واضع هذه النصوص، وغفر لمحققها وناسرها!

(١) إسحاق بن إبراهيم بن محمد. محدث هراة، ربما زاد عدد شيوخه على ألف ومائتي نفس، وكان زاهداً مقلاً من الدنيا. توفي سنة ٤٢٩هـ. انظر سير أعلام النبلاء: (١٧/٥٧٠)، وطبقات الشافعية الكبرى: (٤/٢٦٤).

(٢) وهذا من باب إحسان الظن بالإمام أحمد، وإلا فلا شيء يضيره لو كانت تلك عقيدة ولده، فابن نبي الله نوح عليه السلام كان كافراً ولم يقدح ذلك في مقامه.

(٣) التجسيم وأثره في الفكر الإسلامي، د. صهيب السقار. قلت: مثل هذه الدعوى ينبغي الاستيثاق منها، ولا يكفي في الاحتجاج على تركيب الاسناد كون من اعتمد نسبه إلى عبد الله بن أحمد جاءوا بعد عصر الهروي، ويكفي في إسقاط نسبه وجود مجهولين في طبقتين متاليتين من إسناد الذي رواه به الهروي.

(٤) السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل، بتحقيق د. محمد سعيد سالم القحطاني: (١/١٩٩).

وتخريج هذه الرواية في كتاب صُنِفَ لجمع السنة والعقيدة المتوارثة، خير مثال على -
الطعن بأكابر المسلمين وعلمائهم ركن من أركان هذه العقيدة التي تصدى لها العلماء. فما من
سبيل إلا الطعن بهم ورميهم بالتَّجَهُم والتَّكْب عن منهج السلف ونحو ذلك، مما تركوا -
الجواب العلمي، واستبدلوا به هذا الأسلوب الناجح في فتنة العوام، المأخوذون بما يُظهر:
هؤلاء من التزهّد، المخدوعين بلافتات الدعوة إلى الكتاب والسنة وأتباع السلف.

ومما اشتمل عليه هذا الكتاب من الجرأة على الله عز وجل: وصفه بالجلوس على العرش، وإثبات صدر له وذراعين، وإثبات الثقل، والصورة التي صُوِّرَ عليها آدم، وأنه على كرسي من ذهب تحمله أربعة من الملائكة، وأنه واضعٌ رجله على الكرسي، وأن الكرسي قد عاد كالنعل في قدميه، وأنه إذا أراد أن يخوف أحداً من عباده أبدئ عن بعضه، وأنه قرب دابة عليه السلام حتى مس بعضه وأخذ بقدمه. وغير ذلك من الخرافات الموضوعة على أنبياء العقائد!

ومما اشتمل عليه في حق الإمام أحمد: أنه نقل عنه تصحيح الأخبار التي تثبت جلوسه عز وجل على العرش وحصول الأُطيط من هذا الجلوس، وأنه واضع رجله على الكرسي وأن الكرسي موضع قدميه، وأنه يقعد على العرش فما يفضل منه إلا قيد أربعة أصابع، وغير ذلك مما لم يَغِبْ نكارتة ولا ضعف سنده على بعضهم، وسكتوا عن نسبة تصحيحه إلى إمامهم وابن إمامهم.

فحاشا لله أن يصحح الإمام أحمد هذه الأخبار، فيخفى عليه ضعف سندها وم في متنها من النكارة ومخالفة عقيدة السلف، ثم يأتي المحقق ليكشف عن ذلك.

رابعاً: كتاب السنة للخلاّل^(١):

وقد أطل في الخلال الكلام عن تقرير قعود النبي ﷺ مع الباري سبحانه على الفضة التي تفضل من العرش. وحشر مع ذلك نقولاً عن بعض المحدثين في تكفير مُنكره ورميه

(١) أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد البغدادي الحلال توفي ٣١١هـ قال الذهبي في السير (٢٩٧/١٤) أخذ الفقه عن خلق كثير من أصحاب الإمام أحمد، ولم يكن قبله للإمام مذهب مستقل، حتى تَبَعَ هـ نصوص أحمد ودَوَّنَهَا وَبَرَّهَنَهَا بعد الثلاثمائة.

بالبدعة والتجهم وغير ذلك، مما لو قرأه رجل ليرسمع عن الإسلام شيئاً لظن أن هذا الخبر ركن من أركان الإسلام. وفيه أن الله عز وجل ينادي: يا داود ادن مني، فلا يزال يدنيه حتى يمس بعضه، ويقول: كن أمامي فيقول رب ذنبي ذنبي، فيقول الله له كن خلفي خذ بقدمي!

ثم يقول الخلال في آخر كتابه: «وبعد هذا أسعدكم الله، فلو ذهبنا نكتب حكايات الشيوخ والأسانيد والروايات لطال الكتاب، غير أنا نؤمل من الله عز وجل أن يكون في بعض ما كتبنا بلغة لمن أراد الله به، فثقوا بالله وبالنصر من عنده على مخالفيكم، فإنكم بعين الله، بقربه وتحت كنفه»^(١) اهـ.

خامساً: كتاب العرش وما روي فيه:

لمحمد بن عثمان بن أبي شيبة (٢٩٧هـ). وحال الكتاب من حال مؤلفه، الذي نقل الذهبي تضعيفه عن الجمهور، وتكذيبه عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، وعن غيره الاتهام بالوضع^(٢)!

وفي هذا الكتاب: أن أقرب الخلق إلى الله جبريل وميكائيل وإسرافيل، بينهم وبين ربهم مسيرة خمسمائة عام، وأن السماء منفطرة من ثقل الله، وأن محمداً ﷺ رأى ربه في روضة خضراء، ونحو ذلك مما هو مبسوط في موضعه.

سادساً: كتاب الصفات للدارقطني^(٣):

وهو الحافظ أبو الحسن علي بن عمر، الذي انتهى إليه علم الأثر والمعرفة بالعلل وأسماء الرجال مع الصدق وصحة الاعتقاد.

(١) السنة للخلال: (١/ ٢٦٥).

(٢) العبر في خبر من غير للذهبي: (٢/ ١١٤)، وسير أعلام النبلاء: (١٤/ ٢١)، وشذرات الذهب لابن العماد: (٢٢٦/ ١).

(٣) الإمام الشهير شيخ الإسلام وصاحب السنن. قال السبكي في الطبقات (٣/ ٤٦٢): قال الحاكم: صار الدارقطني أوجد عصره في الحفظ والفهم والورع، وإماماً في القراءة والنحوين. أشهد أنه لم يخلف على أديم الأرض مثله. وقال الخطيب: كان فريد عصره وإمام وقته، واتتهى إليه علم الأثر والمعرفة بالعلل وأسماء الرجال، مع الصدق والثقة وصحة الاعتقاد والاضطلاع من علوم سوى الحديث. وقال القاضي أبو الطيب الطبري: الدارقطني أمير المؤمنين في الحديث. توفي سنة ٣٨٥هـ.

سابعاً: كتاب التوحيد لابن خزيمة:

وهو الإمام الكبير أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري (٣١١ هـ)، صاحب الصحيح، المشهود له بالفقه والرواية، ولكن العلماء أخذوا عليه خوضه في الكلام، ولعله تأثر برأس الكرامية.

فقد نقل ابن السبكي عن الحاكم أنه ذكر في تاريخه محمد بن كرام فقال: «وقد أثنى عليه فيما بلغني ابنُ خزيمة، واجتمع به غير مرة»^(١) اهـ. وقد لاه بعض المحدثين على الخوض في ما لا يحسنه.

فمن ذلك ما أخرجه البيهقي بسنده عن عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي أنه قال: «ما لأبي بكر والكلام؟ إنما الأول بنا وبه ألا نتكلم فيما لم نتعلمه. قال البيهقي: والقصة فيه طويلة، وقد رجع محمد بن إسحاق إلى طريقة السلف، وتلهف على ما قال والله أعلم»^(٢) اهـ. واعترف ابن خزيمة على نفسه بأنه لا يحسن الكلام. فقد نقل البيهقي عنه أنه قال: «ما تُنكرون على فقيه راوي حديث، لا يحسن الكلام»^(٣) اهـ.

وكتاب التوحيد هو جزء من صحيحه على التحقيق، لأنه يُجِيل في أكثر من موضع على أبواب الصلاة وغيرها من أبواب الصحيح. وفيه باب بعنوان إثبات الأصابع لله عز وجل، وباب في إثبات القدم، ونحو ذلك.

ومع أنه اشترط الصحة في ما يذكره، إلا أنه لم يلتزم بذلك، فأخرج فيه متوناً منكراً وأسانيداً واهيةً. منها ما جاء في أن الكرسي موضع قدميه، وأن العرش يئط به، وأنه تحلى منه مثل طرف الخنصر، وأنه يهبط ثم يرتفع، وأنه ينزل إلى سماء الدنيا بروحه وملائكته فيستفص!! -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-، وأن جنة عدن مسكنه، وأن محمداً ﷺ رآه في روضة

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: (٣/ ٣٠٤).

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي: (٣٤٢).

(٣) المصدر السابق: (٣٤٠).

خضراء، دونه فراش من ذهب، يحمله أربعة من الملائكة، وغير ذلك مما هو مبسوط
موضعه.

ثامناً: كتاب التوحيد لابن منده:

وهو أبو عبد الله محمد بن إسحاق «ابن منده»^(١).

وله أيضا كتاب الرد على الجهمية، وفيه: أن الله يكشف يوم القيامة عن ساقيه، وعبر إلى البخاري ومسلم، مع أنه ليس في أحدهما^(٢)، وفيه أن الله خلق الملائكة من نور الص والذراعين -أي صدره وذراعيه، تعالى عن ذلك علوا كبيرا-، وأن الكرسي موضع قنـد ونحو ذلك من الأخبار.

تاسعا: كتاب الأربعين في دلائل التوحيد، لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الهروي^(٣):

والهَرَوِيُّ -نسبة إلى هَرَاة-، هو الذي كان المجسمة بهراة يلقبونه شيخ الإسلام. قد
 بمن سمي به الحافظ أبا عثمان الصابوني.

(١) قال الذهبي في التذكرة (١٥٧/٣): الإمام الحافظ الجوال محدث العصر. ما بلغنا أن أحدًا من هذه الأمة — ما سمع ولا جمع ما جمع، وكان ختام الرحالين وفرد الكثيرين مع الحفظ والمعرفة والصدق والتصانيف، اهـ. قلت: ربما كانت الآفة كثرة الجمع. فقد نقل الذهبي بعد كلامه هذا قول الحافظ أبي عبد الأصبهاني: اختلط في آخر عمره وتخط في أماليه، ونسب إلى جماعة أقوالاً في المعتقدات لم يُعرفوا به: — الله السر والصيانة. اهـ. وعقب الذهبي بقوله: لا يُعبأ بقولك في خصمك للعداوة المشهورة بينكم. — يعبأ بقوله فيك، فقد رأيت لابن منده مقالاً في الخط على أبي نعيم من أجل العقيدة أفتدع فيه، وكره صدوق غير متهم بحمد الله في الحديث، اهـ. وتوفي سنة ٣٩٥ هـ. قلت: يُردُّ على الذهبي رحمه الله في الكلام: فإن كلام الأقران في بعضهم لا يُقبل إن كان طعنًا في العدالة والخلق والدين، أما إن كان في عند الأوصاف التي تخص الرواية كالاختلاط وقلة الضبط والنسيان فلا بأس في ذلك، بل هو مقبول. — إذا ذكر هذا غيره من الحفاظ.

(٢) الرد على الجهمية لابن منده: (١٦/١).

(۳) سبقت ترجمته والكلام عليه.

قال ابن السبكي: «وأما المجسمة بمدينة هراة، فلما ثارت نفوسهم من هذا اللقب عمدوا إلى أبي إسماعيل عبد الله الأنصاري صاحب كتاب ذم الكلام فلقبوه بشيخ الإسلام. وكان الأنصاري المشار إليه رجلاً كثير العبادة محدثاً، إلا أنه يتظاهر بالتجسيم والتشبيه وينال من أهل السنة، وقد بالغ في كتابه ذم الكلام، حتى ذكر أن ذبائح الأشعرية لا تحل!

وكان أهل هراة في عصره فئتين: فئة تعتقده وتبالغ فيه لما عنده من التقشف والتعبد، وفئة تكفره لما يظهره من التشبيه.

ومن مصنفاته التي فوّت نحوه سهام أهل الإسلام: كتاب «ذم الكلام»، وكتاب «الفاروق في الصفات» وكتاب «الأربعين» .. وهذه الكتب الثلاثة أبان فيها عن اعتقاد التشبيه وأفصح.

وكان شديد التعصب للفرق الحنبلية، بحيث كان ينشد على المنبر على ما حكى عنه تلميذه محمد بن طاهر:

أنا حنبلي ما حييت وإن أمت فوصيتي للناس أن يتحنبلوا

وترك الرواية عن شيخه القاضي أبي بكر الحيري^(١) لكونه أشعرياً. وكل هذا تعصب زائد، برأنا الله من الأهواء^(٢) اهـ.

(١) قال الذهبي في السير (١٧/٣٥٦): الإمام العالم المحدث مسند خراسان قاضي القضاة. درس الكلام والأصول على أصحاب أبي الحسن الأشعري، وانتقى عليه أبو عبد الله الحاكم. وكان بصيراً بالذهب، فقيه النفس، يفهم الكلام، حدث عنه الحاكم وهو أكبر منه، وأبو محمد الجويني، وأبو بكر البيهقي، وأبو القاسم القشيري، وأبو بكر الخطيب، وقاضي القضاة أبو بكر محمد بن عبد الله الناصحي، وشيخ الحنفية محمد بن إسماعيل ابن حسنويه، وخلق سواهم. قال عبد الغافر الفارسي: كان من أصح أقرانه سماعاً، وأوفرهم إتقاناً، وأتمهم ديانة واعتقاداً. صنف في الأصول والحديث. أثنى عليه الحاكم، وفخم أمره، مات في شهر رمضان سنة ٤٢١ هـ. قلت: ألا قاتل الله التعصب الذي يجعل الإنسان يترك الرواية عن مثل هذا الخبر الذي تخرج عليه كل أولئك الأئمة!

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: (٢٧٢/٤).

أثبتته العلم الحديث-، وأن السماء خالية من أن تحتوي رب العزة سبحانه وتضمنه بين طياتها، وأن الله لا يشبه المخلوقات في شخص ولا صورة، ويجعل ذلك من علامات الزندقة، وينقل خبرا يتهم فيه الإمام أبا الحسن الأشعري أنه كان لا يستنجي ولا يتوضأ ولا يصلي!

نقل ذلك ابن تيمية رحمه الله تعالى وسامحه، مستشهداً به على ذم من ساهم المتأخرين من أصحاب الأشعري. مع أن من سماه شيخ الإسلام لم يوقر منهم أحداً، بل حكى الإجماع على تكفيرهم، وشحن كتبه في ذلك، وسعى بين السلاطين في فتنهم، ونضح بما فيه من وصفهم ذلك الوصف الذي خرج به عن حدود الأدب، فأطلق على الأشاعرة «مخانيث»!، وصار من بعده سنة سيئة عليه وزرها ثم على ابن تيمية مثل ذلك الوزر، لأنه عمل بهذه السنة في أكثر من موضع، حتى تابعه عليها ابن القيم ومن افتن بهم من المعاصرين!

بل إن هذا الرجل لا يستحي أن يكذب على الأشاعرة وينسب إليهم ما لم يقولوه. مما يدل على جهله الكامل بمذهبهم إذا أحسن الظن به، أو يدل على تعصبه الشديد البالغ حدّ العمى والفجور في الخصومة والعياذ بالله تعالى. والجهل أهونها لا شك.

قال ابن رجب الحنبلي: «...، عبد الجبار بن أبي الفضل الصيرفي، سمعت جماعة من أصحاب شيخ الإسلام الأنصاري يقولون: سمعنا شيخنا شيخ الإسلام أبا إسماعيل يقول: فذكر أبياتاً بالفارسية تفسيرها بالعربية: «إلهنا مرّئي على العرش مُستو. كلامه أزلي رُسوله عربي». كل من قال غير هذا أشعري. مذهبنا مذهب حنبلي»^(١) اهـ.

والأشاعرة لا ينكرون الرؤية ولا الاستواء ولا أزلية الكلام ولا عروبة الرسول ﷺ، بل ينكرون ما يدعيه البعض من إفادة النصوص ما يدل على التجسيم. فتأمل ما يفعله التعصب بصاحبه!

وبما سبق يتبين شيء من حال هذه المصنفات، وسوف يُكشف في ثنايا البحث عن تفصيل هذا الإجمال. ولكن لا بد أن نبين هنا غلط هؤلاء المصنفين على سبيل الإجمال أيضاً.

فمن ذلك: ما فعله يحيى بن عمار السجزي^(١) مع الإمام الحافظ محمد بن حبان رحمه

الله.

قال الذهبي: «قال أبو إسماعيل الأنصاري شيخ الإسلام: سألت يحيى بن عمار عن أبي حاتم ابن حبان، فقال: رأيته، ونحن أخرجه من سجستان، كان له علم كثير ولم يكن له كبير دين! قدم علينا، فأنكر الحدَّ لله، فأخرجناه!»^(٢) اهـ. فانظر إلى هذا التباين بين الفريقين، وكلاهما من أهل الحديث.

فمن جانب، يُعدُّ إثبات الحد لله عز وجل مخالفاً لتزيه الله عز وجل عنه، لأنه من لوازم الجسم. ومن جانب آخر يُعد نفية طعناً في الدين، وموجباً لطرده من ينفية.

وإن شئت. فهناك موقف ثالث متذبذب، كالذي ذكره الحافظ الذهبي -وهو من أهل الحديث كذلك- تعليقاً على قول يحيى بن عمار. قال رحمه الله تعالى: «قلت: إنكاره الحد وإثباتكم للحد نوع من فضول الكلام، والسكوت عن الطرفين أولى، إذ لم يأت نص بنفي ذلك ولا إثباته، والله تعالى ليس كمثله شيء، فمن أثبته قال له خصمه جعلت لله حداً برأيك ولا نص معك بالحد، والمحدود مخلوق تعالى الله عن ذلك. وقال هو للنافي ساويت ربك بالشيء المعدوم، إذ المعدوم لا حد له، فمن نزه الله وسكت سلم وتابع السلف»^(٣) اهـ.

وهذا الموقف الذي لا يرضى عن الموقفين السابقين موقف متهافت. فقد حصل النزاع

(١) كان من أهل الحديث والوعاظ المجيدين إلا أنه متعصب جداً، يخرج به تعصبه عن الحدود. توفي بهرة ٤٢٢ هـ. قال الذهبي في السير (١٧ / ٤٨١): وكان متحرراً على المبتدعة والجهمية بحيث يؤول به ذلك إلى تجاوز طريقة السلف!، وقد جعل الله لكل شيء قدراً، إلا أنه كان له جلالة عجيبة بهرة وأتباع وأنصار. وكان من كبار المذكرين، لكن ما أقبح الحرص وجمع المال بالعالم الداعي إلى الله! وكان قد تحول من سجستان فعظم بهرة جداً، وتغالوا فيه، وتخرج به أبو إسماعيل الأنصاري، وخلفه من بعده، اهـ. قلت: خلفه من بعده حتى في تعصبه، غفر الله لنا ولأهل العلم جميعاً.

(٢) ميزان الاعتدال: (٦ / ٩٩). قلت: وقد عاني الكثير من الأئمة قديماً وحديثاً من ظلم هؤلاء المجسمة وفتنهم، كما سبق أن ألمحنا في التمهيد إلى بعض النماذج.

(٣) ميزان الاعتدال للذهبي: (٦ / ٩٩).

١٢٠ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ الانتصار لأهل السنة وكشف مذهب أدعياء السلفية

في الحد نفياً وإثباتاً. فإن كان الحد من لوازم الجسم التي يجب تنزيه الله عز وجل عنها، فلا يسع النافي أن يسكت على إثبات التجسيم. وإن كان نفي الحد موجباً لعدم الباري فلا يسع المثبت السكوت على نفيه.

قال الحافظ ابن حجر تعليقا على قول الذهبي: «وقوله: «قال له النافي ساويت ربك بالشيء المعدوم، إذ المعدوم لا حد له» نازل^(١). فإننا لا نسلم أن القول بعدم الحد يفضي إلى مساواته بالمعدوم بعد تحقق وجوده. والحق: أن الحق مع ابن حبان فيها،... كيف يُحكم عليه بأنه هفا؟ ما هذا إلا تعصب زائد على المتأولين، وابن حبان قد كان صاحب فنون وذكاء مفرط وحفظ واسع إلى الغاية رحمه الله»^(٢) اهـ.

ولا يخفى أن الحافظ ابن حجر من أهل الحديث أيضاً، وكلامه في أي مبحث من مباحث العقيدة يعبر عن مذهبه.

وللحافظ تاج الدين السبكي كلام في هذا النقل أيضاً، ويروي فيه كذلك عن الحافظ العلائي، وكلاهما من أهل الحديث، مما يثبت اختلاف أهل الحديث في المذاهب العقديّة.

قال التاج السبكي: «انظر ما أجهل هذا الجارح، وليت شعري من المجروح، مُثِّبُ الحد لله أو نافية؟! وقد رأيت للحافظ صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي^(٣) رحمه الله على هذا كلاماً جيداً أحببت نقله بعبارة، قال رحمه الله، ومن خطه نقلت: يا لله العجب، مَنْ أحق بالإخراج والتبديع وقلة الدين؟!»^(٤) اهـ^(٥).

(١) أي: ساقط متهافت.

(٢) لسان الميزان لابن حجر: (١١٤/٥).

(٣) قال ابن حجر في الدرر الكامنة (٢/٢١٣): قال شيخه الذهبي: يستحضر الرجال والعلل، وتقدم في هذا الشأن مع صحة الذهن وسرعة الفهم. وقال الحسيني كان إماماً في الفقه والنحو والأصول متقناً في علوم الحديث وفنونه علامة فيه، حتى صار بقية الحفاظ، عارفاً بالرجال علامة في المتن والأسانيد بقية الحفاظ. وقال الإسنوي في الطبقات: كان حافظاً زمنه إماماً في الفقه والأصول وغيرهما ذكياً نظاراً فصيحاً كريماً ذليلاً سطوة وحشمة، اهـ. توفي سنة ٧٦١هـ.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: (٣/١٣٢).

(٥) قلت: ولنا أن نقول في زماننا، يا لله العجب. مَنْ الأحق بلقب المبتدعة، أهل السنة الأشاعرة والماتريدية =

نسر الثاني: التجسيم في فكر المحدثين ١٢١

ومن لم يكتف بهذا الموقف في إثبات أن أهل الحديث لا يجمعهم مذهب عقدي واحد، عيه يكتب الرجال وبيان حال الرواة ومصنفات المحدثين، فكلها شاهدة بأن في رواية حديث من الحنابلة والشافعية وسائر المذاهب الفقهية، وفيهم من الحشوية والقدرية . خوارج وغيرها من المذاهب الفكرية من لم يخرجهم مذهبهم الفكري من دائرة المحدثين ، ين حُكم عليهم بالبدعة ومخالفة السنة.

وهذا يتبين أن المحدثين ليس لهم عقيدة جامعة. فيكون عزو عقيدة إلى جماعة أهل حديث تمويهاً وخداعاً للناس، وتسترا بما له قدسية ومكانة في القلوب، حتى يطمئن السامع : نقارئ، فلا يسعى للتحقق من صحة كلام المتكلم في إثبات التجسيم، اتكالا منه على أمانة نمل الحديث ودقة نقلهم^(١).

ويتبين أيضا أنه لا يصح قول الشيخ ابن تيمية في المتكلمين: «ولو اعتصموا بالكتاب والسنة لاتفقوا كما اتفق أهل السنة والحديث، فإن أئمة السنة والحديث لم يختلفوا في شيء من أصول دينهم»^(٢)أهـ.

= الذين يتزّهون الله تعالى، أم أدعياء السلفية الذين ينسبون إليه صفات الأجسام؟!، وما أجهل الجارح، وليت شعري من المجروح!

(١) انظر تبديد الظلام المخيم للكوثري: (٢٠).

(٢) درء التعارض لابن تيمية: (٣٠٦/١٠).

الفصل الثالث الكرامة المجسمة

قبل التعريف بهذه الفرقة، لابد من التنبيه إلى تميزها عن سائر فرق المجسمة، فهذه فرقة لم تمت مقالاتها بموت مؤسسها، بل تمكنت بتلبسها لباس الزهد والتقشف أن تخدع بعض ذوي السلطان وتقنعهم بمقالاتها وتفوز بأحضانهم وقمعهم لمخالفيها، وتميزت أيضا تسرب بعض مقالاتها إلى المصنفات التي تُنسب إلى العقيدة السلفية.

وتاريخ هذه الفرقة يوضح كيفية انتشار مقالة التجسيم بين العوام، انخداعا بها يظهر عن أصحاب المقالة من زهد وتقشف وعبادة، وانخداعا بتشجيع أصحاب المقالة على مذهب تنزيه وأهله، بدعوى موافقته للفلسفة الأجنبية^(١). وتوضيح ذلك يتم بإطلالة على تاريخ هذه الفرقة ومعرفة مقالاتها.

أما مؤسس هذه الفرقة: فهو محمد بن كرام السجزيّ.. ولد في سجستان ونشأ فيها. يقول الشهرستاني: «نبغ رجل متمسك بالزهد من سجستان، قليل العلم، قد قمّش من مذهب ضغثاً وأثبت في كتابه، ورّوجه على سواد بلاد خراسان، فانتظم ناموسه وصار نك مذهباً»^(٢) اهـ.

ويقول التاج السبكي: «وكان من خبر ابن كرام هذا - وهو شيخ سجستاني مجسم - أنه سمع يسيراً من الحديث، ونشأ بسجستان ثم دخل خراسان وعاد إلى نيسابور وباح التجسيم. وكان من إظهار التمسك والتأله والتعبد والتقشف على جانب عظيم. فافترق نس فيه على قولين: منهم المعتقد، ومنهم المنتقد. قال الحاكم: لقد بلغني أنه كان معه جماعة من الفقراء، وكان لباسه مسك ضأن مدبوغ غير مخيط، وعلى رأسه قلنسوة بيضاء، وقد نُصب - دكان من لبن، وكان يُطرح له قطعة فرو فيجلس عليها، فيحفظ ويذكر ويحدث. ثم قال

(١) وهذا ما يحدث الآن تماماً.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني: (١٠٧).

٢- تمَّتْ الكرامية بموت مؤسسها، بل هُذِّبَتْ مقالته في التجسيم وزُيِّفَتْ حتى كثر - ب - واستحسنها السلطان واعتنق مذهبها، وامتحن بذلك بعض الكبار من علماء أهل - س - سَرَّهِنَّ الله عز وجل عن الجسمية ولوازمها.

ومن تلاميذ ابن كرام وأتباعه الذين قاموا بنصرة مذهبهم، إسحاق بن محمشاد الذي - س - في فضائل ابن كرام.

يقول ابن حجر: «إسحاق بن محمشاد، روى عن أبي الفضل التميمي حديثاً، هو - س - بقله حياء. مَتْنُهُ: «يجيء في آخر الزمان رجل يقال له ابن كرام تحيا السنة به». فانظر إلى - د - ح والممدوح، وسند حديثه مجاهيل»^(١) اهـ.

ومن تلاميذ ابن كرام وأتباعه الشاعر أبو الفتح علي بن محمد البستي^(٢)، الذي اتصل - س - نك ناصر الدولة سبكتكين^(٣) وعمل في خدمته، فقربه منه حتى تأثر مُلك آل سبكتكين^(٤) - كرامية، فنصروا المذهب وقسوا على مخالفه.

(١) لسان الميزان لابن حجر: (٣/ ٣٥٤).

(٢) انظر ترجمته في البداية والنهاية لابن كثير: (١١/ ٢٧٨)، وشذرات الذهب لابن العماد: (٢/ ١٩٥).

(٣) قال الذهبي في السير: (١٦/ ٥٠٠): كان فيه عدل وشجاعة وعسف وكونه كرامياً. وذكر في: (١٧/ ٤٨٤) مثلاً لقسوته على مخالفي مذهبهم فقال: كان أبو القاسم النضري قاضي مرو صلب المذهب، فدخل صاحب غزنة سبكتكين بلخاً ودعا إلى مناظرة الكرامية، وكان النضري يومئذ قاضياً ببلخ، فقال سبكتكين: ما تقولون في هؤلاء الزهاد الأولياء؟ فقال النضري: هؤلاء عندنا كفرة، فقال ما تقولون في؟ فقال: إن كنت تعتقد مذهبهم فقولنا فيك كذلك، فوثب وجعل يضربهم بالدبوس حتى أدماهم وشج النضري، وقيدهم وسجنهم، ثم أطلقهم خوف الملامة. وقال في ترجمة سبكتكين: (١٧/ ٤٨٦): وكان السلطان مائلاً إلى الأثر إلا أنه من الكرامية.

(٤) اتسعت دولة آل سبكتكين حتى شملت الهند وخراسان وغزنة وغيرها، كان ابتداء دولتهم (٣٣٦هـ)، ومدة ولايتهم مائتين وثلاث عشرة سنة تقريباً، وكان ملوكهم من أحسن الملوك سيرة، لا سيما السلطان محمود بن سبكتكين (٢٤١هـ)، وأول ملوكهم جدهم سبكتكين، وانتهت دولتهم على يد الغوريين. انظر الكامل لابن الأثير: (٩/ ٣٧٠)، وسير أعلام النبلاء: (١٧/ ٨٤)، وطبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي: (٥/ ٣١٤-٣١٧).

ومن أتباع ابن كرام محمد بن الهيصم^(١)، الذي اجتهد في ترميم مقالة ابن كرام، حتى ردها من المحال الفاحش إلى نوع يفهم بين العقلاء.

فمن ذلك: أنه عدل بإثبات الجسم إلى معنى زعم أنه المراد، وهو القائم بالذات. وهذا هو الرأي الذي مال إليه ابن تيمية رحمه الله. ومنه أيضاً أنه زعم أن الفوقية بمعنى العلو، مع إثبات السينونة غير المتناهية بينه وبين خلقه^(٢)!

قال الشهرستاني: «قد تخطى بعض الكرامية إلى إثبات الجسمية، فقال: أعني بها القيـد بالنفس، وذلك تلبيس على العقلاء. وإلا فمذهب أستاذهم -يعني ابن كرام- مع كونه سبحانه عنده محلاً للحوادث، مستوياً على العرش استقراً، مختصاً بجهة فوق مكة، واستعلاءً. فليس ينجيه من هذه المخازي تزويرات ابن هيصم، فليس يريد بالجسمية القيـد بالنفس. وإنما هو إصلاح مذهب لا يقبل الإصلاح، وكيف يستوي الظل والعود أعرج. وكيف استوى المذهب وصاحب المقال أهوج» (٣) اهـ.

وكان ابن الهيثم من مجالسي السلطان محمود بن سبكتكين^(٤)، وكان الإمام أبو بكر

(١) لم أجد له ترجمة شافية، وأجمع كل من ذكروه من أئمة التراجم كالذهبي وابن حجر وغيرهما أنه متهم الكرامية وإمامهم وكذلك عدد من أحفاده. لكن قال البخارزي في دمية القصر (١/ ١٠٢): الإمام أبو عبد الله محمد بن الهيصم من جبال هرات. وهو من أصحاب المقالات. فلا يتصورَنَّ لك في المؤرخين والخيالات أنه من الجسمية المرتكبة للمجالات. وقد تقرر عند العلماء الكرام أنه ليس من أشياع أبي عبد - بن كرام!

(۲) انظر الملل والنحل للشهرستاني: (۱۱۱).

(٣) نهاية الإقدام للشهر ستاني: (١٢٢)، وانظر التجسيم عند المسلمين وهو مذهب الكرامية: (٨٩-٩٠).

(٤) أبو القاسم الملقب بيمين الدولة صاحب بلاد غزنة ومأ والاهاء، كان غاية في الديانة وكرهه المعاصي ونه ولا يجرو أحد أن يظهر معصية ولا خمر في مملكته، واختلف في اتباعه مذهب الكراميه. انظر البدايه و — لابن كثير: (١٣/٢٩—٣٠)، وطبقات الشافعية لابن السكي: (٣١٤/٥).

بن فورك^(١) هو الذي يناظر ابن الهيثم في هذا المجلس^(٢)، وكانت هذه المناظرات سبباً في 'استشهاد ابن فورك رحمه الله تعالى.

قال التاج السبكي: «وكان ابن فورك شديداً على الكرامية، وأذكر أن ما حصل له من لمحنة من شغب أصحاب ابن كرام وشيعتهم من المجسمة، فتحزبوا عليه ونمّوا عليه غير مرة، وهو يتصر عليهم، فلما أيست الكرامية من الوشاية والمكايدة، عدلت إلى السعي في موته والراحة من تعبها، فسلطوا عليه من سمة فمضى حميداً شهيداً»^(٣) اهـ.

وكان الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني^(٤) قد تعين عليه مناظرة الكرامية بعد ابن فورك. ومن هذه المناظرات ما ذكره أبو المظفر الإسفرائيني. قال: «سأل بعض أتباع الكرامية في مجلس السلطان محمد بن سبكتكين إمام زمانه أبا إسحاق الإسفرائيني رحمه الله عن هذه

(١) هو الإمام الأستاذ أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الذي لا يُجاري فقهاً وأصولاً ونحواً، مع مهابة وورع بالغ، بلغت تصانيفه قريباً من المائة. قال النووي في تهذيب الأسماء واللغات عند ترجمة أبي إسحاق الإسفرائيني (١/ ٧٣٣): كان الأستاذ أحد الثلاثة الذين اجتمعوا في عصر واحد على نصر مذهب الحديث والسنة في المسائل الكلامية، القائلين بنصرة مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، وهم الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني، والقاضي أبو بكر الباقلاني، والإمام أبو بكر بن فورك، اهـ. وقال الذهبي في السير (١٦/ ٢٨٥): الإمام الكبير المقرئ، مسند أصبهان،... توفي في ذي القعدة سنة ٣٧٠هـ وما أعلم به بأساً، اهـ. وقال السبكي في الطبقات (٤/ ١٢٨): قال الحاكم: أحيا الله به في بلدنا أنواعاً من العلوم لما استوطنها، وظهرت بركته على جماعة من المتفقهة وتخرجوا به، اهـ. وانظر: طبقات الشافعية للسبكي: (٤/ ١٢٧)، وشذرات الذهب لابن العماد: (٢/ ١٨١)، ووفيات الأعيان لابن خلكان: (٤/ ٢٧٢).

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير: (١٢/ ٣٠)، والتجسيم عند المسلمين وهو مذهب الكرامية لسهير مختار: (٨٧).

(٣) طبقات الشافعية الكبرى: (٤/ ١٣١)، وانظر شذرات الذهب لابن العماد: (٤/ ١٨١).

(٤) يقال الإسفرائيني والإسفرائيني، قال الذهبي في السير (١٧/ ٣٥٣): الإمام العلامة الأوحى الأستاذ الأصولي الشافعي الملقب ركن الدين. أحد المجتهدين في عصره. قال عبد الغافر في تاريخه: كان طرازاً ناحية تشرق فضلاً عن نيسابور، ومن المجتهدين في العبادة المبالغين في الورع، انتخب عليه الحاكم عشرة أجزاء وذكره في تاريخه لجلالته، وكان ثقة ثباتاً في الحديث. قال عنه الحاكم في تاريخه: الأصولي الفقيه المتكلم، تتقدم في هذه العلوم. قد أقر له العلماء بالتقدم، اهـ. توفي سنة ٤١٨هـ.

يث الدين فأكرمه واحترمه وبنى له مدرسة بهراة، فقصده الفقهاء من البلاد، فعظم ذلك في الكرامية وهم كثيرون بهراة، وأما الغورية فكلهم كرامية.

فاتفق الفقهاء من الكرامية والحنفية والشافعية عند غياث الدين للمناظرة، وحضر نخر الرازي وابن القدوة، وهو من أتباع ابن كرام وابن الهيصم وله عندهم محل كبير لهذه علمه وبيته. فتناظر هو والرازي، وخرجا من المناظرة إلى السب والشتم. فانفصلوا على هذا، وقام ضياء الدين^(١) في هذه الحادثة وشكر إلى غياث الدين، وضم الفخر الرازي، ونسبه إلى الزندقة ومذهب الفلاسفة، فلم يصغ غياث الدين إليه.

فلما كان الغد، قام واعظ بالجامع. فلما صعد المنبر، قال بعد أن حمد الله وصلى على نبي ﷺ: لا إله إلا الله، ربنا آمانا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكبتنا مع الشاهدين، أيها الناس، إن لا نقول إلا ما صح عندنا عن رسول الله ﷺ، وأما علم أرسطاليس وكُفَرِيَّات ابن سينا وفلسفة الفارابي فلا نعلمها، فلأي شيء يُشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام يذب عن دين الله وعن سنة نبيه، ويكفي وضج الناس، ويكفي الكرامية واستغاثوا. وثار الناس من كل جانب، وامتألا البلد فتنة وكادوا يقتتلون ويجري ما يهلك فيه خلق كثير، فبلغ ذلك السلطان فأرسل جماعة من عنده إلى الناس وسكنهم، ووعدهم بإخراج الفخر من عندهم، وتقديم إليه بالعودة إلى هراة فعاد إليها^(٢) اهـ.

وهذه حادثة مهمة في تاريخ التجسيم، إذا أردنا أن نأخذ من دراسته العبر.

مقالة الكرامية في التجسيم:

اختلف كُتَّابُ الملل والنحل في تعداد فرق الكرامية. فالبغدادي جعل الكرامية ثلاثة أصناف، وجعلها الرازي ستة فرق، وأوصلها الشهرستاني إلى اثنتي عشرة فرقة.

= تعالى، فَهَجَرَهُ وصار شافعي المذهب وبنى المدارس للشافعية ومسجدا بغزنة، كما ذكره ابن الأثير في الكامل: (٢٤٦/١٠).

(١) أحد أمراء الغوريين، ضياء الدين محمد الغوري، وهو ابن عم غياث الدين، انظر الكامل لابن الأثير: (٧٣/١٠).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير: (١٩/١٣)، وانظر الكامل لابن الأثير: (٢٦٢/١٠).

وعند ذكر مقالاتهم، سيجد القارئ النصف أن مقالاتهم تسربت إلى مجسمة زمانه أدعياء السلفية، فاعتمدها مذهباً لهم، ونسبوا كعادتهم إلى مذهب السلف والسنة والحديث والإمام أحمد!!

ولا نطيل في تفصيل مقالاتهم لسببين:

أولهما: أن جهداً قد بُذل من قبل في مذهب الكرامية^(١).

والثاني: أن هذه الفرق وإن كان لكل واحدة منها رأي، إلا أن الشهرستاني قال: «إلا أن ذلك لما لم يصدر عن علماء معتبرين، بل عن سفهاء جاهلين»^(٢) لم نفردها مذهباً، وأورد مذهب صاحب المقالة وأشارنا إلى ما يتفرع منه^(٣) اهـ.

وأهم مقالاته تجسيم معبوده: إذ زعم أنه جسم، له حد ونهاية من تحته، وهي الجهة التي يلاقي منها العرش^(٤). ثم اختلف أصحابه في النهاية: فمنهم من وافقه، ومنهم من أثبت النهاية له من ست جهات، ومنهم من أنكر النهاية له وقال: هو عظيم. ولهم في معنى العظمة خلاف. فقال بعضهم: معنى عظمته أنه مع وحدته، على جميع أجزاء العرش، والعرش تحته. وهو فوق ذلك، على الوجه الذي هو فوق جزء منه. وقال بعضهم: معنى عظمته أنه يلاقي مع وحدته من جهة واحدة أكثر من واحد، وهو يلاقي جميع أجزاء العرش، وهو العلي العظيم^(٥).

(١) ومنه رسالة نالت بها الباحثة سهر مختار شهادة الماجستير من الأزهر الشريف، بعنوان «التجسيم عند المسلمين وهو مذهب الكرامية»، واقتصرت فيها على دراسة الكرامية وتكلمت فيه على فرقها من: (٨٦-٩٨).

(٢) ولهذا لم يعباً المؤرخون بالترجمة لهؤلاء، ولم أجد فيما بين يدي من المصادر شيئاً يستحق الذكر في ترجمة رؤس تلك الفرق غير ما سبق في تاريخ هذه الفرقة.

(٣) الملل والنحل: (١٠٧)، وانظر الفرق بين الفرق للبغدادي: (٢٠٣)، واعتقادات فرق المسلمين للرازي: (٧).

(٤) انظر الفرق بين الفرق للبغدادي: (٢٠٣)، والملل والنحل للشهرستاني: (١٠٨)، واعتقادات فرق المسلمين للرازي: (١٧).

(٥) انظر الملل والنحل للشهرستاني: (١١١).

وقد سبق أن ابن كرام زعم أن معبوده أَحَدِيُّ الذات أحدي الجوهر. وقد حاول بعض أتباعه تهذيب هذا الوصف في ما حكاه البغدادي .

قال الإمام أبو منصور البغدادي: «وأتباعه اليوم لا يباحون بإطلاق لفظ الجوهر على من تعالَى عند العامة، خوفاً من الشناعة عند الإشاعة. وإطلاقهم لفظ الجسم عليه أشنع من سم الجوهر. وامتناعهم من تسميته جوهرًا مع قولهم بأنه جسم، كامتناع شيطان الطاق - رافضي^(١) من تسمية الإله جسماً مع قوله بأنه على صورة الإنسان»^(٢) اهـ.

واتفق أكثر الكرامية على إطلاق لفظ الجسم .. واجتهد بعضهم في تزوين هذه المقالة، زعم أنه يريد بلفظ الجسم أنه قائم بنفسه، وزعم أن هذا هو حد الجسم.

قال الشهرستاني: «وينوا على هذا أن مِنْ حُكْمِ الْقَائِمِينَ بأنفسهما أن يكونا متجاورين ومتباينين، ففضّل بعضهم بالتجاور مع العرش، وحكم بعضهم بالتباين. وربما قالوا: كل موجودين فإما أن يكون أحدهما بحيث الآخر كالعرض مع الجوهر، وإما أن يكون بجهة منه، والباري ليس بعرض، إذ هو قائم بنفسه فيجب أن يكون بجهة من العالم، وأشرفها جهة فرق، فقلنا هو بجهة فوق بالذات»^(٣) اهـ.

وعين هذا الاستدلال موجود في المؤلفات التي توصف بجمع العقيدة السلفية في عصرنا، مع أن أحداً من السلف لم يهمس فيه ببنت شفة، إلا أن يكون الكرامية ومن اغترّ بهم من المحدثين هم السلف دون الصحابة والتابعين!

(١) محمد بن علي بن النعمان بن أبي طريفة، من غلاة الشيعة. تنسب إليه فرقة يقال لها الشيطانية، عدها المقريني من فرق (المعتزلة) وقال: انفرد بطامة، وهي أن الله لا يعلم الشيء حتى يقدره، وأما قبل تقديره فيستحيل أن يعلمه، ولو كان عالماً بأفعال عباده لاستحال أن يمتحنهم ويختبرهم اهـ. ويقال: إن الإمام أبا حنيفة أول من لقبه بشيطان الطاق عقب مناظرة جرت بحضرته بينه وبين بعض الحرورية. توفي نحو ١٦٠ هـ. انظر: لسان الميزان لابن حجر: (٣٠٠ / ٥)، الأعلام للزركلي: (٦ / ٢٧١)،.

(٢) الفرق بين الفرق لأبي منصور البغدادي: (٢٠٣).

(٣) الملل والنحل للشهرستاني: (١٠٨).

ونعود إلى مقالة ابن كرام: الذي زاد على ما سبق، زعمه أن الله تعالى مماس لعرشه من الصفحة العليا^(١). وأبدل أصحابه لفظ المُحَامَسَة بلفظ الملاقاة منه للعرش، وقالوا: لا يصح وجود جسم بينه وبين العرش، إلا أن يحيط به العرش إلى أسفل. وهذا هو معنى المحامسة التي امتنعوا من لفظها كما نبه عليه البغدادي^(٢). ومنهم من قال إنه على بعض أجزاء العرش. وقال بعضهم إن العرش قد امتلأ به، وصار المتأخرون منهم إلى أنه بجهة فوق، وأنه محاذ للعرش^(٣).

واختلفت الكرامية في المسافة التي أثبتوها بينه وبين العرش: فمنهم من قال إن بينه وبين العرش من البعد والمسافة ما لو قُدِّر مشغولاً بالجواهر لاتصلت به. وقال ابن الهيصم: إن بينه وبين العرش بعداً لا يتناهى، وهو مُبَيَّنٌ للعالم بينونة أزلية، ونفى التحيز والمحاذاة. وأثبت الفوقية والمابنة^(٤). وسوف نرى تسرب هذه المقالة إلى ما يسمى بعقيدة السلف.

واختلفت الكرامية في الاستواء على العرش: فنص ابن كرام على أن معبوده على العرش استقر، وأنه بجهة فوق ذاتاً، وأن العرش مكان له، وجوّز عليه الانتقال والنزول. وسوف نرى مدى تسرب هذه المقالة إلى ما يسمى بعقيدة السلف أيضاً. وزاد بعض أصحابه، فزعم أن العرش مكان له، وأنه لو خلق بإزاء العرش عروشاً موازية لعرشه لصارت العروش كلها مكاناً له، لأنه أكبر منها كلها.

قال البغدادي: «وهذا القول يوجب أن عرشه اليوم كبعضه⁽⁵⁾ في عرضه، ومنهم من قال: إنه لا يزيد على عرشه من جهة الماسة، ولا يفضل منه شيء على العرش. وهذا يقتضي أن يكون عرضه بعرض العرش، ...، وأعجب من هذا كله أن ابن كرام وصف معبود:

(١) انظر الفرق بين الفرق لأبي منصور البغدادي: (٢٠٤)، والملل والنحل للشهرستاني: (١٠٨).

(۲) انظر الفرق بين الفرق: (۲۰۴).

(۳) انظر الملل والنحل للشهرستاني: (۱۰۸).

(٤) المصدر السابق: (١٠٨)، واعتقادات فرق المسلمين للرازي: (٦٧).

(٥) يقصد أن مقالاتهم تفيد أن مساحة عرض العرش تساوي مساحة الجزء الذي يلاقي العرش من الله، سبحانه. عما يقولون وتعالى علوا كبيرا. فلفظ البعض يقصد به الجزء هنا.

..تختل، وذلك أنه قال في كتاب عذاب القبر في تفسير قوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾
«تنفطار: [١]: إنها انفطرت من ثقل الرحمن عليها»^(١) اهـ.

وسوف نرى من وافق على ذلك من المتتبعين إلى السلف اليوم.

ومن مقالة ابن كرام أيضا: إثبات الكيفية لله عز وجل، فيما نقله البغدادي من كتاب
عذاب القبر^(٢).

قال البغدادي: «ثم إن ابن كرام ذكر في كتابه عذاب القبر باباً له ترجمة عجيبة فقال:
ب في كَيْفُوفِيَّةِ الله عز وجل. ولا يدري العاقل من ماذا يتعجب، أَمِنْ جَسَارَتِهِ عَلَى إِطْلَاقِ
نَظَرِ الكِيفِيَّةِ فِي صِفَاتِ الله عز وجل؟ أَمْ مِنْ قَبَحِ عِبَارَتِهِ عَنِ الكِيفِيَّةِ بِالكِيفُوفِيَّةِ؟ وله من
جنس هذه العبارة أشكال. وقد عبر عن مكان معبوده في بعض كتبه بِالحَيُّوُثِيَّةِ، وهذه
عبارات لا ثقة بمذهبه السخيف»^(٣) اهـ. وهذه المقالة مما تسرب إلى ما يسمى اليوم بعقيدة
سلف أيضاً.

ومن مقالة أصحابه التي زادوا فيها على مقالة كبيرهم: أنهم عدوا في صفات الله تعالى
نيدين والوجه، فأثبتوها صفاتٍ قديمةً قائمة بذاته، وقالوا: له يد لا كالأيدي ووجه لا
كأوجوه^(٤)، وأثبتوا جواز رؤيته من جهة فوق دون سائر الجهات^(٥).

وزعم ابن الهيصم أيضاً: «أن الذي أطلقه المجسمة من الهيئة والصورة والجوف
وغيرها لا يشبه ما أطلق الكرامية، من أنه خلق آدم بيديه، وأنه استوى على العرش، وأنه
يحيي يوم القيامة لمحاسبة خلقه. قال: وذلك لأننا لا نعتقد ذلك على معنى فاسد، من جارحة
عضو أو مطابقة للمكان والاستقرار بالعرش في تفسير الاستواء ولا تردد في الأماكن التي

(١) الفرق بين الفرق: (٢٠٧).

(٢) المصدر السابق، وانظر نحوه في التبصير في الدين للإسفرائيني: (٦٨).

(٣) المرجع السابق.

(٤) انظر الملل والنحل للشهرستاني: (١١١).

(٥) انظر الفرق بين الفرق: (١٠٩)، والملل والنحل للشهرستاني: (١١١).

٤. كما هاب صاحب سجستان قتل ابن كرام واكتفى بنفيه. وتارة يُستظهر بهم في إيذاء حنفيين وإثارة الفتن كما فعل ابن القدوة.

خامساً: أن المقالة التي بان فسادها لن تعد من يحاول ترميمها واستئصال ما انكشف - عوارها، فيتبرأ المرمم مما لا يمكن إصلاحه، أو يتلاعب بالفاظها ويحملها على معان - غير المعاني التي بان فسادها.

سادساً: أن أكثر الناس تصريحاً بأشنع العقائد الباطلة في هذا الباب يتمسكون بنفي شيء وإثبات ما أثبتوه على الوجه اللائق. فهذا هشام بن الحكم يزعم أنه إنما أثبت جسماً لا - - :جسام.

وفي هذه المقالة يقول التاج السبكي:

كذب ابن فاعلة يقول لجهله الله جسم ليس كالجسمان

لو كان جسماً كان كالأجسام يا مجنون فاصغِ وعُدَّ عن البهتان^(١)

ومن ذلك أيضاً أن مقاتل بن سليمان بعد أن تجرأ على الله عز وجل بإثبات الجسم حذرة والأعضاء والجوارح، زعم أنه مع ذلك لا يشبهه شيء ولا يشبه غيره.

وهذه النقاط لا تغيب في عصر من العصور عن فكر الخائضين في وصف الله عز - والمتبعين لما تشابه من كتابه وسنة رسوله ﷺ.

الفصل الرابع

التجسيم في فكر الوهابية

إن كانت الإشارة قد سبقت إلى بعض جهود المجسمة المعاصرين في التحقيق والتعليق على بعض المصنفات القديمة التي يسمونها مصادر العقيدة السلفية، إلا أنها كانت أقرب إلى تلميح السريع الذي يحتاج إلى التوضيح، لكشف ما وراءه ومعرفته بشيء من التفصيل. ففي هذا المبحث يتبين العذر الذي سوغ إعادة الكتابة في هذا المذهب الشنيع الهالك، فنشير بوضوح إلى صنيع بعض المعاصرين ممن خاضوا في المتشابه، فحاموا حول حمى التجسيم. وأثبتوا نكلك أنهم خلّفوا لسلف كلهم تواصوا بالانحراف العقدي ناحية التجسيم والتشبيه.

- فالقوم لما عرفوا أن مسلّكي التفويض والتأويل اللذين اعتمدهما أهل السنة في تعامل مع نصوص التشابهات - لمّا عرفوا أنها - حاجزان منيعان من الوقوع في مَهَاوِي تشبيه بالغوا في تشنيعهما، وأسرفوا في ذم جمهور أهل السنة وأكابرهم من الأشاعرة والماتريدية الذين اختاروا هذين المسلكين، فَرَمَوْهُم بِالْعُطِيلِ وَالتَّجْهِمِ والإلحاد، ونسبوا لهم في اعتقاد الفلاسفة تمويها على الناس وتنفيرا لهم عن مذهبهم، وصرح بعضهم باستباحة دمائهم وأعراضهم، وعكفوا على بعض مصنفات السابقين الذين سبقوهم في ذلك فأشبعوها دراسة وخدمة، وقَدَّموها على أنها مصادرُ العقيدة السلفية!

فلا بد من الإشارة أولاً إلى جهودهم في خدمة المصنفات التي خاض فيها المتقدمون في التشابهات، ولا بد أيضاً من الإشارة إلى جهودهم في التشنيع على من اختار هذين المسلكين لإبطال ما يدرأ التجسيم.

أولاً: جهودهم في نشر المصنفات التالفة وتحقيقها ونشرها وتعظيمها:

اهتم المعاصرون بما صنفه بعض المتقدمين من الكتب التي جُمعت فيها الأخبار المتشابهة والمتون المنكرة، في ما يسمونه كتب التوحيد والسنة والرد على الجهمية. وقد سبق

فمن ذلك مثلاً: أنه وثَّق ما أخرجه المؤلف بسنده عن الإمام مالك بن أنس، أنه ذكر أبا حنيفة بكلام سوء، وقال: كَادَ الدِّينَ، وَمَنْ كَادَ الدِّينَ فَلَيْسَ مِنَ الدِّينِ^(١)، ومنه أيضاً: عن بِ عَوَانَةِ: أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ قَالَ فِي الْمُسْكِرِ حَلَالٌ^(٢)، وأنه -أي الإمام أبو حنيفة- اسْتُيِّبَ مِنْ كَفَرٍ مَرَّتَيْنِ^(٣)، ومنه أيضاً: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَدْنِي دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى يَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ^(٤).

فمن العجيب أن القوم قد بالغوا في التشنيع على كتاب إحياء علوم الدين للحجة بسلام أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى، متذرعين بما فيه من الأحاديث الضعيفة، مع أن غزالي لم يورد هذه الأحاديث في كتاب موضوعه العقيدة في الله عز وجل وصفاته!

بل لو كان يُشترط في الأخبار التي يُحتج بها في فضائل الأعمال ما يُشترط في الأخبار التي يُحتج بها في العقائد لرينجُ مؤلف كتاب السنة مما نجا منه الغزالي. وهو معارضة القواطع التي دلت على تنزيه الله عز وجل. فقد سبق أن المحقق نفسه اعترف على بعض أخبار الكتاب أن فيه دخولاً في تكييف صفات الله عز وجل، فيكون أسوأ حالاً ممن احتج بحديث ضعيف في فضائل الأعمال التي لا يعارضها الشرع، بل لا بد أن يشهد لها إجمالاً أو تفصيلاً.

وبالجملة، فقد سبق نقد هذا الكتاب وما تضمنه من المنكرات والإسرائيليات التي لم تخفَ حتى على المحقق. فمن العجيب أن يزعم المحقق أن هذا الكتاب صنو لمؤلفات تحتل مكان الصدارة بعد كتاب الله في المكتبة الإسلامية! ومن العجيب أن القوم تظاهروا على عدّه من مصادر عقيدتهم السلفية!

ومن يتابع السلف على نبذ التعصب والتجرد لطلب الحق، يعلم أن الإسلام أغنى ما يكون عن هذا الكتاب، لأن شيئاً من دين الله عز وجل لم يوكّل إثباته إلى كتاب مجهول السند. ويعلم كذلك أن ما اختص به هذا الكتاب هو الطعن في السلف، وإثارة الفتنة بين المسلمين،

(١) مقدمة كتاب السنة لعبد الله بن أحمد - تحقيق د. محمد سعيد سائر القحطاني: (١/ ١٩٩).

(٢) المصدر السابق: (١/ ٢٠٧).

(٣) المصدر السابق: (١/ ١٩٣).

(٤) المصدر السابق: (٢/ ٢٠٥).

وأما كتاب الرد على الجهمية فقد حققه أيضاً بدر البدر، وشهد له باتباع السلف ونصر سنة^(٢). وخصَّ الطالبُ محمود محمد أبو رحيم الدارميَّ بدراسة دفاعه عن عقيدة السلف في رسالة جامعية، زعم فيها أن الدارمي لم تتعثر قدمه في اقتفاء أثر سلفه الصالح^(٣).

ولرير محمد بن خليفة التميمي بأساً بأن يعد كتاب العرش لمحمد بن عثمان بن أبي شيبة^(٤) من مصادر العقيدة السلفية أيضاً، ونال شهادة الدكتوراه على تحقيقه لهذا الكتاب، وشهد له والمؤلفه بالسلفية^(٥).

ولم يأنف بعضهم من تحقيق كتاب أحد المتهمين بالوضع وحك الكتب، وهو أبو عبد الله بن بطة العكبري^(٦)، الذي ألف كتابه الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، ونال رضا نعتان معطي شهادة الماجستير على تحقيقه. وقال: «كتاب الإبانة لابن بطة يعد أكبر موسوعة في نعتية السلفية. هذا الكتاب يمثل مذهب الإمام أحمد بن حنبل!»^(٧) اهـ.

(١) انظر مقدمة الكتاب بتحقيقه: (١ / ١٤).

(٢) انظر مقدمة الكتاب بتحقيقه: (٩-١٠)

(٣) انظر مقدمة رسالته الموسومة «عثمان بن سعيد الدارمي ودفاعه عن عقيدة السلف» من رسائل جامعة أم القرى: (١٤٠٣).

(٤) سبق الكلام عنه وأنه متهم بالكذب عند كثير من أئمة الحديث.

(٥) انظر مقدمة رسالته «محمد بن عثمان بن أبي شيبة وكتابه العرش»، ص: (٧، ٢٢١)، وقد نال به شهادة الماجستير من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(٦) قال الذهبي في المغني في الضعفاء (٢/٤١٧): عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري، إمام، لكنه لئن صاحب أوهام، مات سنة ٣٨٧هـ. اهـ. قلت: وانظر ترجمته في السير وتاريخ الإسلام للذهبي، وتاريخ دمشق لابن عساكر، لتعرف كيف كان يحك الكتب، ويدعي كذباً أنه سمع من بعض الشيوخ .. والعجب من الحافظ الذهبي، كيف يصف من هذا حاله بأنه إمام، مع جرحه فيه بنسبة اللين والأوهام إليه !!

(٧) انظر مقدمة الكتاب بتحقيقه: (١/٦-٧).

فهذا المحقق يزعم أن ما اعتبره أئمة الحنابلة عاراً محسوباً على المذهب لا يعدو أن يكون مجرد هفوات. فهل يُعد من الهفوات إثبات الأضراس واللهوات، وإثبات الفراش والحجر في الصفات؟! ومن العجيب كذلك أن المحقق شهد للمؤلف باتباع الإمام أحمد ومذهب أهل السنة، وأخذ عليه نفى التجسيم، وعدّه من القليل الذي وافق فيه المتكلمين من نفى أو إثبات أو تفويض، مما يخالف بزعمه كتاب الله وسنة رسوله^(١).

وقد اعتنى القوم بدراسة منهج أبي يعلى: فنال الطالب فهد بن موسى الفائز شهادة الماجستير في رسالته: «منهج القاضي أبي يعلى في أصول الدين»^(٢). ونال الطالب سعود بن عبد العزيز الخلف شهادة الماجستير بتقدير ممتاز، في رسالة شهد فيها لأبي يعلى باتباع منهج سلف في إبطال التأويلات^(٣). وقد بذل وسعه في دفع صولة أئمة الحنابلة على أبي يعلى: شيخه ابن حامد وما لطّخا به المذهب، فزعم أنهما في ذلك اتبعا السنة واقتفيا الأثر^(٤). زعم عبد علي ابن العربي أنه نسب إلى أبي يعلى أنه قال القول المشهور في الفرج واللحية، وزعم أن أبا يعلى بريء منه. مع أن كتاب أبي يعلى الذي شهد له المحقق فيه باتباع منهج السلف ثبت لله عز وجل الفخذ والأضراس واللهوات والإيهام والخنصر والرجل والوجه واليدين ونساق الصدر والحقّ والذراعين وغيرها مما سموه بالصفات. ونال الطالب سعود الخلف كذلك شهادة الماجستير، في رسالته التي أعدها تحت عنوان «القاضي أبو يعلى وكتابه مسائل الإيمان»^(٥).

وأكثر القوم من الثناء على هذه المؤلفات، وعدّها من مصادر العقيدة السلفية، ولم أقف على خلاف بينهم في ذلك^(٦).

(١) المصدر السابق: (١/٢٥).

(٢) من رسائل جامعة الإمام محمد بن سعود سنة ١٤١٢هـ.

(٣) انظر القاضي أبو يعلى وكتابه مسائل الإيمان: (٦٧).

(٤) القاضي أبو يعلى وكتابه مسائل الإيمان: (١١٤).

(٥) رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤٠٦هـ.

(٦) انظر فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء: (٣/١٢٤)، جواب أهل السنة لعبد الله بن محمد بن عبد =

ويقول الشيخ ابن باز: «فالأشاعرة وأشباههم لا يدخلون في أهل السنة في إثبات صفات، لكونهم قد خالفوهم في ذلك وسلكوا غير منهجهم. كما أنه لا مانع أن يقال: إن الأشاعرة ليسوا من أهل السنة في باب الأسماء والصفات، وإن كانوا منهم في الأبواب الأخرى!»^(١) اهـ.

وسياقي الكلام إن شاء الله عن تفصيل مذهب أهل السنة في العمل بالتفويض وتأويل، وإقامة الأدلة على صحة هذين المسلكين وصحة نسبتها إلى السلف، وبراءة الفكر سليم والسلف الصالح من المسلك الذي اختاره المجسمة أدعياء السلفية.

وهذا يعني أن القوم ما نقموا منهم إلا أنهم لم يُثبتوا الصفات بالظن، ولم يتبعوا ما تشبه، بل حملوه على محكم التنزيه، وعلى ما يصح حمله عليه في لغة العرب وأساليبها، أو تسكوا بتفويض العلم بالمراد إلى الله عز وجل، ولم يتصرفوا فيه بزيادة أو تغيير أو تأويل. فهل يستحق من اختار هذين المسلكين هذه الحملة الشرسة وما يترتب عليها من أحكام جائرة؟.

هذه الحملة التي شارك فيها ابن تيمية ساعده الله بوصفٍ خرج فيه عن جادة العلم، فقال: «فالمعتزلة في الصفات مخانيث الجهمية. وأما الكَلَّابِيَّةُ فيثبتون الصفات في الجملة، وكذلك الأشعريون، ولكنهم كما قال الشيخ أبو إسماعيل الأنصاري: الجهمية الإناث، وهم مخنيث المعتزلة!»^(٢) اهـ.

وقال أيضاً: «ومن رزقه الله معرفة ما جاءت به الرسل وبصراً نافذاً وعرف حقيقة مأخذ هؤلاء، علم قطعاً أنهم يلحدون في أسائهم وآياته، وأنهم كذبوا بالرسل وبالكتاب وبما رُسل به رسله! ولهذا كانوا يقولون إن البدع مشتقة من الكفر وآيلة إليه، ويقولون إن المعتزلة مخنيث الفلاسفة، والأشعرية مخانيث المعتزلة. وكان يحيى بن عمار يقول: المعتزلة الجهمية نذكور، والأشعرية الجهمية الإناث، ومرادهم الأشعرية الذين ينفون الصفات الخبرية. وأما مَنْ قال منهم بكتاب الإبانة^(٣) الذي صنّفه الأشعري في آخر عمره، ولم يُظهر مقالة تناقض

(١) تنبيهات في الرد على من تأول الصفات: (٤٢)، وانظر نحوه في وسطية أهل السنة بين الفرق للدكتور محمد باكريم محمد: (٢٩٨).

(٢) الحسنة والسيئة، ضمن مجموع الفتاوى: (٣٤٨/١٤).

(٣) هناك علامات استفهام كثيرة على كتابة الإبانة، وقد طعن عدد من المحققين في صحة نسبة الإبانة الموجودة =

ذلك فهذا يعد من أهل السنة. لكن مجرد الانتساب إلى الأشعري بدعة، لا سيما وأنه بذلك
يوهم حسناً بكل من انتسب هذه النسبة، ويفتح بذلك أبواب شر»^(١) اهـ.

ويقول ابن القيم في قصيدته النونية:

«ليسوا مخانث الوجود فلا إلى الـ الكفران ينحازوا ولا الإيـمان»^(٢)

وقال أيضاً: « في كسر الطاغوت الذي نفوا به صفات ذي الملكوت والجبروت:

أهون بهذا الطاغوت لا عز اسمه	طاغوت ذي التعطيل والكفر -
كم من أسير بل جريح بل قتيل	تحت ذا الطاغوت في الأزم -
وترى الجبان يكاد يخلع قلبه	من لفظه ببال كل جبر -
وترى المخنث حين يقرع سمعه	<u>تبدو عليه شمائل النسور -</u>
ويظل منكوحاً لكل معطل	ولكل زنديق أخى كفران ^١ -

ويقول أيضاً: «بل الذي بين أهل الحديث والجهمية من الحرب أعظم مما بين عسكر الكفر وعسكر الإسلام»^(٤) اهـ.

ومن ذلك ما نشره المعاصرون تحت عنوان نونية القحطاني، لأبي محمد عبد الله بن محمد القحطاني الأندلسي (٣٨٧هـ) بتحقيق محمد بن أحمد سيد أحمد، هذه النونية التي يعتني بعض المبتدئين بحفظها، وتجد نسخاً منها عند أبواب معظم المساجد!

ومن أبيات هذه النونية:

= الآن كاملة إلى الإمام الأشعري رحمه الله. وانظر «أهل السنة الأمّاعة، شهادة علماء الأمة وأدلتهم» لمُحدّ السنّان وفوزي العنّجري. و«الإبّانة» تحقيق د. فوقيّة حسين، و«نظرة علميّة في نسبة كتاب الإبّانة جميعه إلى الإمام أبي الحسن» للمُشيخ وهبي غاوجي الألباني.

(١) الحسنة والسيئة، ضمن مجموع الفتاوى: (٦/٣٥٩) وانظر أيضاً: (٨/٢٢٧) و(٢/١١٤).

(٢) شرح قصيدة ابن القيم: (٢/٢٠٣).

(٣) شرح قصيدة ابن القيم: (٣٢٠ / ٢)

(٤) اجتماع الجيوش الإسلامية: (١٥٤) وانظر الصواعق المرسلة: (١٣٣٣/٤).

«والآن أهجو الأشعري وحزبه وأذيع ما كنتموا من البهتان
عظمت السبع السموات العلا والعرش أخليت من الرحمن
لأقطعن بمعولي أعراضكم مادام يصحب مهجتي جثماني
ولأكتبن إلى البلاد بسبكم فيسير سير البزل بالركبان
يا أشعرية يا أسافلة الوري يا عمي يا صم بلا آذان
إني لأبغضكم وأبغض حزبكم بغضاً أقل قليله أضغاني
لو كنت أعمى المقتلين لسرني كيلا يرى إنسانكم إنساني
قد عشت مسروراً ومت مخفراً ولقيت ربي سري ورعاني
لم أدر عملاً لربي صالحاً لكن بإسخطي لكم أرضاني»^(١)

ولم يشفع الانتساب إلى المحدثين ولا الانتساب إلى الحنابلة في منع تطاول القوم على
مثل الحافظ البيهقي^(٢) والحافظ ابن الجوزي^(٣) والحافظ النووي^(٤) والحافظ ابن حجر^(٥).

(١) انظر نونية القحطاني: (٥٤-٥٥)، وانظر رمي الأشاعرة بالبدعة في معتقد أهل السنة للدكتور محمد بن
خليفة التميمي: (٥٤-٥٥)، وموقف أهل السنة من أهل البدع للدكتور إبراهيم بن عامر الرحيلي:
(١٥٤/١). وقد جعل الدكتور غالب بن علي العواجي الإمام الأشعري في الدرجة الثالثة من درجات
الجهمية في كتابه فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام: (٩٨٩/٢). وعد رضاء الله المباركفوري الأشاعرة
والماتريدية من الحركات الهدامة والفتن في مقدمة تحقيقه كتاب العظمة: (٨٣/١).

(٢) انظر مقدمة رسالة أحمد بن علي الغامدي، وعنوانها: «البيهقي وموقفه من الإلهيات»، وهي رسالة دكتوراه في
جامعة أم القرى ١٤٠٢هـ.

(٣) وقد خصه أحمد بن عطية الزهراني بالدراسة على طريقتهم في رسالته التي نال فيها شهادة الماجستير من
جامعة أم القرى ١٣٩٧هـ بعنوان ابن الجوزي بين التفويض والتأويل.

(٤) انظر دعوة التوحيد للدكتور محمد خليل هراس: (٢٢٤)، وفتاوى اللجنة الدائمة: (١٦٣/٣).

(٥) انظر نيل عبد الله بن إبراهيم آل حمد من الحافظ ابن حجر، في تحقيقه لكتاب «توفيق الرحمن» لفصيل بن عبد
العزيز آل مبارك (٢/ ٢٢٠)، وقد رماه بمخالفة أهل السنة واتباع أهل البدع من الأشاعرة. وانظر نحوه في
منهج الحافظ ابن حجر في العقيدة لمحمد إسحاق كندو (١٣١)، وغمره بأنه كان ذا عقيدة يشوبها التمشعر.

وقد ذكر شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، أن عقيدته -أي الأشعري- اجتمع سبب الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة، ووافقه على ذلك من أهل عصره شيخ -نكية في زمانه أبو عمرو بن الحاجب وشيخ الحنفية جمال الدين الحصري. ونقل الحافظ -عساكر- كلام الشيخ أبي عبد الله محمد ابن موسى بن عمار الكلاعي المأيرقي، وهو من -المالكية في هذا الفصل، فاستوعب فيه أهل السنة من المالكية والشافعية وأكثر الحنفية، -عن أبي الحسن الأشعري يتكلمون وبحجته يحتجون.

قال المأيرقي: ولم يكن أبو الحسن أول متكلم بلسان أهل السنة، إنما جرى على سنن -سنة- وعلى نصرة مذهب معروف، فراد المذهب حجة وبياناً، ولم يبتدع مقالة اخترعها ولا -حجاً انفرد به. ألا ترى أن مذهب أهل المدينة نُسب إلى مالك، ومن كان على مذهب أهل -سنة- يقال له مالكي؟ ومالك إنما جرى على سنن من كان قبله وكان كثير الاتباع لهم، إلا أنه -رد المذهب بياناً وبسطاً عزي إليه. كذلك أبو الحسن الأشعري ولا فرق، ليس له في -حسب السلف أكثر من بسطه وشرحه وتواليفه في نصرته^(١) اهـ.

وقال التاج السبكي أيضاً: «ذَكَرُ بَيَانُ أَنَّ طَرِيقَةَ الشَّيْخِ هِيَ الَّتِي عَلَيْهَا الْمُعْتَبَرُونَ مِنْ عِوَاءِ الْإِسْلَامِ وَالْمُتَمَيِّزُونَ مِنَ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ فِي مَعْرِفَةِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْقَائِمُونَ بِنَصْرَةِ نَبِيِّنَا سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ».

قد قدمنا في تضاعيف الكلام ما يدل على ذلك، وحكي لنا لك مقالة الشيخ ابن عبد السلام ومن سبقه إلى مثلها وتلاه على قولها، حيث ذكروا أن الشافعية والمالكية والحنفية -فضلاء الحنابلة أشعريون، هذه عبارة ابن عبد السلام شيخ الشافعية وابن الحاجب شيخ -نكية والحصري شيخ الحنفية.

ومن كلام ابن عساكر حافظ هذه الأمة الثقة الثبت: هل من الفقهاء الحنفية والمالكية -شافعية إلا موافق للأشعري ومتسبب إليه وراض بحميد سعيه في دين الله ومثني بكثرة نعم عليه، غير شذمة قليلة تضرر التشبيه وتعادى كل موحد يعتقد التزيه، أو تضاهى قول

المعتزلة في ذمّة وتبأهـي بإظهار جهرها بقدرة سعة علمه. قلت [التاج السبكي]: أنا أعلمُ المالكية كلهم أشاعرة لا أستثنى أحداً، والشافعية غالبهم أشاعرة لا أستثنى إلا من لحق منهم بتجسيم أو اعتزال ممن لا يعبأ الله به، والحنفية أكثرهم أشاعرة، أعني يعتقدون عند الأشعري، لا يخرج منهم إلا من لحق منهم بالمعتزلة، والحنابلة أكثر فضلاء متقدميهـ أشاعرة، لم يخرج منهم عن عقيدة الأشعري إلا من لحق بأهل التجسيم، وهم في هذه الفرقة من الحنابلة أكثر من غيرهم»^(١) اهـ.

ولست أرى بعد ذلك وجهاً للسكوت عن وصف الله عز وجل بشيء مما سبق. مع التغير بنسبته إلى السلف، ولا أرى وجهاً كذلك يبرر السكوت على التطاول على أكابر عـ المسلمين من الأشاعرة والماتريدية ورميهم بالبدعة ومخالفة السلف، خاصة في هذا العصر الذي علا فيه الزبد واستُحسِنَتْ فيه المسايرة وإيثار السلامة، وطُمِعَ فيه بالوظيفة، وـ بمجاملة من خاض في المتشابه وتطاول على الأكابر.

وما أعجب التذرع بكراهة إيقاظ الفتن، مع نشر هذه المصنفات وانتشار التطاول عـ جمهور أهل السنة وأكابرها على مر العصور. فإن كان بيان ما في هذه المصنفات من الخـ في المتشابه إيقاظاً، فهو إيقاظ لمن غطوا في سبات الفتنة والله المستعان^(٢).

(١) طبقات الشافعية الكبرى: (٣/ ٣٧١-٣٧٧)، وانظر كلام الحافظ ابن عساكر في تبين كذب نـ (١١٨-١٢٢) و(٣٣٢ و٣٦٢).

(٢) التجسيم وأثره في الفكر الإسلامي، د. صهيب السقار - رسالة دكتوراه، جامعة بغداد.

الباب الثالث

قول الفريقين في قضية الصفات الخيرية

- أم إثبات معانٍ محدّدةٍ مقطوعٍ بها، تُستفاد من حقيقتها اللغوية، مع إثبات كيفية غير معلومة؟

واختلفوا كذلك:

- هل هذه الألفاظ تدل بظاهرها وحقيقتها اللغوية على صفات تصح نسبتها قطعاً إلى الباري جل وعز؟

- أم أنها وردت في النصوص لأغراض أخرى، وربما دلت على صفات في بعض النصوص لا في جميعها؟

وإن كانت تدل بظواهرها وحقيقتها اللغوية على صفات:

- فهل تَثَبَّتْ لوازِمها في حقّه تعالى، من التواجد في الأماكن والامتداد أو الانحصار في الجهات والتحيز، والاتصاف ببعض صفات الأجسام من الحركة والصعود والنزول وحلول الحوادث في ذاته سبحانه؟

- أم أنها تدل على معانٍ أخرى يصح أن تكون صفات للباري، بعيدة عن التجسيم والتشبيه؟
واختلفوا كذلك: على أيِّ هذه الآراء كان السلف الصالحون، من الصحابة والتابعين
وتابعيهم، عليهم رضوان الله تعالى؟

هذا هو ما تنازع فيه الفريقان، وادعى كل منهما أنه على الحق، وقام بِعَزْوِ قوله إلى السلف الصالحين، وزعم أنه على مذهبهم فيه.

ولننظر في أقوال الفريقين وموافقهما من هذه النصوص، ثم ننقل ما صح فيه عن السلف الصالحين، ثم نُلحق بهم الفريق الآخر بالانتساب إليهم والسائر على منهجهم.

ولكن يحسُّ بنا قبل ذلك أن نذكر فصلاً مهماً، في مدارك الإنسان وحدود تفكيره. عند التعامل مع ما يتعلق بالعالم المحيط به والعالم المغيّب عنه. ثم تتبعه بفصل آخر نقوم فيه بتعريف بعض المصطلحات الهامة التي يستخدمها الطرفان في التعبير عن عقيدتهما، حتى نفهم الدلالات المباشرة لتلك المصطلحات، وما تتضمنه، وما يلزم عنها من المعاني، وإلى أي مدى يمكن الاعتماد عليها والوثوق بها.

الفصل الأول

العقل البشري أسير الحواس وعالم المشاهدة

الحواس وحدودها:

في داخل الإنسان قوة إدراكية كبيرة، ولكن مُدركاتها لا تنبع من داخلها، وإنما تأتيها من العالم الخارجي عنها، عبر منافذ خاصة هي الحواس الخمس. فبمقدار ما تنقل هذه حواس من حقائق للقوة الإدراكية في الإنسان، تستطيع هذه القوة أن تتخيل وتذكر، وتحلل وتركب، وتستنتج القواعد العامة، وتقيس الأشياء والنظائر على بعضها، ولا تستطيع شيئاً غير ذلك.

فالذين يولدون فاقدَي الأبصار مثلاً، مهما أوتوا من الذكاء لا يستطيعون أن يتصوروا في مخيلتهم شيئاً عن الألوان مهما حاولنا أن نقرب لهم ذلك بالتشبيه والتمثيل، حيث لم يسبق ضم أن اتصلوا بإدراك حقيقة أي لون من الألوان عن طريق البصر. ولعلنا لو مُنحنا بعض حواس أخرى لكننا اكتشفنا من حولنا أشياء كثيرة هي مغيبة الآن عنا، لأننا لا نحس بها ولا ندركها رغم وجودها المؤكّد، حيث لا توجد لدينا الحاسة الخاصة التي نتمكن بواسطتها أن نكتشفها وندركها.

والدليل على هذا الكلام: تلك الأجهزة التي تقيس بدقة درجات الحرارة، ودرجات نضغوط الجوية، ومقادير الكثافة، إلى غير ذلك من أجهزة مختلفة، مما يشير إلى نقص كبير في حواسنا المركّبة فيها. وقد كان من الممكن أن يزودنا الله تعالى بالحواس التي ندرك بها ما تتحسسه هذه الأجهزة وتدل عليه. وحواسنا -التي هي منافذنا للعالم الخارجي- قصيرة مدًى ومحدودة كمّاً وكيفاً.

فالفضاء مملوء بالصور التي لا نستطيع أن نلتقطها بأبصارنا، في حين تلتقطها

الصحون اللاقطة مثلاً، ومملوء بالأصوات التي لا نسمعها، في حين أن الهواتف والمذّابيع^(١) تنقلها بدقة متناهية ووضوح شديد، وذلك لأن الانسجام والتوافق بين وضع هذه الأصوات والصور ووضع أسماعنا وأبصارنا غير متوفر. والعالم مليء بأجسام أصغر من أن تُرى أو أبعد من أن تُشاهد، وأصواتٍ أخفّت من أن تُسمع أو أبعد من أن يلتقطها سمعنا.

بل إن بعض الكائنات الحية تستطيع التقاط الإشارات الصوتية أو الضوئية الموجودة في العالم، في حين أننا لا نستطيع ذلك، وربما نكون موجودين في نفس المكان الذي التقط فيه هذا الكائن تلك الإشارة. فالوطواط مثلاً يدرك بسمعه ما لا ندركه نحن من الموجات الصوتية. والأصوات التي تسبق انفجار البراكين والموجات التي تتقدم الزلازل تشعر به الحيوانات وتلتقطها حواسها بوضوح شديد، والنباتات تدرك بعض مكونات الأشعة الضوئية، إلى غير ذلك الكثير والكثير.

فالادعاء بأن هذه الأشياء غير موجودة بحجة أننا لم نحس بها أمر ترفضه العترة السليمة والفطرة المستقيمة رفضاً باتاً، لأننا نعلم من ألوف التجارب اليومية أن حواس محدودة كمّاً وكيفاً.

الخيال وحدوده:

وقوة الخيال قوة عجيبة منحها الخالق جل وعلا للإنسان. ومع ذلك فهي مقيدة أيضاً بقيود الحواس. فمهما حاولنا أن نتخيل صورة ما من الصور، ومهما سَبَحْنَا فيها مع الأوهام الخرافية، فإننا لا نستطيع أن نفعل أكثر من أن نضم أجزاء موجودة فعلاً في الكون ببعضه. بعض، وهذه الأجزاء قد أدركناها عن طريق حواسنا، ولكننا بهذا التخيل ضممنا هذه الأجزاء الموجودة في الواقع بشكل متباعد، فتخيلناها على شكل وحدة متماسكة في صورة واحدة.

ولتجاوز أن نتخيل بنفسك أغرب شكل يمكن أن ينجح له خيالك، أو أن نتحد

(١) مذابيع ومذابيع: جمع مَذْيَاع، وهو في الأصل الرجل الذي يفشي الأسرار ولا يطبق كتابها، ويُطلق على التعريب اسم جهاز الراديو.

يقول الإمام فخر الدين الرازي: «من أراد أن يَشْرَعَ في الإلهيات فليستحدث لنفسه بضرة أخرى. فالإنسان إذا تأمل في أحوال الأجرام السفلية والعلوية، وتأمل في صفاتها، فذلك له قانون. وإذا أراد أن ينتقل منها إلى معرفة الربوبية؛ وجب أن يستحدث له فطرة أخرى وعقلاً آخر بخلاف العقل الذي اهتدى به إلى معرفة الجسمانيات»^(١) اهـ.

يشير بذلك رحمه الله تعالى إلى أن قياس الخالق على المخلوق خطأ فادح يقع فيه من حاول ذلك، لأن الحكم على العالم من حولنا له قانون، والحكم على ما يتعلق بذات الله تعالى وصفاته يخضع لقانون آخر، وذلك لأن ما يتعلق بالله تعالى وصفاته لا يخضع لإدراكنا لمحدود. بل غاية ما نستطيع التفكير فيه: هو ملاحظة العلامات والأمارات الدالة على وجوده سبحانه، واتصافه بصفات الكمال، وتَنَزُّيه عن صفات النقص، ومشابهة المخلوقين.

يقول إمام الحرمين في الكلام عمَّن يشبهون الله تعالى بخلقه: «إنهم يطلبون ربهم في محسوسات، وما يتشكل في الأوهام، ويتقدَّر في مجاري الوسواس وخواطر الهواجس، وهذا حَيْدٌ بالكلية عن صفاته الإلهية. فأَي فرق بين هؤلاء وبين من يعبد بعض الأجرام العلوية؟!»^(٢) اهـ.

فَهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَتَخِيلُوا رَبًّا يَتَصِفُ بِصِفَاتٍ تَخْتَلِفُ عَنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ الَّتِي دَرَكُوا بِحَوَاسِهِمْ، فَصَوَّرَتْ لَهُمْ عَقُولُهُمْ أَنَّ رَبَّهُمْ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَصِفًا بِأَعْظَمِ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ الصِّفَاتِ، فَاتَّجَهُوا بِالْعِبَادَةِ إِلَى الْأَجْرَامِ الْعُلَوِيَّةِ - مِنْ شَمْسٍ وَقَمَرٍ وَكَوَاكِبٍ -، لِعِظَمَةِ مُتَقَدِّيرِهَا وَأَحْجَامِهَا.

ثم يقول رحمه الله تعالى: «إنه لو اجتمع الأولون والآخرون على أن يدركوا الروح - وهي خلق الله تعالى - بهذا المسلك لَمْ يَجِدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، فَإِنَّهُ مَعْقُولٌ غَيْرُ مُحْسُوسٍ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [نساء: ٨٥]»^(٣) اهـ.

(١) أساس التقديس للفخر الرازي: (١٣-١٤) وما بعدهما.

(٢) النظامية لإمام الحرمين، بتحقيق الكوثري: (١٥).

(٣) النظامية لإمام الحرمين، بتحقيق زاهد الكوثري: (١٥).

فيصبح لزماً على العقل حيثُ أن يقاوم تلك العادة الباطنة في أعماق الذات، وأن يحاول الاعتلاء عليها، والارتقاء فوقها، إذا ابتغى معرفة الإلهيات^(١).

(١) موقف السلف من التشابهات، د. محمد عبد الفضيل القوصي: (١١).

الفصل الثاني

تعريف بعض المصطلحات وما يستلزمه معنى كل منها

المعنى في اللغة: هو المقصود من اللفظ، أي ما يدل عليه.

قال الجوهري: «عَنِيْتُ بالقول كذا، أي أردت وقصدت. ومعنى الكلام وَمَعْنَاهُ واحد، تقول: عرفتُ ذلك في مَعْنَى كلامه وفي مَعْنَاةِ كلامه، وفي مَعْنَى كلامه، أي فحواه»^(١) اهـ.

والحقيقة: هي استعمال اللفظ فيما وضع له، وهو خاص بالحقيقة اللغوية.

وأما حد الحقيقة نفسها. فقد قال ابن منظور في اللسان: «الحقيقة: ما يصير حق الأمر ووجوبه، وبلغَ حقيقة الأمر أي يقين شأنه،...، والحقيقة في اللغة: ما أُفِّرَ في الاستعمال على أصل وَضْعِهِ»^(٢) اهـ.

هذا تعريف أحد أئمة اللغويين، وأما أئمة أصول الفقه.

فقال الإمام الخطَّاب في شرحه على الورقات: «يَنَقَسِمُ الكلام أيضاً إلى حقيقة ومجاز، فالحقيقة في اللغة: ما يجب حفظه وحمايته، وفي الاصطلاح: ما بقي في الاستعمال على موضوعه، أي على معناه الذي وُضِعَ له في اللغة. وقيل: ما اسْتُعْمِلَ فيما اصْطُلِحَ عليه من المُخَاطَبَةِ التي وقع التخاطب بها، وإن لم يبق على موضوعه الذي وضع له في اللغة، كالصلاة المستعملة في لسان أهل الشرع للهيئة المخصوصة، فإنه لم يبقَ على موضوعه اللُّغوي وهو الدعاء بخير، وكذلك الدَّابَّةُ الموضوعية في العرف لذوات الأربع كالجمال، فإنه لم يبقَ على موضوعه اللُّغوي وهو كل ما يدب على الأرض»^(٣) اهـ.

(١) الصحاح في اللغة للجوهري (٢/٢).

(٢) لسان العرب لابن منظور: (٩٢٤).

(٣) قرّة العين بشرح ورقات إمام الحرمين للحطاب: (١٩).

أي أن الحقيقة هي استعمال اللفظ لمعنى واحد، سواء كان موضوعاً له في الأصل. نقل إلى غيره لكنه ثبت في ذلك الغير فأصبح حقيقة فيه، بحيث لا يفهم السامع إلا أحد المعنى منه عند إطلاقه.

وفي تعريف المجاز:

يقول إمام اللغويين عبد القاهر الجرجاني: «وأما المجاز: فكل كلمة أريدَ بها غيرُ ما وقعت له في وضع واضعها، لملاحظة بين الثاني والأول»^(١) اهـ.

ويضرب الشريف الجرجاني مثالا للمجاز بقوله: «المجاز اسم لما أُريدَ به غيرُ ما وُضع له، لمناسبة بينهما، كتسمية الشجاع أسداً»^(٢) اهـ.

لفظ الأسد إذا قصد به التكلم ذلك الحيوان المفترس المعروف فهو على حقيقته، لأن اللفظ هنا مستعمل فيما وُضع له، وإذا قصد به التكلم ذلك الإنسان الشجاع، فهو في تلك الحالة مجاز، لأن اللفظ هنا مستعمل في غير ما وُضع له، لوجود علاقة أو قرينة هي مشبة الرجل للأسد في شجاعته أو قوة بأسه وانقضاضه.

ولا بد أيضاً من إلقاء نظرة على تعريف المجاز عند علماء أصول الفقه. وتكمن أهمية رأيهم في أن قواعد الأصول هي القواعد التي يتعامل بها المجتهد مع النصوص في القرآن والسنة وغيرهما من الأدلة الشرعية، وهم أدركوا الناس بها، وقد سلّمت لهم جماهير علماء الأمة قاطبة واعترفت بتقديم رأيهم وفهمهم للنصوص على رأي غيرهم في هذا المجال ومحل النزاع الذي ناقشه في هذا الكتاب هو دلالات ألفاظ وردت في الكتاب والسنة يدعي كل فريق من المختلفين أنه صاحب الرأي الحق والمنهج الصائب في فهمها وتفسيرها.

قال الإمام القرافي: «المجاز: استعمال اللفظ في غير ما وُضع له في العرف الذي وقع فيه التخاطب، لعلاقة بينهما»^(٣) اهـ.

(١) أسرار البلاغة لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني: (٣٠٤).

(٢) التعريفات للشريف أبي الحسن علي الجرجاني: (٢٥٧).

(٣) شرح تفهيم الفصول للقرافي: (٤٢).

فقوله: « في غير ما وُضع له في العرف الذي وقع به التخاطب»، هو نفسه المراد بقول عبد القاهر الجرجاني: «غير ما وقعت له في وضع واضعها»، وقوله: «لعلاقة» أو «لقرينة» هو المراد بقول الجرجاني: «لملاحظة بين الأول والثاني».

وقال الإمام المحلي في شرحه على الورقات: «والمجاز ما يُجوز أي تُعدِّي به عن موضوعه، وهو ما استعمل في غير ما اصطُح عليه من المخاطبة»^(١) اهـ. فهو بذلك عكس الحقيقة في الاستعمال.

وأما الكيفية:

فقال أبو البقاء: «الكيفية منسوبة إلى كيف، وهي معرفة الحال، لأن كيف سؤال عن حال. وكيف: كلمة مدلولها استفهام عن عموم الأحوال التي شأنها أن تُدرك بالحواس»^(٢) اهـ.

فالكيف: هيئة تعرض وتزول، وهي مُدركة بالحواس. ولا شك أن ما يعرض ويزول لا يتصف به المولى جل وعلا، وكذا ما يُدرك بالحواس، فهو سبحانه وتعالى أَجَلُّ من أن تدركه حواسنا.

لأن الذي ندركه بحواسنا:

- هو ما يُشَمُّ، لأن له ريحا نابعا من جسمه، يوصف بأنه طيب أو خبيث أو عفونة أو نُؤنة أو عبير أو نسيم، سواء كان الجسم حيا أو جمادا.
- أو يُسَمَع، لأنه صوت يوصف بكونه عاليا أو منخفضا أو حادا أو رخيا.
- أو يُلَمَس، ويتصف بالنعومة أو الخشونة أو اليُسِّ أو الرطوبة أو السخونة أو البرودة أو الصلابة أو الميوعة أو غيرها مما يدرك باللمس.

(١) شرح الورقات لجلال الدين المحلي: (٤١-٤٢).

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي: (٦١٤).

- أو يُرى بالعين، فيُقَدَّر ويوصف بحجم كبير أو صغير أو طويل أو قصير أو دائري أو مربع أو متوازي أو مفرَّغ أو مُصَمَّت أو واسع أو ضيق أو مفلطح أو مكنتر.

- أو يذاق، وله طَعْمٌ يوصف بأنه حلو أو مُر أو عذب أو ملح.

ولا شك أن المولى تبارك وتعالى ليس شيئاً من ذلك.

ويتضح من ذلك: أن الكيفية من لوازم الحقيقة اللغوية ومعناها الحسي، وهي عبـ
عن الحال والوصف المحسوس لصورة الموصوف.

وعلى ذلك:

فمعنى لفظ اليد على الحقيقة: هو الجارحة المُرَكَّبَةُ من كف وأصابع ولحم ودم وعظ وأعصاب وعروق ومفاصل إذا أضيفت إلى الإنسان، أو الآلة التي يتمكن الإنسان بواسطتها من القيام بفعل ما إذا أضيفت إلى جماد كالباب مثلاً. فهي على كل الأحوال جزءٌ من المركب الذي تضاف إليه، هذه هي الحقيقة اللغوية للفظ اليد ولا حقيقة غيرها عند العرب.

وحقيقة لفظ الفوقية: هي الجهة المقابلة للتحتية، لا تعرف العرب حقيقة للفظ الفوق إلا هذا.

وحقيقة النزول: هي الانتقال والحركة والهبوط من أعلى إلى أسفل. فإثبات النزول -
على الحقيقة يعني أن الله تعالى يتحرك هابطاً من فوق العرش، مخترقاً السماوات الست ليستقر
في السماء الدنيا، مما يستلزم أن الله ذو حجم وله طول وعرض وسُمْك كخلقه وتحويه السماء.
وقس على ذلك بقية النصوص. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وأما التفويض:

قال ابن منظور: «فوض إليه الأمر: صَيَّرَهُ إِلَيْهِ وجعله الحاكم فيه، وفي حديث الدعاء: «فوضت أمري إليك» أي رددته إليك»^(١) اهـ.

(۱) لسان العرب لابن منظور: (۳۴۸۵).

فالتفويض ليس نفيًا ولا تعطيلًا، بل هو تَصْيِيرُ الأمر إلى من يعلمه، فنحن نفوض سر ديننا الاجتهادية إلى العلماء: بمعنى أننا نجعلهم المرجع في بيان أحكام هذه الأمور. وكذلك تفويض معاني الصفات: هو إثباتُ لمعنى الصفة على مراد الله، فليس نفيًا للصفة ولا تعطيلًا لها عن المعنى الذي أراده الله.

مشكلة المجسمة مع هذه المصطلحات:

ومشكلة المجسمة: أنهم قالوا نثبت معاني الألفاظ على حقيقتها، وننسبها لله سبحانه وتعالى. فزادوا على ما يقوله السلف ألفاظًا كثيرة: منها (الحقيقة)، و(بذاته) و(بنفسه) كما قال بعضهم، مما يستلزم الجسمية في حقه تعالى، وهو سبحانه مُتَزَّهٌ عن ذلك كله من سمات مُحَدَّثَات.

وهذه الزيادة تنقض دعواهم اتباع السلف واقتصارهم على ما ورد عنهم في الكلام عن النصوص المتشابهة.

ثم يتناقضون مع أنفسهم ويقولون: لكننا نفوض الكيفية إلى الله تعالى! فَيَكْذِبُ ليس كأدينا ووجهه ليس كوجوهنا وقدماء ليستا كأقدامنا، إلى آخر هذا الكلام المتناقض. فهم ينفون التمثيل -أي التماثل التام-، لا التشبيه. علما بأن أي مخلوقين لا يتماثلان تمامًا، بل يتشابهان في بعض الصفات، فأَيُّ تَنْزِيهٍِ للمولى حينئذٍ بنفي التمثيل دون التشبيه؟ وقس على ذلك كل النصوص الواردة في هذا الباب.

ثم زعموا أن مذهبهم هو مذهب الصحابة والتابعين وتابعيهم والإمام أحمد على الأخص، وسنكشف زيف ذلك إن شاء الله تعالى، وسوف نوضح أن التفويض والتأويل مذهبان مقبولان مَرْضِيَّان منقولان عن أكابر السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أكابر علماء أهل السنة.

وها هو النص الكامل لكلام ابن الجوزي رحمه الله تعالى في نقض كلامهم وطريقتهم وتكذيب ادعائهم على مذهب السلف والإمام أحمد بن حنبل، وقد نقلنا أجزاء منه قبل ذلك بحسب المقام.

فصل الثاني: تعريف بعض المصطلحات وما يستلزمه معنى كل منها ١٧٣

بمكم الأكبر أحمد بن حنبل يقول وهو تحت السياط: «كيف أقول ما لم يُقَلْ»^(١). فإياكم أن تتدعوا في مذهبه ما ليس منه.

ثم قلتم في الأحاديث: تُحْمَلُ على ظاهرها. وظاهر القدم الجارحة، فإنه لما قيل في عيسى روح الله، اعتقدت النصارى أن الله صفةٌ هي روحٌ ولجت في مريم. ومن قال استوى له الهة المقدسة فقد أجراه مجرى الحسيات.

وينبغي ألا يُهْمَل ما يثبت به الأصل وهو العقل. فإنه به عرفنا الله تعالى وحكمنا له -تقدم.

فلو أنكم قلتم: «نقرأ الأحاديث ونسكت»، ما أنكر عليكم أحد. إنما حَكَمُ إياها على ظاهر قبيح، فلا تُدْخِلُوا في مذهب الرجل الصالح السلفي ما ليس منه، فلقد كسبتم هذا مذهب شيئاً قبيحاً، حتى لا يقال حنبلي إلا مُجَسِّم. وقد كان أبو محمد التميمي يقول في بعض نحتكم: لقد شأن المذهب شيئاً قبيحاً لا يُغْسَلُ إلى يوم القيامة!«^(٢) اهـ.

وكلام الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى لا يحتاج إلى تعليق، فهو يؤكد ما قلناه من أن تقوم مجسمة متناقضون، وأنهم رغم ادعاءاتهم باتباع السنة والسلف الصالح ومذهب الإمام حمد، فهم بعيدون كل البعد عن عقيدة أهل السنة والجماعة، وعن منهج الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى.

ثم يعدد ابن الجوزي مزالقهم التي تسببت في اتخاذهم ذلك المنحى المخالف لما عليه

١) قال الكوثري معلقاً: ولما سئل الإمام أحمد عن أحاديث النزول والرؤية ووضع القدم ونحوها، قال: «نؤمن بها ونصدق بها، ولا كيف ولا معنى»، وقال أيضاً يوم سألوه عن الاستواء: «استوى على العرش كيف شاء وكما شاء، بلا حد ولا صفة يبلغها واصف» على ما ذكره الخلائ في السنة بسنده إلى حنبل في مسائله عن عمه الإمام أحمد، وهذا تفويض وتنزيه كما هو مذهب السلف، وربما أوَّل في بعض المواضع، كما حكى حنبل عن الإمام أحمد أنه سمعه يقول: «احتجوا عليّ يوم المناظرة، فقالوا: تحيي يوم القيامة سورة البقرة وتحيي سورة تبارك. قال: فقلت لهم: إنها هو الثواب، قال الله جل ذكره: ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾ وإنما تأتي قدرته»، وقال ابن حزم الظاهري في فصله: وقد روي عن أحمد بن حنبل رحمه الله أنه قال: «وجاء ربك» إنما معناه وجاء أمر ربك» اهـ وهذا تأويل وتنزيه كما هو مذهب الخلف، وأما ما ينقل عن الإمام أحمد مما يخالف ما تقدم فهو تحريض صديق جاهل وسوء فهم لمذهب هذا الإمام.

٢) دفع شبه التشبيه لابن الجوزي بتحقيق الكوثري: (٦-٩).

- والخامس: أنهم لم يفرقوا بين حديث مرفوع إلى النبي ﷺ، وبين حديث موقوف على صحابي أو تابعي، فأثبتوا بهذا ما أثبتوا بهذا^(١).
- والسادس: أنهم تأولوا بعض الألفاظ في موضع ولم يتأولوها في آخر، كقوله: «وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً»^(٢)، قالوا: ضرب مثلاً للإنعام^(٣).
- والسابع: أنهم حملوا الأحاديث على مقتضى الحس، فقالوا: ينزل بذاته فينتقل ويتحول، ثم قلوا: لا كما نَعْقِل. فغَالَطُوا من يسمع، وكأَبْرُوا الحس والعقل، فحملوا الأحاديث على الحسيَّات.

فرايت الرد عليهم لازماً، لئلا يُنسب للإمام أحمد رحمه الله إلى ذلك، وإذا سكَّتُ جَبَّتُ إلى اعتقادي ذلك.

ولا يهولني أمر يعظم في النفوس، لأن العمل على الدليل - وخصوصاً في معرفة الحق تعالى - لا يجوز فيه التقليد. وقد سئل الإمام أحمد عن مسألة فأفتى فيها، فقليل له: هذا لا يقول به ابن المبارك، فقال: ابن المبارك لم ينزل من السماء، وقال الشافعي رحمه الله تعالى: استخرتُ مني تعالى في الرد على الإمام مالك رحمه الله^(٤) اهـ.

قاعدة جليلة للإمام ابن الجوزي:

والإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كلامه هذا، فضلاً عن كونه ذكر أسباب نحرافهم في فهم النصوص، قرر قاعدة ينبغي أن تكون أمام عيني كل باحث وصاحب رأي يتحرى الحق ويطلب اليقين.

(١) كحديث: الكرسي موضع القدمين، فقد ورد موقوفاً على ابن عباس بأسانيد متكلم فيها. وأثبتوا أن الله تعالى يجلس محمداً ﷺ بجواره على العرش يوم القيامة، من أثر مطعون فيه منسوب لمجاهد، وسيأتي كلام شيخهم الألباني عليه إن شاء الله تعالى.

(٢) متفق عليه.

(٣) وبعض المعاصرين أثبت لله صفة هي الهرولة!! انظر: «صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة»، لعلوي السقاف (١/ ٣٦٢). وعزاه إلى فتاوى اللجنة الدائمة، بتوقيع عبد العزيز بن باز وعبد الرزاق عفيفي وعبد الله بن غديان وعبد الله بن قاعد، وابن عثيمين في «الجواب المختار لهداية المختار».

(٤) دفع شبه التشبيه لابن الجوزي: (٩-١١).

وهي العمل على الدليل القطعي -خصوصا- في العقائد، وعدم الركون إلى قول فلا-
وفلان من الناس، مهما كان قدره وعلمه وموضعه عند الخلق.

فالمجسمة يهوّشون كل من يناقشهم بأسماء لها موقع في القلوب، بعد أن يلبسوا عري
الناس وينسبون هذه الشخصيات إليهم ليخوّفوا بذلك من خالفهم. وحتى لو ثبت أنهم عري
منهجهم فمّن الذي لا يخطئ من الناس، صغيرا كان أو كبيرا، عالما أو أميا.

والحقُّ. أن من كانت عنده أهلية للنظر والاستدلال فلا يجوز له أن يقلد -فلان-
علانا- في العقائد بغير معرفة دليله، لأن العقائد ترسخ وتثبت في القلوب عند وجود الاقتنع
بها والتسليم بصحتها، عن دليل قوي ثابت لا يتطرق إليه شك ولا احتمال. ومن أخذ عقيدة
عن الدليل لا يستطيع دجال أو مبتدع أن يزحزحه عنها قيد أنملة، مهما سلك من وسائل
التليس والخداع.

بخلاف العوام الذين لا يستطيعون التعامل مع الأدلة بأنفسهم لعدم تأهلهم لذلك.
فينبغي على أهل العلم تزويدهم بالأدلة الإجمالية على العقائد، حتى لا يتلاعب بهم مبتدع
ملحد.

فلو قيل لنا: إن الأئمة مالكا وأبا حنيفة والشافعي وأحمد والثوري وابن عيينة
والبخاري ومسلما، كلهم على أن الله تعالى جسم وله صورة ويتحرك ويجلس ويقوم ويقعد.
ما قبلنا منهم حرفا واحدا من ذلك. لأن الله تعالى يقول عن نفسه في كتابه العزيز: ﴿لَيْسَ
كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فلسنا نصدقهم ونكذب الله تعالى، ومن أصدق من
قيل.

فلا نترك الدليل القطعي القرآني الذي ذكره رب العزة، وننزع أولئك العلماء، ونز
كانوا أعظم علماء الأمة، ولو أصرّوا عليه وقالوا أن ذلك هو الحق. وحاشاهم عن ذنـ
رحمهم الله تعالى، بل سننقل عنهم ما يخالف عقائد المجسمة خلافا واضحا لا لبس فيه.

الفصل الثالث

قول أهل السنة الأشاعرة والماتريدية

بعد القطع بأن الله تعالى مُتَرَهَّ عن مشابهة خلقه ومماثلتهم بأي وجه من الوجوه. عملاً بمقتضى النص القرآني المُحَكَّم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وعملاً بمقتضى الدليل العقلي القطعي: أنه تعالى مخالف للحوادث^(١) في ذاته وصفاته: بفعاله.

وكلّ الدليلين ينفي أن يكون الله تعالى مشابهاً لشيء من خلقه في ذاته أو صفاته أو فعّاله بأي وجه من وجوه الشبه أو المماثلة. وكذلك لا يشبه أو هام من يتوهم فيه شيئاً، فكل ذلك مخلوق له، لا يمكن أن يكون شبيهاً أو مثيلاً له، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

بعد القطع بما ذُكر، يلتزم أهل السنة الأشاعرة والماتريدية رضي الله عنهم موقفاً من ثنين، حسب ما يقتضي المقام، مع مراعاة إثبات ما أثبتته الله تعالى لنفسه، ونفي ما نفاه عن نفسه كذلك.

الموقف الأول (التفويض):

وهو تفويض العلم بالمعنى المراد من اللفظ المُوهَم إلى الله تعالى، وعدم انتزاع هذا نلفظ من سياقه، مع نفي الكيفية من الأصل^(٢). عملاً بمقتضى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ

(١) الحوادث: جمع حادث وحادث، والحوادث كل ما سوى الله تعالى من المخلوقات. وسميت حوادث لأنها كانت معدومة ثم أحدثها الله تعالى، أي: أوجدها من العدم.

(٢) ينبغي التنبيه على أن نفي الكيفية هنا غير تفويض الكيفية الذي يقول به أدياء السلفية، وسيأتي تفصيل ذلك في محله.

أقول مرة أخرى: إن عدم إقدام السلف على التفسير ليس جهلاً بدلالات الألفاظ، ولا هو نفي لما يليق به سبحانه من معان وراء تلك الألفاظ، بل هو إجلال لقدر الله تعالى من تدخل التفسير اللغوي البشري بما هو عليه من نقص وقصور، حتى ولو قلنا بعد ذلك: «بلا كيف» ألف ألف مرة^(١)!

- ومع ذلك لم يعطلوا النصوص عن معانيها كما يزعم أدعياء السلفية، بل قالوا: إننا نهم كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ على هيئته التي ورد بها كاملاً، ولا نتزع من سياقاته شيئاً يغير معناها ويبدله، فإن هذا تحريف لكلام الله ورسوله.

وهذا السياق الكامل الذي وردت فيه هذه الألفاظ له معنى واضح مفهوم لا ننكره ولا نجعله، بل نؤمن به ونعتقه إن كان يشير إلى عقيدة، ونعمل بما فيه إن كان يشير إلى عمل.

- غاية الأمر أننا لما كثرت كلام أهل البدعة في هذه النصوص، ونزعوا تلك الألفاظ من سياقاتها، ثم أعادوا جمعها بطريقة أخرى وترتيب آخر غير الذي نزلت به من عند الله سبحانه، ووردت به على لسانه رسوله ﷺ، قلنا لهم اسكتوا كما سكت من كانوا قبلكم من الصحابة والتابعين، وأرجعوا علم ما لا تعلموه إلى الله تعالى، وقولوا كما قالوا: آمنا بما قال الله على مراد منه وما قال رسول الله ﷺ على مراد رسول الله ﷺ.

لموقف الثاني (التأويل):

هو تأويل اللفظ الموهم على وجه تحتمله اللغة، ويشير إليه سياق الكلام، ويقبله شرع، ولا يحيله البرهان العقلي القطعي. ولكن لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة، كإفحام معند، أو إفهام ضعيف في الفهم، مخافة أن يقع في مخالفة للاعتقاد الصحيح.

وهم عند تلاوة الآية السابقة في سورة آل عمران يقفون عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، ثم يتدئون القراءة من قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ

وَهَذَا الْمَوْقِفُ مُحْكِي عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مِنَ السَّلَفِ أَيْضًا، وَعَلَيْهِ كَذَلِكَ أَكْثَرُ الْخُلَافِ^(١).

مثال تطبیقی:

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال أيضا: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

وقال النبي ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ» (٢).

وقال أيضا: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصْرَفُ حَتَّى نِشَاء» (٣).

فعلى الموقف الأول:

يقولون: نؤمن بما قال الله تعالى وبما قاله رسوله ﷺ، على الوجه الذي أَرادَه سبحانه وأَرادَه رسوله ﷺ، فنَقُوض العلم بمعاني هذه الألفاظ إليه، ولا نخوض في تفسيرها مُتَرَعَّةً من سياقها، ولا نحدد لها معنىً بعينه وهي مترعة كذلك، ولا نتوهم فيها شيئاً. كما نُتَرِّد مولانا سبحانه وتعالى عن أن يكون لما وصف به نفسه أو أضافه إليه كَيْفِيَّةٌ من الكيفيات. مع القطع بأنه سبحانه لا يشبه أحداً من خلقه في ذات أو صفة أو فعل.

وعلى الموقف الثاني:

يقولون: نقطع بأن الظواهر الموهمة للتشبيه غير مرادة من كلام الله تعالى، بمقتضى قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وبمقتضى الدليل العقلي القطعي الذي مشاهدته تعالى لخلقه أو مماثلته لهم في ذاته أو صفاته أو أفعاله.

(١) انظر تفسير القرطبي: (١٧/١-١٨).

(۲) صحیح البخاری: (۱۱۵۴).

(۳) صحیح مسلم: (۲۶۵۴).

- فنقول: لفظ «اليد» في الآية الأولى كناية عن الجود وسعة الإنفاق، لأن المقام وسياق نص يقتضيان نفي البخل عن الله تعالى، والرد على اليهود عليهم لعنات رب العالمين.

- ولأن المفسرين أجمعوا على أن قول اليهود «يد الله مغلولة» قصدوا به أنه بخيل - نعى الله عن ذلك علوا كبيرا-، ولم يقصدوا أنها مربوطة أو مغلقة مقبوضة الهيئة، فهذا لا معنى له إذا وضعناه أمام رد الله تعالى عليهم. فكان الرد عليهم من جنس قصدهم. فإن كانوا غبروا عن البخل بغلّ اليد وقبضها، فالله تعالى عبر عن الجود وسعة الإنفاق ببسط اليد^(١).

- وأما لفظ «الفوق» في الآية الثانية فليس المقصود به المكان والجهة، لأن المكان جهة مخلوقان من بعد العدم، والله تعالى لا تحويه الجهات، ولا يحيط به مكان كبقية مخلوقات، لأن الجهات والأماكن لا تحيط إلا بالأجسام التي لها أحجام صغرت أو كبرت. - «فوقية المقصودة هي فوقية القدرة التي لا تدانيها قدرة والقهر الذي لا مهرب منه وكمال تصرف فيما تحت يده سبحانه، لا الفوقية الحسية التي تستلزم أن يكون الله متحيزا في مكان، - حد ونهاية جسمانية، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا^(٢).

- والنزول أو التَّنَزُّل الوارد في الحديث كناية عن إقباله سبحانه على عباده القائمين له في هذا الليل يذكرونه ويسبحونه ويعبدونه والناس نيام بالرحمة والمغفرة والاستجابة. أو عن نزول ملائكته بتَّنَزُّل رحمته تعالى ومغفرته لهم^(٣). فمن معاني النزول عند العرب قضاء الحوائج - تلبية الرغبات، كما تقول العرب نزل على رغبته وحاجته وطلبه وشرطه.

- والأصابع والتقليب في الحديث كناية عن الإرادة الربانية والقدرة الإلهية^(٤)، فهو - حده يقلب القلوب كلها كيف يشاء ويصرفها إلى حيث يشاء. والمعنى حيثئذ: أن الله تعالى تصرف قلوب عباده بقدرته على وفق مشيئته وإرادته، من غير أن يخرج عن هذه القدرة - شيئة قلب واحد.

نظر مثلا تفاسير: الطبري (١٠/ ٤٥١)، القرطبي (٦/ ٢٣٨-٢٤٠)، ابن كثير (٣/ ١٤٥-١٤٦).

نظر مثلا تفاسير: الطبري (١٧/ ٢٢٠)، الثعلبي (٦/ ٢١)، الألوسي (١٠/ ١٨٩).

نظر: شرح البخاري لابن بطلال (٣/ ١٣٧-١٤٠)، فتح الباري لابن حجر (٣/ ٣٠-٣٢)، (١٣-٤٨٤).

شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ٢٠٤).

١٨٣ - ثلث: قول أهل السنة الأشعرية والماتريدية

من 'تشبيه: المشابهة. وقوله: «أَوَّلُهُ» أي أحمله على خلاف ظاهره مع بيان المعنى المراد. فالمراد: -ريلا تفصيليا، بأن يكون فيه بيان المعنى المراد كما هو مذهب الخلف، وهم من كانوا بعد خمسمائة، وقيل: من بعد القرون الثلاثة.

وقوله: «أو فَوْضٌ» أي بعد التأويل الإجمالي الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره، فبعد هذا التأويل فَوْضُ المراد من النص الموهم إليه تعالى على طريقة السلف، وهم من كانوا قبل خمسمائة، وقيل: القرون الثلاثة، الصحابة والتابعون وأتباع التابعين.

ثم قال البيجوري: فظهر مما قرناه اتفاق السلف والخلف على التأويل الإجمالي، لأنهم يصفون النص الموهم عن ظاهره المحال عليه تعالى^(١). لكنهم اختلفوا بعد ذلك في تعيين مراد من ذلك النص وعدم التعيين. والحاصل: أنه إذا ورد في القرآن أو السنة ما يُشعر بإثبات جهة أو الجسمية أو الصورة أو الجوارح، اتفق أهل الحق وغيرهم ما عدا المجسمة والمشبّهة على تأويل ذلك، لوجوب تزيّره تعالى عما دلّ عليه ما ذُكر بحسب ظاهره.

فما يوهّم الجهة قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]، فالسلف يقولون:

= البأس والقوة ما يجعله يشبه الأسد فيها، لا أنه تحوّل إلى حيوان مفترس. وهذا المجاز كثير في كلام العرب، ولا ينكره إلا صاحب هوى أو أحمق لا يعرف عن العربية شيئا.

تنبيه: الأصل أن الظاهر هو ما يتبادر إلى الذهن عند سماع اللفظ، سواء كان منصرفا إلى الحقيقة اللغوية أو إلى المعنى المجازي الذي يفيد السياق، وهو كما وضحنا ليس فيه تجسيم عند أصحاب الفطرة السوية. لكن لما وقعت البدعة واشتهر اصطلاح «المعنى الظاهر» أو «ظواهر النصوص»، تجد عددا من أهل العلم ينفون الظواهر بهذا المعنى. ولكن يُعرف قصد المتكلم من لفظ «الظاهر» إذا دقق الباحث في كلامه. فانتبه حفظك الله لتلك اللفتة حتى لا يختلط عليك الأمر. وسيأتي فصل خاص عن الظاهر ومعناه وما يراد به إن شاء الله تعالى.

(١) يبين رحمه الله تعالى أن مذهب التفويض الذي عليه السلف الصالح، يُعتبر أيضا تأويلا إجماليا، لأنهم يميزون أن المعاني الموهمة التي تؤدي إلى التشبيه بسبب استعمال الألفاظ على حقيقتها اللغوية ليست مرادة ولا مقصودة، فيكونون بذلك قد صرفوا اللفظ عن معناه الأصلي. فانتبه لذلك رزقني الله وإياك الفهم عنه تعالى وعن رسوله ﷺ.

فوقية لا نعلمها^(١)، والخلف يقولون: المراد بالفوقية التَّعَالَى في العظمة. فالمعنى: يخافون - تـ الملائكة - ربهم من أجل تعاليه في العظمة، أي ارتفاعه فيها^(٢) اهـ.

ويقول الإمام أبو المعين النَّسْفِيُّ الماتريدي: «وَتَعَلَّقُ الْخُصُومُ^(٣) بالدلائل السمعية، من نحو قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿أَمَّا أَنْتُمْ فَمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [النسر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] تعلق بأرضهم إن تمسكوا بظاهر كل آية منها لَلَزِمَ المحال، فإنه تعالى يكون على العرش حسب كون الملك على السرير^(٤)، ويكون في السماء حسب كون المظروف في الظرف^(٥)، ويكون في الأرض أيضاً مع كونه في السماء محال. والمحال منه مندفع، فالشرع لا يردُّ به.

فَعُلِمَ أن هذه الآيات معدولٌ بها عن ظواهرها، لئلا يتمكن التناقض والتدافع في كلام الحكيم الخبير، فيجب صرف كل آية منها إلى ما يليق بالربوبية، ولا تُناقض حجة الله تعالى العقل^(٦)، ولا تُعارض قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، إذ في هذه الآية نفي المماثلة بينه وبين شيء ما. وهذه الآية محكمة لا تحتل تأويلاً، ومـ تعلق به الخصوم من الآيات المتشابهة محتملة لوجوه كثيرة غير ممكنة الحمل على ظواهرها.

فإما أن نؤمن بتتزييلها ولا نشتغل بتأويلها، على ما هو اختيار كثير من كبراء الأئمة وعلماء الملة. وإما أن نُصَرِّفَ إلى وجه من التأويل، يوافق التوحيد ولا يناقض ندبـ المحكَّمة^(٧) اهـ.

(١) أي لا يحددون معنى مراداً بعينه للفظ، فيفوضون العلم بمعناها إلى الله تعالى. وهذا هو الموقف الأول - ذكرناه لأهل السنة.

(٢) شرح جوهرة التوحيد للبيجوري: (٥٦-٥٧).

(٣) يقصد المخالفين لأهل السنة في هذه المسألة، وهم المجسمة والمشبهة.

(٤) أي مثل كون الملك على السرير، على حسب ما يفيد الظاهر اللغوي.

(٥) فيلزم منه أن السماء ظرف له، وهو كفر باطل. والظرف قد يوجد فيه المظروف وقد يخلو منه، وهذا كفر - باطل. انظر كلام المحقق ص: (٣٧-٣٨).

(٦) جملة: (ولا تناقض حجة الله تعالى العقل) معطوفة على قوله: (لئلا يتمكن التناقض.. إلخ).

(٧) التمهيد في أصول الدين لأبي المعين النَّسْفِيُّ الماتريدي: (٣٧-٣٨).

نص من كلام شراح الحديث على أن التفويض والتأويل هما مذهب أهل السنة في التعامل مع المتشابه:

وقد نص على ذلك جمهور شراح كتب الأحاديث وغيرهم من علماء الأمة. وسننقل عرص كلام بعض أكابر شراح الحديث ممن أجمعت الأمة كلها على الاعتراف لهم بالإمامة - بتقديم والإتقان في صناعة الحديث روايةً ودرايةً، وجمعوا مع تمكنهم في الحديث إتقاناً وتمكناً - غيره من العلوم كالفقه والأصول واللغة، وإن غلبت عليهم صناعة الحديث.

سننقل نصوص هذه الفئة - على وجه الخصوص - بأن مذهب أهل السنة إما تفويض وتأويل.

- وذلك لأن عددا كبيرا ممن وقعوا تحت تأثير الآلة الدعائية للمجسمة أصبحوا لا ينتهون في رأي أي طائفة من العلماء إلا أهل الحديث^(١).

- وكذلك لكي نقطع دابر الشك في قلب من يرتاب في مواقف هؤلاء العلماء - تنائمهم إلى أهل السنة الأشاعرة والماتريدية^(٢).

- ولكي يظهر بالبرهان الواضح أن هؤلاء المحدثين نقلوا مذهب أهل السنة والسلف - لحين نقلا مطابقا لما قاله الأشاعرة والماتريدية، مما يدل دلالة واضحة على أن الأشاعرة - ماتريدية هم الامتداد الحقيقي لمنهج واعتقاد السلف الصالح وأهل السنة.

١ - الإمام البيهقي، وهو من أئمة الحديث والفقه والأصول والفقه والكلام والتاريخ:

وقد سبق التوضيح أن أدعياء السلفية ينسبون أنفسهم وعقيدتهم لأهل الحديث، لما للحديث الشريف من قدر ومحبة لدى جماهير المسلمين، ويلبسون على الناس بادعاء أن أهل الحديث لا يختلفون في الاعتقاد وأنهم على نفس اعتقاد الوهابية.

- وذلك لأن بعض المجسمة المعاصرين في كتبهم تعمّدوا الكذب والادعاء بأن هؤلاء العلماء مجسمة وأنهم ينتمون للأشاعرة والماتريدية. وانتشرت هذه الدعوى وراجت على العوام وطلبة العلم من الشباب بسبب دعم مثل هذه الكتب بالمال وتيسير نشرها بالمجان في عدد من بلاد الإسلام.

٤- الحافظ ابن الإمام الحافظ ولي الدين أبو زرعة بن زين الدين العراقي، وهو محدث وفقيه وأصولي:

قال في شرحه على جمع الجوامع: «بل نقول بكل ما ورد في الكتاب أو السنة نصيحة. ثم إن كان ظاهر المعنى لا إشكال فيه اعتقدناه كما ورد، وإن كان مشكل المعنى يبرههم ظاهره الحدوث أو التغير كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَيْكُ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «ينزل ربنا في كل ليلة إلى سماء الدنيا»^(١). فإننا ننزه الله تعالى عند سماعه عما لا يليق به.

ولأثمتنا فيه مذهبان مشهوران:

أحدهما: تفويض المراد منه إلى الله تعالى، والسكوت عن التأويل، مع الجزم بأن ظواهر المؤدية إلى الحدوث أو التشبيه غير مرادة. وهو مذهب السلف.

وسئل مالك رحمه الله عن قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة»^(٢).

وقال الترمذي في الكلام على حديث الرؤية: «والمذهب في هذا عند أهل العلم من أئمة مثل سفيان الثوري ومالك بن أنس وابن المبارك»^(٣) وابن عينة ووکیع وغيرهم: أنهم زووا هذه الأشياء ثم قالوا: تُروى هذه الأحاديث ونؤمن بها ولا يقال كيف. وهذا الذي ختاره أهل الحديث»^(٤).

(١) صحيح البخاري: (١١٥٤)، مسلم: (٧٥٨).

(٢) سيأتي الكلام على هذا الأثر مفصلاً في الحاشية إن شاء الله تعالى في الفصل الخاص بأقوال السلف.

(٣) قال الذهبي في التذكرة (٢٠١/١): عبد الله بن المبارك بن واضح، الحافظ العلامة شيخ الإسلام، فخر المجاهدين قدوة الزاهدين. ولد سنة ١١٨ هـ أو بعدها بعام، قال ابن مهدي: الأئمة أربعة: مالك والثوري وحامد بن زيد وابن المبارك. قال عبد الله بن سنان قدم ابن المبارك مكة وأنا بها فلما خرج شيعة سفيان بن عينة والفضيل بن عياض وودعاه فقال أحدهما: هذا فقيه أهل المشرق، فقال الآخر: وفقيه أهل المغرب. ثم قال الذهبي: مناقب هذا السيد جمّة في تاريخ دمشق وفي تاريخ نيسابور وفي الحلية وفي تاريخ الخطيب. مات ابن المبارك يهبط في رمضان سنة ١٨١ هـ.

(٤) سنن الترمذي: (٤٩٢/٤).

ثانيهما: أنا نؤولها على ما يليق بجلال الله تعالى، بشرط كون المتأول متسقا في مد
العرب»^(١) اهـ.

٥- الحافظ الكرماني، وهو إمام في الحديث والفقه:

قال: «حكم سائر المتشابهات إما التفويض وإما التأويل»^(٢) اهـ.

٦- الإمام الأبي، وهو محدث وفقهه

قال في شرحه على صحيح مسلم عند كلامه على حديث النزول: «ومذهب أهل الحق في جميع ذلك أن يُصَرَّف اللفظ عن ظاهره المحال، ثم بعد الصرف هل الأولى التأويل. عدمه، بأن يؤمن باللفظ على ما يليق، ويَكِلْ علم حقيقة ذلك إلى الله سبحانه وتعالى،.... - الأظهر من قول أهل الحق التأويل» (٣) اهـ.

٦- الإمام الحافظ بدر الدين العيني، وهو محدث وفقه:

قال في شرحه لحديث النزول في صحيح البخاري: «وهذا من باب التشابهات ونحوها فيها قد علم أنه إما التفويض وإما التأويل»^(٤) اهـ.

وهذا الذي قَرَّرَهُ هؤلاء الأئمة ونَسَبَهُ البيهقي إلى أهل الحديث المنتسبين لأهل السنة - قَرَّرَهُ بعينه - ويكاد يكون بالأفاذه - عددٌ من حفاظ وعلماء الإسلام، وعلى رأسهم حفاظ كـ: كآبي حاتم ابن حبان والخطيب البغدادي وابن عساكر ومغلطاي والقسطلاني والخضر - والسيوطي والزرقاني والسخاوي والهيتمي والدهلوي والسندي وغيرهم، بما يكاد يكر - إطباقاً على نقل هذا المعنى.

• ولمزيد من التوضيح لمذهب أهل السنة الأشاعرة والماتريدية في التأويل نقول:

(١) الغيث الهامع شرح جمع الجوامع، لأبي زرعة العراقي، ص: (٧٤١-٧٤٢).

(۲) انظر: فتح الباری لابن حجر: (۴۰۱/۱۳).

(۳) انظر: شرح الأبى على صحيح مسلم: (۲/۳۸۵).

(٤) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني: (١٧٣/٣٦).

هل هو فعلا يمين الله على الحقيقة؟ أم أن هناك معنى آخر قصده النبي ﷺ وسلك طريقة المجاز العربي في التعبير عنه؟!

فإن قلت: هو يمين الله حقيقة، فقد نسبتَ إلى الله ما هو أفضع وأشنع مما نسب إليه 'لنصارى! فَأَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَكُونَ يَمِينُهُ حَجْرًا.

ثم ماذا تقول أيضا في الحديث القدسي الذي يقول الله تعالى فيه: «يا ابن آدم، سَتَطْعَمُكَ فَلَمْ تَطْعَمْنِي. مَرَضْتُ فَلَمْ تُعْذِنِي، ... الحديث»^(١)؟ هل الله سبحانه يجوع ويمرض؟

وماذا تقول في قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]؟ هل الله سبحانه وتعالى ينسى؟

لو قلت هذا تكون قد كفرت صراحة. ولو قلت ليس المعنى كذلك، تكون قد سلكت مسلك التأويل الذي ترفضه وتُصِرُّ على أنه تحريف!

شبهة إثبات أهل السنة بعض الصفات وتأويلهم البعض الآخر:

من المعلوم أن هناك صفات اتفق جمهور المسلمين على إثباتها لله جل شأنه، كالعلم والقدرة والإرادة، وهي عبارة عن معاني قائمة بذاته تعالى. والمجسمة يدعون أنه لا فرق بين هذه الصفات وبين ما يعتبرونه هم من الصفات كالعين والوجه واليد والساق والظل،

= ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا. ورواه ابن أبي الفوارس في تاسع مخلصاته، والقضاعي موقوفا عليه، لكنه صحيح بلفظ: «الركن يمين الله عز وجل يصافح بها خلقه، والذي نفس ابن عباس بيده ما من مسلم يسأل الله عنده شيئا إلا أعطاه إياه». وله شواهد فالحديث حسن. ومن شواهد ما رواه الديلمي عن أنس، ومنها ما رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن جابر، اهـ. وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٤٢): رواه أحمد، والطبراني في الأوسط وزاد: «يشهد لمن استلمه بالحق، وهو يمين الله عز وجل، يصافح بها خلقه». وفيه عبد الله بن مؤمل وثقه ابن حبان وقال يخطئ وفيه كلام، وبقيته رجاله رجال الصحيح. قلت: لم أجد ما عزاه الهيثمي إلى ابن حبان عنه.

(١) صحيح مسلم: (٢٥٦٩). وانظر التعليق المضحك لبعض المجسمة على الحديث فيما سنقله إن شاء الله تعالى في المبحث الخاص بقول المجسمة.

ويسمونه صفات عينية! وكالهرولة والمكّل والتزول، ويسمونه صفات فعلية! ويعيون على أهل السنة أنهم لا يثبتونها كما أثبتوا الأولى، ويدعون اعتمادا على ذلك أن مذهب أهل السنة الأشاعرة والماتريدية متناقض في هذا الباب.

ويقولون لأهل السنة: إذا كنتم تثبتون الصفات الأولى فيلزمكم إثبات الصفات الثانية؛ لأنه لا فرق. ويعتمدون على قاعدة عندهم نصها كالآتي: «القول في بعض الصفات كالقول في بعض».

ثم يحاولون التليس على أهل السنة بإدارة حوار على النسق الآتي^(١):

يقولون لأهل السنة: لا فرق بين ما نفيتموه وما أُنْبِئْتُمُوهُ، بل القول في أحدهما كالقول في الآخر.

فإن قلتم مثلاً: إن إرادته تعالى مثل إرادة المخلوقين، قلنا: كذلك وجهه وساقه وضوءه ومملكته وهرولته، وهذا هو التمثيل.

وإن قلتم: له أرادة تليق به كما أن للمخلوق إرادة تليق به، قلنا: وكذلك له وجه وسفر وظل وملل وهرولة تليق به كما أن للمخلوق وجهًا وساقًا وظلا ومللا وهرولة تليق به!

فإن قلتم مثلاً: الهرولة في اللغة هي الإسراع بين المشي والجري فلا يليق إثباته -
تعالى، قلنا: كذلك الإرادة هي ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة فلا يليق إثباته -
تعالى!

فيستج عن ذلك أن هذه الصفات مثل تلك، فيلزمكم إما إثباتها جميعا عملا بظـ
النصوص، أو نفيها جميعا عملا بالتأويل.

والرد على هذا الحوار كالتالي:

نقول: إن الفرق بالغ الوضوح بين الصفات الأولى نحو العلم والقدرة والإرادة وبين ما يريدون إثباته ويقيسونه عليها. فرقٌ من عدة وجوه:

(١) هذا النسق للحوار تجده في كثير من كتبهم، أبرزها التدمرية لابن تيمية: (٣١-٣٢)، وكذلك شرح المعاصر بن علي التدمرية والواسطية.

منها: أننا - أهل السنة الأشاعرة والماتريدية - لم نثبت لله سبحانه وتعالى العلم والحياة والقدرة والإرادة وغيرها من الصفات التي أثبتناها، إلا لأن الأدلة القطعية وردت بإثباتها. وهذه الأدلة التي أثبتنا هذه الصفات استنادا إليها، قطعيةٌ من جهة ثبوتها ومن جهة دلالتها.

- وذلك لأن الأحكام الشرعية - سواء كانت اعتقادية أو فقهية -، لا بد من ثبوت نسبة الأدلة التي دلت عليها، إلى الله سبحانه أو إلى رسوله ﷺ أو إلى إجماع المجتهدين في عصر من العصور ثبوتا مؤكّدا. وهذا هو ما نقصده بقطعية الثبوت.

- كما أنه لا بد أيضا لهذه الأدلة التي ثبتت نسبتها ثبوتا قطعيا إلى الله ورسوله أن تدل على الأحكام التي استنبطها العلماء منها دلالة مؤكّدة. وهذا هو ما نقصده بقطعية الدلالة.

- ودرجةُ صحة الثبوت وصحة الدلالة يُقَبَل فيها أن تختلف وتتفاوت في الفروع الفقهية، حيث دل على ذلك عمل الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المجتهدين والفقهاء على مر العصور واختلاف الأجيال إلى يومنا هذا. فيمكن أن تجد الأئمة يختلفون في صحة ثبوت نصٍّ من النصوص ويختلفون أيضا في فهمه، فتختلف أحكامهم المستنبطة منها بحسب اختلافهم في درجة ثبوتها وفي فهمهم لدلالاتها.

- أما الأحكام الاعتقادية - خصوصا ما يتعلق بذات الله تعالى وصفاته - فلا بد فيها من اليقين، لأن العقيدة الصحيحة واحدةٌ من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا. واستنباط أحكام عقديّة من النصوص التي لم تثبت نسبتها إلى الله ورسوله بشكل قاطع، أو من نصوصٍ لا تدل دلالة قطعية على المراد منها ويتطرق إليها الاحتمال لا يجوز؛ لأن الاحتمال لا يعتد به في العقيدة. إذ لا يصح أن تُثبت لله تعالى صفة على سبيل الاحتمال والشك؛ لأنّ شك في العقيدة يبطل الإيمان أصلا.

ولو جاز في إثبات عقيدة متعلّقة بذات الله سبحانه وصفاته أن نستدل بالنصوص التي رُتبت نسبتها على سبيل القطع، أو النصوص التي تحتمل عدة وجوه ولا تثبت دلالتها على سبيل القطع، فيمكن في هذه الحال أن نقول أن الله يمكن أن يكون متصفا بصفة العلم مثلا فيمكن ألا يكون متصفا بها، أو أن علمه تعالى شامل محيط بكل شيء ويمكن ألا يحيط بكل

شيء. وسوف تتعدد أقوال المجتهدين وتتعدد احتمالاتهم بتعدد ما فهموه من هذه النصوص فتختلف أقوالهم في العقيدة كما اختلفت في الفقه.

لذلك نحن لم نثبت صفة لله تعالى من النصوص إلا بعد ثبوت نسبتها على سبيل القطع إلى الله تعالى أو إلى رسوله ﷺ، وبعد التأكد من قطعية دلالة هذه النصوص على المعنى الذي أثبتناه.

- فأما من جهة ثبوتها: فإن النصوص التي ورد فيها ذكر العلم والقدرة والإرادة والحياة، لا يشك مسلم واحد في ثبوتها، حيث وصف الله تعالى نفسه بها في القرآن الكريم الذي أجمع المسلمون على أنه من عند الله، ولم يتطرق إليه تحريف بزيادة أو نقص أو تغيير وكذلك ورد ذكرها ووصف الله تعالى بها في أحاديث متواترة تلقاها جيل عن جيل، مع اختلاف الأماكن والأزمنة والمذاهب، بحيث يستحيل الكذب أو السهو أو الخطأ في نقلها.

أضف إلى ذلك أن العقل أيضا يشارك النقل في إثباتها على ذلك الوجه القاطع. إذ تدل دلالة قاطعة على أن هذا العالم بما فيه لا يمكن أن ينشأ من العدم هكذا بدون خالق حي. له من القدرة والإرادة والعلم ما يمكنه من تدبير مخلوقاته وحفظها.

وأما من جهة دلالتها: فإن ألفاظ القدرة والإرادة والعلم والحياة كل منها له معنى واحد لا يتطرق الاحتمال إلى غيره، سواء ورد ذكره في القرآن أو في السنة. ومهما اختلف السياق الذي وردت فيه، فإنها لا تدل إلا على المعاني المعروفة منها من كونها صفات لله سبحانه وتعالى.

أما ألفاظ العين واليد والوجه والساق والهرولة والقعود والهبوط والظل والمثل وسائر تلك الأمور التي يسمونها صفات. فلا يدل عليها دليل يجتمع فيه قطعية الثبوت وقطعية الدلالة.

- فمن جهة الثبوت: فقد ورد بعضها في القرآن كاليد والساق والوجه والعين والمحيي والمعي والاسواء. وهذه النصوص قطعية الثبوت بالتأكيد.

وبعضها ورد في السنة. وهذه الأحاديث ليست كلها متواترة قطعية في ثبوتها، بل بعضها القليل جداً متواتر.

وبعضها أحاديث آحاد يجوز على راوي كل منها أن يخطئ في فهم الكلام الذي سمعه، وبالتالي فهو يبلغه كما فهمه، إن كان يرويه بالمعنى. ويجوز كذلك أن ينسى شيئاً من ألفاظ السياق أو أن يبدل كلمة مكان كلمة على سبيل السهو والخطأ. وبالتالي لا يمكن أن ننسب إلى الله سبحانه صفات عن طريق مثل هذه النصوص، التي يتطرق الشك إلى صحة نسبتها إلى الرسول ﷺ.

وبعضها -وهذا البعض كثير جداً- ورد في أحاديث ضعيفة أو موضوعة، وهذه لا يجوز الاعتماد عليها في إثبات صفات لله سبحانه، لأنها ليست ثابتة النسبة إلى النبي ﷺ. وذلك كالأحاديث التي فيها رؤية النبي ﷺ لربه في صورة شاب أمرد، وأنه يرتدي نعلين ذهبيتين، وأنه تعالى يتبقى منه مقدار أربعة أصابع من مساحة جلوسه على العرش، وأن له شعرا في صدره وذراعيه وأن له أضراسا وفما وهوات وحقوقاً وغيرها من الخزعبلات التي هي في الأصل من وضع الزنادقة، ثم وصلت إلى بعض المجسمة من المحدثين الذين اعتقدوا اتّصاف الله تعالى بها، ثم رَوَوْهَا عن أولئك الزنادقة دون انتقاد أو تمحيص لهذه المرويات.

وبعضها ورد في أخبار موقوفة على بعض التابعين المتأثرين بما ينقله أهل الكتاب من كتبهم. ولا يخفى أن هذه الكتب نالها شيء كثير من التبديل والتحريف، وأن مصدر العقيدة عندنا معشر المسلمين هو القرآن والخبر القطعي الوارد عن الرسول ﷺ. وليس أحدٌ من الصحابة أو التابعين يمكن اعتباره مصدراً مستقلاً للعقيدة بحيث يمكن الاعتماد على خبره منفرداً، طالما لم يصحّ رفع خبره إلى النبي ﷺ بطريق التواتر. وذلك كالخبر الوارد عن مجاهد أن الله تعالى جالس على العرش كما يجلس أحدنا على الكرسي. وأنه تعالى يُسند قدميه على الكرسي، وغير ذلك من الأخبار الواضحة الكذب.

هذا بالنسبة لثبوت نسبة هذه الألفاظ للقرآن وللرسول ﷺ في أحاديثه. وكما سبق، فإن قطعية ثبوت أي نص لا يمكن الاستناد إليها في إثبات صفة لله سبحانه ما لم يكن قطعياً أيضاً في دلالة.

- ومن جهة الدلالة: فإننا لن ننظر في الألفاظ التي وردت في خبر آحاد؛ لأنها تختمر وقوع الخطأ من الأفراد الذين رووها في أي طبقة من طبقات الإسناد. وكذلك لن ننظر في الأحاديث الضعيفة والموضوعة لسقوط الاحتجاج بها أصلاً. ولا في الأخبار الموقوفة على صحابي أو تابعي ولم يصح رفعها إلى النبي ﷺ، لأن قول الصحابي أو التابعي منفرداً في العقيدة ليس بحجة، خاصة إذا خالف قوله الأدلة القطعية في الكتاب والسنة.

فلم يبق عندنا إلا نصوص القرآن الكريم والأحاديث المتواترة التي ثبتت نسبتها إلى النبي ﷺ، حيث لا يتطرق أي احتمال أو خطأ في ثبوتها.

ولا بد أن نعيد الكلام عن الصفات التي أثبتتها أهل السنة من حيث دلالة الألفاظ مع المقارنة بما يريد المجسمة إثباتها من عدة وجوه:

منها: أن العلم والقدرة والإرادة هي في حقيقتها اللغوية معاني تقوم بمن اتصف به. ولا يعرف أحد طبيعتها على وجه اليقين، بل لا نعرف عنها إلا بعض آثارها وخصائصها، أمر طبيعتها فلا. والتعريف الذي يسبق في هذا الحوار للإرادة خاطئ تماماً، لأن ميل النفس إلى شيء هو محبته وطلب تحصيله وليس إرادته، والفرق واضح.

لكنّ الوجه والعين والساق قد أجمع أهل اللغة على أنها أجزاء وأبعاد تتركب منها المخلوقات، وهذه هي طبيعتها وحقيقتها على وجه اليقين. وكذلك الهرولة والنزول أجمعوا على أنها أفعال وليست صفات، وأنها تدل على تحرك الجسم وانتقاله من مكان إلى آخر، هذه حقيقتها وطبيعتها.

وأما الممل والظل، فلا أدري كيف يجرؤ مسلم على وصف الله تعالى بهما، ويريد حصر اللفظ على حقيقته اللغوية رافضاً تأويله والاعتراف بأن إطلاقهما من قبيل المجاز!!

ومنها: أن اللغة لم تعترف بكون هذه الأبعاد تسمى صفاتٍ لمن تَرَكَّبَ منها، بل هي أجزاء له، فكيف ساغ للمجسمة أن يسموها صفات بغير دليل من اللغة أو الشرع أو العقل.

«سمعوا أن الله تعالى خلق آدم على صورته، فأثبتوا له صورة»

ووجها زائدا على الذات، وعينين وفماً ولهوات، وأضراسا وأضواء لوجهه هي السبحات، ويدين وأصابع وكفا وخنصرا وإبهاما وصدرا وفخذا وساقين ورجلين،، فسموها بـلـصـفـات تـسـمـيـة مـبـتـدـعة لا دليـل لـهـم فـي ذلـك مـن النـقـل و لا مـن العـقـل،، سـمـوا الأـخـبـار أـخـبـار صـفـات، وإـنـما هـي إـضـاـفـات، و لـيـس كـل مـضـاـف صـفـة، فإـنـه قـال سـبـحـانـه و تـعـالـى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، و لـيـس لـلـلـه صـفـة تـسـمـى رـوحـا، فـقـد اـبـتـدـع مـن سـمـى المـضـاـف صـفـة،، و هل ظـاـهـر الـاـسـتـواء إـلـا القـعـود ؟ و ظـاـهـر النـزـول إـلـا الـاـنـتـقـال ؟!«^(١) اهـ.

و يلخص الإمام تقي الدين السبكي كل ما سبق بكلمات رائعة تفصل في الأمر وتكشف مدى ما يتعمدونه من التلبيس في هذا الحوار.

يقول الإمام تقي الدين السبكي: «وهذه الأشياء التي ذكرناها من الوجه واليد والساق والقدم والجنب والعين هي عند أهل اللغة أجزاء لا أوصاف، فهي صريحة في التركيب للأجسام، فذكر لفظ الأوصاف تلبيس. وكل أهل اللغة لا يفهمون من الوجه والعين والقدم إلا الأجزاء، ولا يفهم من الاستواء بمعنى القعود إلا أنه هيئة المتمكن، ولا من المجيء والإتيان والنزول إلا الحركة الخاصة بالجسم.

وأما المشيئة والعلم والقدرة ونحوها فهي صفات ذات. وهي فينا ذات أمرين: أحدهما: عَرَضٌ قائم بالجسم، والله تعالى منزّه عنه. والثاني: المعاني المتعلقة بالمراد والمعلوم والمقدور، وهي الموصوف بها الرب سبحانه وتعالى، وليست مختصة بالأجسام. فظهر الفرق»^(٢) اهـ.

- ومن ناحية أخرى بعيدا عن قطعية الدلالة والثبوت وظنيتهما: فإننا لو نظرنا إلى تلك الإضافات التي يريدون إثباتها قياسا على صفات القدرة والإرادة. ولناخذ مثالا واحدا عليها وهو الهرولة مثلا. فلو نظرنا في حقيقة الهرولة لرأينا أنها لا يمكن إثباتها إلا كصفة حادثة،

(١) دفع شبه التشبيه لابن الجوزي: (٩-١١).

(٢) السيف الصقيل، لتقي الدين السبكي: (١٦٧).

وُجِدَتْ نتيجةً لسبب خارجي غير ذات المَهْرُول، بخلاف القدرة والإرادة. فلا يقال -
الواحد مثلاً إنه مَهْرُولٌ دائماً، بل يقال هَرُولٌ لسبب معين، وهذا السبب ليس راجع -
حقيقته اللازمة له.

وظاهر الحديث القدسي الذي يستدلون به يشير إلى ذلك. ففيه أنه سبحانه وتعالى يقول: «وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»^(١)، فجعل الهرولة المذكورة مرهونة بمجيء العبد أو لا. فإن أتى العبد ماشياً أتاه الرب تعالى مهرولاً وإن لم يأت العبد ماشياً لم يأت الله تعالى مهرولاً. وهذا يدل على أن الهرولة ليست صفة ذات، بل هي فعل من الأفعال لأنها تثبت وتزول. وتتوقف على إرادة الله تعالى، فيُصرف معناها إلى إرادة إعطاء العبد أجزل الثواب وأسرع.

ولكنّ القدرة والإرادة لا يقال فيها ذلك، فلا يقال إنه قادر ومريد لسبب معيّن غير ذاته، بل هو موصوف بها دائماً؛ لأن اتصافه تعالى بالقدرة والإرادة لا يتوقف على شيء خارجي؛ لأنها إن توقفت على شيء خارجي فهذا معناه أن قدرته وإرادته تعالى حادثان، ولا تعالى لم يكن موصوفاً بها حتى طرأ ذلك الشيء الخارجي فأوجب الله - تعالى عما يقولون - أن يتصف بها^(٢).

أسس التأويل وضوابطه:

والتأويل عند أهل السنة لا يخضع للهوى أو غمليه نظرة مزاجية على المؤل كما يزعم المجسمة في كتبهم ورسائلهم، بل التأويل باب لا يفتح له إلا الراسخون في العلم، بعد تحقُّر شروطه وانتفاء موانعه، حتى لا يكون ساحة لكل سقيم في الفهم أو مخرب في الدين!

أولاً: لا يجوز صرف اللفظ عن ظاهره إلا عند قيام الدليل القاطع على أن ظاهره محرمٌ ممتنع^(٣). مثال ذلك: قول النبي ﷺ: «قَلْبُ ابْنِ آدَمَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ»^(٤).

(۱) متفق علیہ.

(٢) نقض التدمرية، لسعيد فودة: (٢٤)، يتصرف.

(٣) أساس التقديس، الرازي: (١٨٢). والإرشاد، الجويني: (١٦٠). وشرح الجوهرة للبيجوري: (١٥٣).

(٤) مسلم: (٢٦٥٤).

قال حجة الإسلام الغزالي: «حمله على الظاهر غير ممكن. إذ لو فتشنا عن قلوب المؤمنين لم نجد فيها أصابع، فَعَلِمَ أنها كناية عن القدرة التي هي سر الأصابع. وكُنِيَ بالأصابع عن القدرة؛ لأن ذلك أعظم وقعا في تفهّم تمام الاقتدار»^(١) اهـ.

أما إذا كان إجراؤه على الظاهر غير محال فلا يجوز تأويله، ولذلك أنكر الغزالي على المعتزلة أنهم أولّوا ما ورد من الأخبار في أحوال الآخرة، كالميزان والصراط وغيرهما.

قال رحمه الله تعالى: «هو بدعة، إذ لم ينقل ذلك بطريق الرواية، وإجراؤه على الظاهر غير محال، فيجب إجراؤه على الظاهر»^(٢) اهـ.

ووجه جواز التأويل في النصوص التي يعارض ظاهرها الدليل القاطع: أن دلالة النص ظنية، فيجب القطع بصرف اللفظ عن الاحتمال المعارض للدليل القاطع، ثم يبيّن الوجه الذي يصح حمل اللفظ عليه، لأنه يحتمله ولا مانع من حمله عليه^(٣).

ثانياً: من العقائد الثابتة بالدليل القاطع أن الله عز وجل ليس في جهة أو حيّز، ولا يجوز عليه التركيب من أجزاء ولا التجسيم ولا التشبيه، ولا تقوم به الحوادث^(٤). فإذا وردت الظواهر الظنية معارضة لهذه العقائد وجب الأخذ بالنص الشرعي ما أمكن، فتؤوّل الظواهر إما إجمالاً ونفوض تفصيلها إلى الله، وإما تفصيلاً بتعيين المراد^(٥).

ثالثاً: يشترط لصحة التأويل أن يكون موافقاً لأساليب اللغة وعُرف الاستعمال، جارياً على ما يقتضيه لسان العرب وما يفهمونه في خطاباتنا^(٦).

(١) إحياء علوم الدين للغزالي: (١/١٠٢).

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة. وانظر الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي: (١٨). وشرح الجوهرة، اللقاني: (١٣١). ودراسات في الفرق والعقائد، د. عرفان عبد الحميد: (٢٠٨).

(٣) الإرشاد للجويني: (١٦٠)، والمواقف للإيجي: (٢٧٢-٢٧٣)، وشرح المقاصد للفتازاني: (٤/٥٠).

(٤) بسط ذلك في العقيدة النظامية لإمام الحرمين: (٢١)، التمهيد للنسفي: (٦-١٨)، الاقتصاد للغزالي: (٢٨-٣٥)، والبداية من الكفاية لنور الدين الصابوني (٥٠٨هـ): (٤٤)، الأساس في التقديس: (١٥-٤٥).

(٥) المواقف للإيجي: (٢٧)، شرح المقاصد للفتازاني: (٤/٥٠).

(٦) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ضمن مجموعة الجواهر الغوالي من رسائل الغزالي: (١٩٩)، شرح =

رابعاً: التأويل بيان المعنى الذي يظن المؤول أنه المراد، لأن اللفظ قد يحتمل أكثر من معنى يصح صرفه إليه^(١).

مثال ذلك قول إمام الحرمين: «لا يمتنع منا حمل الاستواء على القهر والغلبة، وذلك شائع في اللغة. ولا يبعد حمل الاستواء على قصد الإله إلى أمر في العرش، وهذا تأويل سفينة الثوري رحمه الله. فاستشهد بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، معناه: قصد إليها»^(٢) اهـ.

وهذا معنى قولهم: «التأويل ظني». ويترتب على هذا: أن إبطال وجه من وجوه تأويل اللفظ لا يدل على إبطال التأويل بالكلية، لأنه قد يصح تأويله على وجه آخر^(٣).

خامساً: يشترط لصحة التأويل أن لا يخالف أصلاً ثابتاً^(٤). ومن هذا التأويل المخالف، تأويل ابن قتيبة رحمه الله الاستواء بالاستقرار^(٥). قال: «وقالوا في قوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] أنه استولى، وليس يعرف في اللغة استويت على الدار، في استوليت عليها. وإنما استوى في هذا المكان: استقر»^(٦).

ولا يخفى أن في الاستقرار تشبيهاً بالمخلوق، ومفارقةً لتزييه الباري عز وجل، حتى لم يستطع أن يتنصل من إثبات المكانية للاستواء بمعنى الاستقرار. ومثل هذا التأويل غير مقبول لأنه يخالف أصلاً ثابتاً^(٧).

= الفقه الأكبر للقيصري: (٣٤)، التأويل اللغوي في القرآن الكريم، حسين حامد الصالح: (٦١) ر. - دكتوراه - جامعة بغداد ١٩٩٥.

(١) شرح الجوهرة للبيجوري: (١٤٩). وشرح الجوهرة للقاني: (١٢٨).

(٢) انظر الإرشاد: (٤١).

(٣) تعليق الكوثري على الاختلاف في اللفظ: (٢٦). قلت: فبطان تأويل الاستواء بالاستيلاء عند بعضهم. حجة فيه على إبطال تأويله بمعنى آخر ككمال الهيمنة مثلاً.

(٤) انظر البرهان للجويني: (١/ ٥٣٦)، فيصل التفرقة للغزالي: (١٩٨-١٩١)، والتأويل اللغوي ح. الصالح: (٦٣).

(٥) وقال به عدد من المعاصرين منهم، خصوصاً في شروح ما يسمى بالعقيدة الواسطية لابن تيمية.

(٦) الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة: (٣٣٧).

(٧) انظر تعليق الكوثري عليه: (٣٧).

الفصل الرابع

قول المجسمة أدعاء السلفية ومناقشتهم فيه

كما سبق وأشرنا في التمهيد: فمذاهب المجسمة لها وجود قديم، كان ضعيفا في الماضي ثم يمكن لها ضوابط تجمعها، حتى رتب أصولها وهذب شواردها الشيخ ابن تيمية وتلميذه شيخ ابن القيم رحمهما الله تعالى. والمجسمة في عصرنا هذا تبع لما صنفاه وسطراه ورتبناه، وعلى كتبها مدار الدراسة عند أدعاء السلفية، ولا يخرجون عن اعتقادها قيد أنملة، باعتبار أنها يعبرون عن عقيدة أهل السنة تعبيراً صحيحاً مطابقاً لاعتقاد السلف.

بل إننا لا نبالغ لو قلنا إن المعاصرين منهم لا يستطيعون عرض حججهم إلا بطريقتهم، ولا يمكن لأحدهم تحرير القول في مسألة من المسائل بدون اللجوء إلى وسائلهم، ولا يكادون يعبرون حتى مجرد التعبير عن اعتقادهم بالفاظ غير ألفاظهم!

وحاصل مذهبهم في هذه المسألة: أنهم يقولون ثبت لله تعالى ما ذكره عن نفسه، وما ذكره عنه رسوله ﷺ، على حقيقته، إثباتاً حقيقياً إلى ذاته تعالى، وثبت له كيفية، ولكن نفوضها إلى الله تعالى، فلا نحدد كيفية بعينها^(١). فنثبت ظواهر النصوص، مع نفى مماثلة الله تعالى لخلقه!!

فثبت له يدين حقيقتين، وعينين حقيقتين، ووجهاً حقيقياً، وساقاً حقيقية وأصابع حقيقية، واستواءً حقيقياً على العرش فوق السماوات بذاته تعالى، وهو مستوٍ على العرش استواءً استقراراً، وواضع قدميه على الكرسي، والكرسي غير العرش، وأن الله تعالى متصف بالتواجد في جهة حقيقية هي جهة فوق دون غيرها من الجهات والنواحي، وأنه ينزل بذاته نزولاً حقيقياً من مكانه فوق العرش الذي فوق السماوات جميعاً إلى السماء الدنيا، ويحيي

(١) لاحظ أنهم هنا يفرضون الكيفية، ولا ينفون الكيفية من الأصل، كما هو عند أهل السنة.

٢٠٢ انتصار لأهل السنة وكشف مذهب أدعياء السنة

بذاته مجيئاً حقيقياً، وَيَعَجَّب ويضحك على الحقيقة، ولا نقول أن الله تعالى جِسْمٌ ولا ننفي ذلك!!

وبعبارة أخرى مختصرة، يقولون: نثبت معاني هذه الألفاظ على ظاهرها وحقيقتها اللغوية المعروفة، ونثبت لها كيفية، لكننا نفوض كيفيتها إلى الله تعالى ولا نحدد كيفية بعينها.

يقول الشيخ ابن باز: «وهكذا القول في باقي الصفات من السمع والبصر والرضى والغضب واليد والقدم والأصابع والكلام والإرادة وغير ذلك، كلها نقول إنها معلومة من حيث اللغة العربية»^(١) اهـ.

ويقول الدكتور محمد خليل هراس: «ابن تيمية ينكر أن يكون في القرآن والسنة نكت نزول ليس فيه معنى النزول المعروف، لأنه جاء بلغة العرب، ولا تعرف العربُ نزولاً.. بهذا المعنى، ولو أريد غير هذا المعنى لكان خطاباً بغير لغتها، واستعمالاً للفظ المعروف.. معنى في معنى آخر، وهذا لا يجوز»^(٢) اهـ.

كما أنهم يرفضون تفويض معاني النصوص، ويعتبرون التفويض تجهيلاً وابتداءً ويرفضون كذلك التصرف في اللفظ بالتأويل، ويعتبرونه تعطيلاً^(٣) وإلحاداً وتحريفاً للكلام.. سبحانه وكلام رسوله ﷺ.

أي أنهم يثبتون المعنى اللغوي القاموسي للألفاظ، دون الالتفات إلى السياق بكماله. ويحملونه على أنه صفة من صفات الباري. ويثبتون لهذه الصفة التي أثبتوها من اللفظ كيفية.

(١) الردود البازية في بعض المسائل العقدية، ص: (١٦٥).

(٢) ابن تيمية السلفي، لمحمد خليل هراس، ص: (١٤٥).

(٣) التعطيل: هو القول بأن الله سبحانه لا يتصف بشيء من صفاته، كقول المعتزلة ومن وافقهم: عالم وسبب وبصير بغير صفات العلم والسمع والبصر، وكذلك جميع الصفات عندهم. فيكونون بذلك قد عطّلوا عن صفاته. وزاد بعضهم بأنه لا يوصف بكونه عالماً ولا سميعاً ولا بصيراً. هذا هو المقصود بالتعطيل.. اصطلاح أهل السنة وغيرهم. أما المجسمة: فإنهم يعتبرون تزويجه تعالى من الجوارح ومشابهة المخلوقة.. تعطيلاً.

٥- يفوضون كيفية الصفات إلى الله تعالى، ولا يبحثون عنها»^(١) اهـ.

فالشيخ يلخص مجمل اعتقادهم، ويصفه بأنه اعتقاد السلف وأهل السنة.

وسنرى من خلال عرض كلام الشيخ نفسه وكلام أهل مذهبه، هل هم يتبنون
بالسكوت حقا عما سكت عنه الله ورسوله؟ أم أنهم يزيدون ألفاظا من عندهم، كـ
على العرش والنزول بذاته وبنفسه، والجهة وغيرها؟ وهل ينفون عما أثبتوه لله تعالى من
المخلوقين حقا، أم أنهم غارقون في التشبيه، ويتسترون بقولهم «كما يليق»؟ وهل نصر
المتشابهات اعتبرها السلف الصالحون من المحكم الذي يمكن تفسيره وتحديد مع
ورفضوا تفويض المعنى؟ وهل كَذَبَ من ينسب تفويض المعنى إلى السلف؟ وهل هي
تدل بظاهرها وحقيقتها اللغوية على صفات عند السلف رحمهم الله تعالى ورضي عب
وهل يُثبت السلف كيفيةً للصفات المستفادة -بزعمهم- من هذه الظواهر، تك
بفوضونها؟

يقول الشيخ العثيمين عند شرح حديث النزول: «قوله ﷺ: «ينزل ربنا إلى الدنيا»: نزوله تعالى حقيقي؛ لأنه كما مر علينا من قبل: أن كل شيء كان الضمير يعود فيه - الله فهو يُنسب إليه حقيقة.

ثم قال: فعلينا أن نؤمن به ونصدق ونقول: ينزل ربنا إلى السماء الدنيا، وهي قبة السماوات إلى الأرض، والسماوات سبع، وإنما ينزل عز وجل في هذا الوقت من الليل لننزل من عباده جلّ وعلا.

ثم قال: بهذا يتبين أن المراد بالنزول هنا نزول الله نفسه، ولا نحتاج أن نقول بذاته - دام الفعل أضيف إليه فهو له. لكن بعض العلماء قالوا: ينزل بذاته، لأنهم لجئوا إلى ذ- واضطروا إليه، لأن هناك من حرّفوا الحديث وقالوا بل الذي ينزل رحمة الله» (٢) اهـ.

(١) عقيدة التوحيد وما يضادها لصالح الفوزان: (٦٤).

(٢) شرح الواسطية للعشيمين: (١٣/٢-١٥).

نقص الرابع: قول المجسمة أدعياء السلفية ومدقشهم فيه ﴿تَبَرُّوا نَجْمًا نَجْمًا نَجْمًا نَجْمًا﴾ ٢٠٧

أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴿[الأعراف: ٥٤]، وبين حقيقة المعية، في قوله تعالى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] كلاما يؤكد اعتقادهم التشبيه: «قد يجتمع علو والمعية في المخلوقات، كما سيذكر المؤلف -يعني ابن تيمية- في قول الناس: ما زلنا نسير والقمر معنا»^(١) اهـ.

فالشيخ يضرب المثل هنا: على أن الله تعالى يجوز أن يوصف بالمعنى الحقيقي الحسي للعلو، وبالمعنى الحقيقي الحسي للمعية لخلقه في اللحظة نفسها، من غير تعارض بين الوصفين، وشبه ذلك بقول الناس ما زلنا نمشي والقمر معنا!

ولا شك أن استدلال الشيخ بهذا المثل باطل، لعدة وجوه:

أولاً: النص القرآني المحكم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، يمنع التشابه بين الخالق والمخلوق بأي وجه من الوجوه. فمعية القمر وعلوه لا يشبهان معية الله تعالى وعلوه بأي وجه من الوجوه، والأحكام المترتبة على علو القمر ليست هي الأحكام المترتبة على علو المولى تبارك وتعالى، ولا تشبهها بأي وجه من الوجوه كذلك.

ثانياً: القمر لا يمشي مع الناس في أماكنهم، بل هو يتحرك بدقة بين منازلها ويقطع مساره الكوني الذي حدده له رب العالمين سبحانه، لكي يعرف الناس حساب الزمن، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢].

فعلى ذلك: لا ينطبق المثل المضروب على الصورة المطلوبة من هذا الوجه أيضاً.

ثالثاً: المشي في الحقائق اللغوية والعرفية والشرعية: هو التحرك على القدمين بقطع مسافة على الأرض من مكان إلى مكان. والمعلوم قطعاً أن القمر ليست له أقدام، ولا يمشي هكذا على الأرض مع الناس أبداً. فيجب حمل الألفاظ على معنى مجازي غير المعنى الذي تُقرره الحقيقة اللغوية الحسية، لأن المعنى الحقيقي الحسي مستحيل. ومفاد المعنى المجازي: أن القمر ما غاب عن عيونهم، لكونه مرتفعاً إلى مدى يجعل كل من تحته يرويه كأنه معهم.

كمالات محضة، بل هي بالإضافة إلى المخلوق كمال، وذلك بحسب وجوده وحقيقته، ولكن حقيقة الله تعالى تختلف عن حقيقة المخلوق، فقد يوجد بعض الصفات في المخلوق ولكنها نقص في حق الله تعالى، لأنها ليست في نفسها كمالات محضا^(١) اهـ.

وأقول مضيفا: بل إن ما يصح أن يكون كمالات في حق مخلوق، قد لا يكون كمالات في حق مخلوق آخر، مع أنها مشتركين في كونها مخلوقين، وذلك لأن نوع كل منهما يختلف عن نوع الآخر.

فعلى سبيل المثال: التيس الأقرن أكمل من التيس الذي لا قرون له، لأن القرون وسلامتها وصف كمال في التيس، فيصح أن يقال: هذا التيس أكمل من ذلك. ولو حدث أن طفلا وُلد بقرنين، فإن الأطباء والناس جميعا يعتبرون هذا تشوهاً في خلقته، والمشوه أنقص من معتدل الخلقة، لأن القرون في الإنسان نقص، على عكس القرون في التيس، فهي كمال له.

وبهذا تبين أن الكمال في حق التيس ليس بالضرورة كمالات في حق الإنسان، بل على العكس تماما في هذا المثال. فالقرون كمال للتيس ونقص معيب للإنسان، والمخلو من القرون كمال للإنسان ونقص للتيس، مع أن كليهما مخلوق. والسبب في ذلك اختلاف نوعيهما.

ويترتب عليه: أن اتصاف التيس ببعض الصفات التي هي كمال في حقه، لا يوجب اتصاف الإنسان بنفس هذه الصفات. فلا يصح أن يُستدل بصفة الكمال في التيس على اتصاف الإنسان بها، أو أنه أحق وأولى بها من التيس.

وأن رُقي الإنسان عن التيس في سلم المخلوقات لا يعني أن الإنسان أولى من التيس بصفات الكمال التي اتصف بها التيس. وأن كمال الإنسان لا يتوقف على اتصافه ببعض كمالات التيس، مع أن جنس الإنسان في عمومته أكمل وأكرم من جنس التيس! وقس على ذلك كل مخلوقين مختلفين في النوع.

فإذا كان اتصاف المخلوق الأدنى رتبة ببعض كمالاته لا يعني بالضرورة اتصاف

المخلوق الأرقى رتبة بنفس هذه الكمالات، أو أن المخلوق الأرقى أولى بهذه الكمالات من المخلوق الأدنى. فهل يصح أن يعني اتصافُ المخلوقات ببعض الكمالات أن الله تعالى متصف بها أو أنه أولى بها منها؟

وبعبارة أخرى: هل يصح الاستدلال باتصاف بعض المخلوقات بكمالات خاصة - على كونه تعالى متصفا بنفس الكمالات؟ وإذا كان كمال المخلوق لا يتوقف على اتصافه بشيء من كمالات مخلوق آخر، مهما كان المخلوق الأول أرقى وأكرم من المخلوق الثاني، فهل يصح أن يتوقف وصف الخالق بالكمال على اتصاف المخلوق بنفس الكمال؟

يقول العلامة سعيد فودة في ذلك: «إن الله تعالى له حقيقة هو بها إله، وهذه الحقيقة تتصف بصفات ويمتنع اتصافها بصفات أخرى. وامتناع اتصافها ببعض الصفات هو حقيقة كونه إلهاً. فالإله مثلاً من حيث كونه إلهاً، يستحيل قبوله صفة من صفات الإنسان - غير الإنسان من المخلوقات.

وحتى لو كانت هذه الصفة المفترضة كمالاً للإنسان، فلا يوجب ذلك اتصافه تعالى بها، لأنه ليس كل كمال للمخلوق فالحق يتصف به»^(١) اهـ.

وبعضهم أراد أن يتحلق على هذا الرد، فأضاف قيداً للسياق ليتخلص به من التشبيه. فقال: «كل كمال لا نقص فيه اتصف به المخلوق، فالخالق أولى به»^(٢)!

نقول: هل للمخلوق كمال لا نقص فيه؟ بل كل كمالات المخلوق يعتريها النقص فالإنجاب مثلاً كمالٌ للمخلوق، والمخلوق الذي ينجب أكمل من الذي لا ينجب، لكن عند التأمل يتبين لنا أن المخلوق يحتاج إلى الإنجاب لاستمرار نوعه على الأرض، فاتصفه بالإنجاب يُعدُّ كمالاً، لأنه يحقق له مصلحة لا تتحقق بمن لا ينجب، أما الخالق سبحانه فلا يحتاج إلى ذلك، بل هو غني عن الوالد والصاحبة والولد.

(١) نقض التلمذية لسعيد فودة: (١٤٦-١٤٧).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لسفر الحوالي: (٣١٩/١).

وكذلك المخلوق الذي يتحرك وله يد ورجل أكمل من الذي لا يتحرك ولا يد أو رجل له. وعند التأمل نجده يستخدم يديه ورجليه وحركاته في تدبير شئونه من جلب الخير ودفع الشر، أما الخالق سبحانه فكل شيء بأمره ورهن مشيئته، ولا يحتاج أن يتحرك فيحمل سيفاً لدفع عدوه أو ليتحصّل على نوع من الخير مثلاً! ^(١)

ولا اعتراض على أنَّ له المثل الأعلى سبحانه وتعالى، لأن معنى ذلك: أنه الذي يعلو على كل شيء، ولا يلحقه شيء بوجه من وجوه المشابهة في الذات أو في الصفات أو في الأفعال. فعندما يضاف إليه تعالى ما يضاف إلى المخلوق من الألفاظ، كالسمع والبصر والحياة والقدرة والإرادة وهذه المعاني، فهذا معناه أنه سبحانه وتعالى منزّه عن هذا الدرك الأسفل الذي يوصف به المخلوق، لأن معنى الأعلى: هو المتعالى المنزّه عن النقائص، وصفات المخلوقات كلها نقائص. وبذلك يندفع الوهم بوقوع المشابهة في عقل القارئ، لأنه عليم أن أوصافه سبحانه وتعالى من جنس آخر يختلف تماما عن جنس أوصاف المخلوق.

أما التعبير بلفظ القاعدة، أن: «كل كمال اتصف به المخلوق فالخالق أولى به» فيلزم منه أن الخالق سبحانه موصوف بكل كمال في المخلوقات، ويؤهم أن كمال الخالق مرهون باتصاف المخلوق بنفس نوع الكمال، وأن كمال المخلوق وكمال الخالق من نفس الجنس، لكنه يزيد في الخالق عن المخلوق، وهذا المعنى لا يصح. إذ هذا كمال من جنسٍ وذاك كمال من جنس آخر، ولا وجه للمشاكلة أو الاشتراك بينهما.

والحق: أن الله تعالى متصف بالكمال لأنه أهل الكمال، بغض النظر عن اتصاف
المخلوق بنوع من أنواع الكمال المشوب بالنقص عند من تأمله.

إذن فالقاعدة باطلة أشد البطلان، ولا يجوز التعويل عليها بوجه من الوجوه.

ثم يقول العثيمين عن المثال الذي ضربه شيخه للقمر: «فإذا كان هذا المخلوق - أي

(١) وكل ما ذكرناه في حق المخلوق هو نقص في الحقيقة وليس كمالاً، لأنه يدل على احتياج المخلوق لهذه الأوصاف والهيئات، ولولاها لا يمكنه العيش والاستمرار في الحياة سواء بنفسه أو بنوعه، والاحتياج أكبر دليل على العجز والنقص.

القمر - وهو من أصغر المخلوقات نقول إنه معنا وهو في السماء، ولا يُعَدُّ ذلك تناقض :- .
يقتضي اختلاطاً. فلماذا لا يصح أن نُجري آيات المعية على ظاهرها ونقول: هو معنا حقيقة.
وإن كان في السماء فوق كل شيء!«^(١) اهـ

قلت: ولا تحفى دلائل التشبيه والتجسيم على العاقل في هذا الكلام. فالشيخ يستكـ
على من يعترف بجواز الجمع بين علو القمر في السماء وبين معيته لمن يمشي على الأرض -
وهو لا يصح على الحقيقة كما وضحنا-، يستنكر عليه أنه لا يعترف بنفس المعنى لله عز وجل .
وأنه في السماء ومعنا في الوقت نفسه، بناءً على قاعدتهم التي فَنَدَّناها، في كون كمالات
المخلوق ثابتة للمخلوق من باب أوَّلٍ!

إثبات كيف والقول بِدَعِيَّةِ التفويض والتأويل:

ثم يقول العثيمين بعد ذلك: «وهذا الذي حققه شيخ الإسلام في كتبه، وقال: إنه -
حاجة إلى أن نُؤَوِّلَ الآية، بل الآية على ظاهرها....، فهو معنا حقاً، وهو على عرشه حق: كـ
نقول إنه ينزل إلى السماء الدنيا حقاً، وهو في العلو»^(٢) اهـ.

وإثبات الحقيقة اللغوية وظاهر الألفاظ الموهمة للتشبيه والمعنى الحسي واضح في كلام
الشيخ ولا يحتاج إلى بيان، وزاد عليه الشيخ اعتراضه على التأويل.
- ولم ينفرد وحده بالاعتراض على التأويل والتشنيع على المؤولين، بل أهل مذهب
جميعهم على ذلك.

يقول الدكتور صالح الفوزان: «فأهل السنة^(٣) يؤمنون بأسماء الله وصفاته التي سمي
الله تعالى بها نفسه أو سماها رسول الله ﷺ، من غير تحريف^(٤) ولا تعطيل، ومن غير تكيف

(١) شرح الواسطية للعثيمين: (٢/ ٨٢) .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٣) يقصد طائفته من الوهابية المجسمة، فقد سبق وذكرنا قول الحافظ ابن الجوزي الحنبلي في أسلافهم ومؤسسي
مذهبهم: أنهم ينسبون أنفسهم إلى السنة وإلى الإمام أحمد بن حنبل وهو منهم بريء.

(٤) يقصد التأويل بقوله: «من غير تحريف ولا تعطيل»، وسيأتي وصفهم للتأويل بما هو أشد.

ولا تمثيل، يؤمنون بها، ويثبتون معانيها وما تدل عليه. ولكن كيفيتها لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى»^(٢) اهـ.

واعتراضه على التأويل يجعل تفسير كلامه متجها إلى أنه يؤمن بالنصوص على حقيقتها اللغوية الحسية، وينسب هذا الرأي إلى أهل السنة، ولا مجال لأن نكون واهمين في فهمنا هذا عنه.

ويقول الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ^(٣): «قوله -يعني الإمام الطحاوي-: «بلا كَيْفِيَّةٍ» يعني بلا كيفية معقولة، وإلا فإنَّ كلام الله لاشك أنَّ له كيف، ولكن كيف غير معقول»^(٤) اهـ.

فهم يثبتون معاني هذه الألفاظ وما تدل عليه حقيقةً، على ما يقتضيه الحس كما سبق وأشرنا، ويفوضون الكيفية. خلافًا لطريقة السلف الذين ينفون الكيفية من الأصل، لأن الكيفية هيئة وصورة.

ويقول الدكتور محمد خليل الهراس: «وليس المراد من قوله: «من غير تكيف» أنهم ينفون كيف مطلقاً؛ فإن كل شيء لا بد أن يكون على كيفية ما، ولكن المراد أنهم ينفون علمهم بالكيف؛ إذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته إلا هو سبحانه»^(٥) اهـ.

(١) يقصد بقوله من غير تكيف أنه لا يحدد الكيفية. ولا يقصد أنه ينفي الكيفية كما مر في كلام ابن تيمية السابق، ويتضح ذلك من قوله في آخر كلامه «ولكن كيفيتها لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى»، فهو يثبت أن لها كيفية، لكنه يفوض معرفتها إلى الله. ولا يعلم أن السلف ينفون الكيفية من الأصل، لأن الكيفية هي الهيئة والصورة، وذلك محال على الله تعالى، وسيأتي من كلام السلف ما يثبت ذلك إن شاء الله تعالى.

(٢) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد للفضان (١٤٢/٢).

(٣) لقب آل الشيخ يطلق على أبناء الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي وذريته، ويلقبونه بشيخ الإسلام والشيخ المجدد، وهو مجدد بدعة الحشو والتجسيم في أرض نجد والحرمين والجزيرة العربية، وعنه تفرعت بدعة التجسيم والتكفير والتفسيق إلى بقية بلاد المسلمين، وله فوق ذلك طامات وبلايا في الفقه والاعتقاد. وقد رد عليه العلماء بما لا يدع مجالاً لمتشكك في أمره، ومن رد عليه أخوه الشيخ سليمان بن عبد الوهاب، وقد سبقت الإشارة إليه في التمهيد من هذا الكتاب.

(٤) إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل لصالح بن عبد العزيز آل الشيخ: (٨/٤).

(٥) شرح الواسطية للهراس: (١/٣٨)، معتقد أهل السنة والجماعة لمحمد بن خليفة التميمي: (١/٦٤).

قلت: وإثبات كيفية ما لشيء من الأشياء، تجسيم لا يقبل النزاع، لأنه تصوير له، وخذ
هيئة لا تخلو من حجم وحيز، وقد سبق توضيح ذلك في الفصل الثاني من هذا الباب.

- ثم إنهم يسمون التأويل تعطيلًا وتحريفًا وإلحادًا وابتداعًا، لكي ينفروا الناس عن
الاستماع لأهل السنة من علماء السلف الصالح وعلماء الخلف من الأشاعرة والماتريديين.
لخوفهم من انكشاف تلييسهم على الناس.

يقول صالح بن عبد العزيز آل الشيخ: «ومن الإلحاد -يريد في أسماء الله- أيضًا و...
بها عن الحق الثابت الذي يجب لله جل وعلا: أن تُؤَوَّلَ وتُصَرَّفَ عن ظاهرها لمعانٍ لا يخبر
أن تُصَرَّفَ إليها، فيكون ذلك من التأويل، ... فنؤمن بها ولا نصرفها عن حقائقها بتأويل
بمجاز، ... كل هذا نوع من أنواع الإلحاد»^(١) اهـ.

أي أن الشيخ يسمي التأويل والمجاز المستخدم في لسان العرب هنا إلحادًا!
ولننظر ماذا قال العلماء من السلف، ولا سيما من الصحابة الكرام، ولا سيما خبرنا
وترجمان القرآن عبد الله بن العباس رضي الله تعالى عنهما وأرضاهما.

قال الإمام القرطبي: «قال تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٠].
قال ابن عباس رضي الله عنه: الوجه عبارة عنه. وقال القرطبي أيضًا: أي ويبقى الله، فالوجه عبارة عن
وجوده وذاته سبحانه. وهذا الذي ارتضاه المحققون من علمائنا، ابن فورك وأبو المعني
وغيرهما»^(٣) اهـ.

(١) التمهيد لشرح كتاب التوحيد لصالح بن عبد العزيز آل الشيخ: (٥٠٨).
(٢) إمام الحرمين. قال الذهبي في السير (١٨/ ٤٦٨): الإمام الكبير شيخ الشافعية، عبد الملك بن الإمام أبي محمد
عبد الله بن يوسف الجويني، صاحب التصانيف. ولد ٤١٩ هـ. قال أبو سعد السمعاني: كان أبو المعني من
الأئمة على الإطلاق مجمعاً على إمامته شرقاً وغرباً لم تر العيون مثله. تفقه على والده، وأحكم الأصول عن
أبي القاسم الإسفراييني الإسكافي. صحب الوزير أبا نصر الكندري مدة يطوف معه ويلتقي في حضرة
بكبار العلماء وينظرهم، فتحنك بهم وتهذب وشاع ذكره، ثم حج وجاور أربع سنين يدرس ويفتي ويخبر
طرق المذهب إلى أن رجع إلى بلده، فدرّس بنظامية نيسابور واستقام الأمر، وبقي على ذلك ثلاثين سنة من
مزاحم ولا مدافع، مسلماً له المحراب والمنبر والخطبة والتدريس، ومجلس الوعظ يوم الجمعة، وغيره
تصانيفه، وحضر درسه الأكابر والجمع العظيم من الطلبة، وتفقه به أئمة. توفي سنة ٤٧٨ هـ. وانظر ترجمته
في بقية كتب التراجم والطبقات.

(٣) تفسير القرطبي: (١٧/ ١٦٥).

- وأما عن مخالفة تفسير نزوله تعالى بأنه ينزل أمره أو ملك من ملائكته للظاهر حـ الذي يدل عليه اللفظ: فَتَعَمُّ، ولا تُقَرُّ أبداً أن الله تعالى يشبه الأجسام، فينحدر من أعلى . أسفل، ويحل في مكان ليخلو منه مكان آخر. لأن هذا هو المعنى الحقيقي الحسي — النزول، ولا حقيقة غيره للنزول عند العرب.

وأما ادعاء الشيخ على التأويل وتفسير لفظ «ينزل ربنا» بنزول الأمر أو نزول — بأنه مخالف لإجماع السلف الصالحين. فهذا هو قول الإمام أحمد نفسه يخالف كلام العتيبي. ويؤول النزول بأنه ملك ينزل بأمر الله تعالى، فيجمع في كلامه المعنيين اللذين اعترض عب الشيخ، وادعى أنهما خلاف كلام السلف الصالح.

قال الإمام أحمد: «وهذا النزول المراد به والله أعلم: فِعْلٌ سَمَاهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَزُولاً، بِلَا انْتِقَالٍ وَلَا زَوَالٍ. أَوْ أَرَادَ بِهِ نَزُولَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ بِأَمْرِهِ»^(١) اهـ.

فَمَنْ الْأَوَّلَى بالتصديق عندما يتكلم عن السلف؟ هل نصدق الإمام أحمد و — الترمذي وأمثالهما رحمهما الله وهما من السلف، وقد نقلنا عنهما ما يخالف عقائد المنج وأقوالهم؟ أم نصدق الشيخ ابن باز والشيخ ابن عثيمين وغيرهما ممن يعيشون معنا، و — وبين السلف خمسة عشر قرناً من الزمان!!

تشويه صورة أهل السنة الأشاعرة والماتريدية والطنع فيهم بالباطل:

- ولم يقف الأمر عند التهويش بوصف الأشاعرة بأنهم ملحدون ومجربون. ومعتلون. بل تجاوز ذلك إلى الشتم بالفاظ لا تصدر عن إنسان سويٍّ من عامة الناس. فضلاً عن أن يكون عالماً وقادة يحتذي العوام أفعاله.

قال الشيخ ابن تيمية: «كما يقال الأشعرية مخانيث المعتزلة، والمعتزلة مخبي — الفلاسفة!! ... ثم قال بعد ذلك في كلام لاحق: وإنما اعتقادهم أن القرآن غير موجه. لفظته الجهمية الذكور بمرة، والأشعرية الإناث بعشر مرات!!»^(٢) اهـ.

(١) شعب الإيمان لليهقي: (٣/ ٣٨٠).

(٢) بيان تلبس الجهمية لابن تيمية، (١/ ٢٧٢) و(٢/ ٤٠١)، وانظر كذلك مجموع الفتاوى: (٦/ ٦٠٠).

و(١٦/ ٣٠٩)، وانظر الفتاوى الكبرى: (٦/ ٦٤٨)، وإقامة الدليل على إبطال التحليل: (٥/ ٣١١).

فهل التلُّفُظُ بمثل هذا مما يليق بعالم من علماء المسلمين؟ فضلاً عن التهمة الكاذبة مدعرة أنهم ينكرون وجود القرآن. وقد سبق أن أفضنا في الكلام عن تشنيعهم وتجريحهم من السنة الأشاعرة والماتريدية بالباطل، في مبحث التجسيم في الفكر الإسلامي.

- وليس أدل على التلّيس المتعمّد من أنهم يكذبون عمداً ويدّعون زوراً وبهتاناً على - السنة من الأشاعرة والماتريدية، ليصرفوا الناس عنهم، فينسبون إليهم أقوالاً ومذاهبَ البدع. وينتج عن ذلك أن القارئ الذي لم يطلع على كتب أهل السنة الأشاعرة - تريدية يُصدّق ذلك، لثقته في أدعياء السلفية وإحسان ظنه بهم.

يقول عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: «إذا كان المشركون جحدوا اسماً من أسماؤه - وهو من الأسماء التي دلت على كماله سبحانه وبحمده، فجحدوا معنى هذا الاسم حظه من الأسماء يكون كذلك. فإن جهم بن صفوان ومن تبعه يزعمون أنها لا تدل على سنة قائمة بالله تعالى، وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم. فلذلك - هم كثيرون من أهل السنة.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى:

ولقد تقلد كُفَرُهم خمسون في عشرٍ من العلماء في البلدان

فإن هؤلاء الجهمية ومن وافقهم على التعطيل جحدوا ما وصف الله به نفسه ووصفه رسولُه من صفات كماله ونعوت جلاله، وبنوا هذا التعطيل على أصل باطل أصْلُوهُ من أنفسهم. فقالوا: هذه الصفات هي صفات الأجسام، فيلزم من إثباتها أن يكون الله - هذا منشأ ضلال عقولهم»^(١) اهـ.

فالرجل لم يتورع عن أن يضع الأشاعرة الذين يُثبتون لله صفاتٍ قائمةً به تعالى، مع حنمية والمعتزلة الذين ينكرون اتصافه تعالى بصفاتٍ أصلاً. مع أن الفرق بين مذهب حنمية والمعتزلة نفاة الصفات وبين مذهب الأشاعرة مثبتة الصفات يعرفه أصغر طالب سمع في الأزهر أو الزيتونة أو مدارس الشام أو حتى في كتاتيب موريتانيا!

قلت: تعمد الشيخ التحريف من وجهين:

أولهما: ادّعاء إجماع أهل السنة على أن العينين اثنتان! فمن أين له هذا الإجماع؟ وكيف توصل هو إليه ولم يتوصل إليه واحد من نقلوا لنا كل شيء عن السلف من أقوالهم وأعمالهم وأحوالهم، ولو وجدوا سبيلاً إلى نقل نواياهم ومعرفة خبايا صدورهم ما تأخروا عن ذلك لحظة!

ثانيهما: أن الحديث الذي ساقه ليستدل به لا يصلح دليلاً على ما يدعيه، فالحديث يصف الدجال للناس حتى لا ينطلي كلامه على من يدرك زمانه، فيعلم السامع أن الأعور نذري يدعي الألوهية هو الدجال وليس رب العالمين. كما أن الحديث فيه تنزيه للمولى سبحانه من النقص الذي يلحق الخلاق، فأين إثبات العينين الاثنتين في هذا الحديث؟!

يقول القاضي أبو بكر بن العربي^(١): «هذه الإشارة في النفي لا في الإثبات، وفي تقديس لا في التشبيه»^(٢) اهـ.

ومعنى كلام القاضي: أن قوله ﷺ: «ليس بأعور» مقصودٌ به نفي العور الذي هو نقصٌ عنه سبحانه وتعالى، لا إثبات أن له عينين. ويُفهم منه تنزيه الله جل وعز عن هذه النقيصة، ولا يقصد منه أبداً تشبيه المولى بخلقه السالمين من العور!

لكن الشيخ رحمه الله لكونه يعتقد التشابه بين الله تعالى وبين الآدميين في بعض الأمور، قس الخالق على الآدمي. ولأن الآدمي طالما كان بريئاً من العور فلا بد أن يكون له عينان، كذلك الله سبحانه وتعالى عند الشيخ لا بد أن يكون ذا عينين طالما أنه ليس موصوفاً بالعور!

قال الشيخ وهبي غاوجي الألباني: «وقال ابن بطل: احْتَجَّتْ المجسمة بهذا الحديث،

(١) قال ابن بشكوال في الصلة (١/ ١٢٩): الإمام العالم الحافظ المستبحر. من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها، متقدماً في المعارف كلها، متكليماً في أنواعها، نافذاً في جميعها، حريصاً على أدائها ونشرها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب منها، اهـ. وقال الذهبي في السير (٢٠/ ٢٠٣): كان القاضي أبو بكر ممن يقال: إنه بلغ رتبة الاجتهاد، اهـ. توفي سنة ٥٤٣هـ.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي: (٤/ ١٦٩).

٢٢٤ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ الانتصار لأهل السنة وكشف مذهب أدعياء السنة

وقالوا: في قوله «وأشار بيده إلى عينه» دلالة على أن عينه كسائر الأعين، وتُعَقَّبَ باستحداد الجسمية عليه، لأن الجسم حادث وهو قديم، فدلَّ على أن المراد نفي النقص عنه^(١) اهـ.

والعجب كل العجب عندما يصدر من الشيخ ابن تيمية -وهو الذي ينتسبون إليه- ويريدون حمل جميع المسلمين على مذهبه وكلامه-، العجب عندما يصدر منه ما يُكذَّب ادعاء ابن عثيمين أن الله تعالى عينين يبصر بهما، وتكذيب أنه مذهب السلف!

يقول ابن تيمية في جواب النصارى: «ولا يُعرف عالم مشهور من علماء المسلمين -و- طائفة مشهورة من طوائفهم يطلقون العبارة التي حكوها عن المسلمين. حيث قالوا عنهم إنهم يقولون إن الله عينين يبصر بهما، ويدين يبسطهما، وساقاً، ووجهاً يوليه إلى كل مكان -و- وجناباً!! ولكن هؤلاء ركبوا من ألفاظ القرآن بسوء تصرفهم وفهمهم تركيباً زعموا -و- المسلمين يطلقونه، وليس في القرآن ما يدل ظاهره على ما ذكروه!!»^(٢) اهـ.

ولعل ابن تيمية رحمه الله سطر هذا الكلام قبل أن يندفع في نصرة مذهب الحشوية ويكتب مصنفاته المعروفة بنصرة المذهب الذي رد عليه في الفقرة السابقة، والله تعالى أعلم.

دعوى إجماع السلف على مذهبهم:

- ويلاحظ أنهم يكثرون من قولهم: «هذا ما أجمع عليه السلف» كما فعل ابن عثيمين في الكلام الذي نقلناه منذ قليل. وعندما تبحث في أقوال السلف تجد الكثيرين من عبيد السلف يخالفون الكلام الذي يذكره هؤلاء، ويؤوَّل بعضهم النصوص الموهمة للتشبيه بـ يفوّض معانيها، وقد نقلنا مثاليين على ذلك. فلا ندري كيف يسوغ للقوم هذا الادعاء، ثم تبديع الناس من خلال ادعائهم!

ونعيد ما ذكره الإمام القرطبي: «قال تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، قال ابن عباس رضي الله عنه: الوجه عبارة عنه. وقال القرطبي أيضاً: أي ويبقى الله.

(١) حاشية إيضاح الدليل في قطع شبه أهل التعطيل لبدر الدين ابن جماعة، بتحقيق وهبي غاوجي الألباني (٧٧).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية: (٤/ ٤١٢).

فألوجه عبارة عن وجوده وذاته سبحانه. وهذا الذي ارتضاه المحققون من علمائنا، ابن فورك وأبو المعالي وغيرهم»^(١) اهـ.

فإن لم يكن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من السلف الذين يدعي الشيخ إجماعهم على ما يقول، فَمَنْ هؤلاء السلف الذين يحكي عنهم الشيخ وفرقه؟!

والذي ذهب إليه الأشاعرة والماتريدية في هذه النصوص هو عين ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وله تأويلات أخرى سننقلها في مبحث تأويل السلف إن شاء الله تعالى، حتى يتبين الحق لمن أراد.

فإن جاز اتهام الأشاعرة والماتريدية بالتعطيل والابتداع والتحريف والإلحاد، جاز ذلك على ابن عباس، وحاشاه أن يقول في الله تعالى ما ليس له به علم، وهو الذي دعا له سيد الخلق ﷺ بالفقه في الدين وعِلْم التَّوِيل.

وكذلك يدعي الشيخ ابن باز إجماع السلف على رفض التفويض وتبديع من يفوض، فيقول: «وقد أنكر الإمام أحمد رحمه الله وغيره من أئمة السلف على أهل التفويض ويَدْعُوهُمْ»^(٢) اهـ.

وكلام الشيخ صريح لا يحتمل التأويل في الكلام على لسان الإمام أحمد وأئمة السلف، ليوهم القارئ أن تبديع من يفوض معنى النصوص إلى الله هو مذهب أحمد والسلف، مع أن الحق غير ذلك.

وقد نقلنا ما ذكره الإمام الترمذي في السنن عن قول السلف، وأنهم يفوضون معنى هذه النصوص الموهمة للتشبيه إلى الله جل وعلا^(٣). ولا بأس أن نضيف نصاً آخر للإمام أحمد يثبت خطأ الشيخ ابن باز وتسرعه في العزو إلى السلف وإلى الإمام أحمد.

قال الإمام أحمد: «واعلم أن الله تعالى بصفاته ليس كالإنسان، والرؤية حق لأهل الجنة من

(١) تفسير القرطبي: (١٧/١٦٥).

(٢) مجموعة فتاوى ومقالات متنوعة لعبد العزيز بن باز: (٣/٥٥).

(٣) راجع علامة رقم (٤٣١) من هذا الكتاب.

الفصل الرابع: قول المجسنة أذعياء السلفية ومنقشتهم فيه ﴿تَقْرَأُ الْقُرْآنَ يُفْهِمُكَ أَلْفَ نَفْسٍ﴾ ٢٢٧
على الناس من الآراء والأفعال وَيَدْعُونَ فُحْشَهُ وَخَطَأَهُ-، تجدهم ينقلبون انقلاباً كاملاً،
ويسمون به بأي اسم آخر!

يقول الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، جواباً على تفسير السلف لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ
مَعَكُمْ أَيَّنَمَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] أنه «معهم بعلمه»: «ولهذا؛ شيخ الإسلام في عقيدته الأخرى
المباركة المختصرة؛ بيّن أن قوله تعالى: ﴿مَعَكُمْ﴾ حَقٌّ على حقيقته. فمن فسرهما من السلف
بالمقتضى، فلحاجة دعت إلى ذلك، وهو الرد على أهل الحلول الجهمية الذين ينكرون العلو
كما تقدم. والقرآن يفسّر بالمطابقة وبالمفهوم وبلاستلزام والمقتضى وغير ذلك من الدلالات،
وهؤلاء العلماء الذين رَوَى عنهم التفسير بالمقتضى لا ينكرون المعية، بل عندهم
كالشمس»^(١) اهـ.

قلت: المقتضى هنا هو تفسير السلف للمعية بأنها معية علم وإحاطة، وليست معية
ذات ومصاحبة واختلاط، اقتضت هذا التفسير ضرورة تنزيه الله تعالى عن مشابهة خلقه في
المعية الجسمانية. وهذا التأويل لضرورة التنزيه، الذي يسميه الشيخ هنا -حاجة دعت إلى
ذلك-، هو أحد قَوْلِي الأشاعرة في المسألة. فلماذا الصراخ والتشغيب إذن؟!

وكذلك فعل الشيخ ابن باز، عندما نقل الشيخ محمد علي الصابوني ما يثبت أن السلف
يؤولون النصوص الموهمة للتشبيه عند الضرورة.

قال ابن باز تحت عنوان «لا يجوز أن يُنسب تأويل الصفات إلى السلف بحال من
الأحوال»: «ولا يجوز أن يُنسب التأويل إلى أهل السنة مطلقاً، بل هو خلاف مذهبهم، وإنما
يُنسب التأويل للأشاعرة وسائر أهل البدع الذين تأولوا النصوص على غير تأويلها. أما
الأمثلة التي مثل بها الأخ الصابوني للتأويل عند أهل السنة، فلا حجة له فيها. ليس كلامهم
فيها من باب التأويل، بل هو من باب إيضاح المعنى، وإزالة اللبس عن الناس في معناها!
وهاك الجواب عنها:

(١) فتاوى ورسائل محمد بن إبراهيم آل الشيخ، تقريراً على الحموية لابن تيمية: (١/ ٢١٢-٢١٣). وانظر شرح
الواسطية لصالح بن عبد العزيز آل الشيخ: (١/ ٤٧٧).

وسياقي الكلام إن شاء الله تعالى عن تناقض موقفهم من التأويل وتغيره بشكل يثير العجب، وما ذاك إلا لكون قواعدهم التي بنوا عليها مذهبهم متهافة غير مطردة.

ومن خلال ما سبق عرفنا أن التأويل إن كان لضرورة - كنسبة النقص إليه تعالى - فلا بأس فيه، بل هو واجب في هذه الحالة. وعلى ذلك فحول علماء الأمة من السلف والخلف، على عكس ادعاء المجسمة.

التأويل عند أهل السنة الأشاعرة والماتريدية للضرورة فقط:

قال سلطان العلماء العز بن عبد السلام: «وليس الكلام في هذا - يعني التأويل - بدعة قبيحة، وإنما الكلام فيه بدعة حسنة واجبة لما ظهرت الشبهة. وإنما سكت السلف عن الكلام فيه إذ لم يكن في عصرهم من يحمل كلام الله وكلام رسوله على ما لا يجوز حمله عليه، ولو ظهرت في عصرهم شبهة لكذبهم وأنكروا عليهم غاية الإنكار، فقد رد الصحابة والسلف على القدرية لما أظهروا بدعتهم، ولم يكونوا قبل ظهورهم يتكلمون في ذلك»^(١) اهـ.

وقال الإمام النووي: «فإن دعت الحاجة إلى التأويل لرد مبتدع ونحوه تأولوا حينئذ، وعلى هذا يُحمل ما جاء عن العلماء في هذا»^(٢) اهـ.

وقد نقلنا عن البيجوري قوله: «والحاصل: أنه إذا ورد في القرآن أو السنة ما يُشعر بإثبات الجهة أو الجسمية أو الصورة أو الجوارح، اتفق أهل الحق وغيرهم ما عدا المجسمة والمشبّهة على تأويل ذلك، لوجوب تنزيهه تعالى عما دلّ عليه ما ذُكر، بحسب ظاهره»^(٣) اهـ.

فوجود ما يُشعر بإثبات الجسمية والجهة والنسيان والجوارح وغيرها من صفات الحدوث، هو الضرورة التي تدعو أهل السنة للتأويل، والذي سماه محمد بن إبراهيم آل الشيخ تفسيراً بالمقتضى وأباحه إن دعت له الحاجة للرد على المبتدعة، والذي سماه ابن باز

(١) فتاوى العز بن عبد السلام: (٢٢)، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل لبدر الدين بن جماعة: (٢٤).

(٢) المجموع شرح المذهب للنووي (٢٥/١).

(٣) تحفة المريد على جوهر التوحيد للبيجوري: (٥٦-٥٧).

إيضاح المعنى وإزالة اللبس، هروباً منهما من تسميته باسمه المصطلح عليه بين أهل لغة وهو (التأويل) الذي يشنعون عليه. وإذا لم يكن تَنْزِيه الله تعالى عن مشابهة خلقه ضرورة، فأى ضرورة بعدها تلجئ أهل الحق إلى التأويل؟

وأعجب من تناقضهم في رفض التأويل تارة والعمل به تارة أخرى، هو دفع الأخبار الواردة عن السلف في التأويل أو التفويض، بدون حجة علمية مقبولة.

دفع أدياء السلفية للآثار المروية عن السلف بدون وجه معتبر إذا خالفت مذهبهم:

أخرج الحافظ البيهقي عن الحاكم عن أبي عمرو بن السكاك عن حنبل: «أن أحمد بن حنبل تأوّل قول الله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] أنه: جاء ثوابه. ثم قال البيهقي: وهذا إسناد لا غبار عليه»^(١) اهـ.

يقول الدكتور صالح الفوزان تعليقاً على ذلك: «ما نسبته البيهقي إلى الإمام أحمد، يثبت عنه، ولم يوثقه من كتبه أو كتب بعض أصحابه، وذكر البيهقي لذلك لا يُعتمد؛ لأن البيهقي رحمه الله عنده شيء من تأويل الصفات، فلا يوثق بنقله في هذا الباب، لأنه ربما يتساهل في النقل»^(٢)!

تأمل أن الحافظ البيهقي نقله بسند صحيح لا غبار عليه، فلا يُحتاج مع هذا الإسناد في توثيقه من كتبه أو كتب بعض أصحابه. ولنسمع يوماً أن هذا التوثيق الكتابي الخطي شرع من شرائط صحة النقل المعتمدة عند المحدثين. خاصة وقد صح السند المنقول به.

فهل كلُّ ما ينطق به إمام من الأئمة -وخاصة المحدثين- ينبغي أن يكون مدوّن في كتاب من كتبه أو من كتب أصحابه؟ فمن المحتمل أن يكون قد سئل عن تفسير الآية في الحديث ولم يدوّن هذا التفسير في كتبه، ولا يمنع من ذلك شيء. بل هو مستفيض الشهرة في أحوال علماء السلف، وواقعٌ مُشاهد في حياة الشيوخ المعاصرين وإجاباتهم عن الأسئلة التي

(١) البداية والنهاية لابن كثير: (١٠/٣٦١)، ودفع شبه التشبيه لابن الجوزي بتحقيق حسن السقاف: (١٣).

(٢) تعقيبات علي كتاب السلفية للبوطي: (٣٣).

نُحْصِلُ الرَّابِعَ: قَوْلُ الْجَسَمَةِ أَدْعِيَاءَ السُّلْطَانِيَّةِ وَمُنْكَشْتِهِمْ فِيهِ ﴿٢٣١﴾

توجه إليهم. فما المشكلة في أن ينقل عنه حنبل هذا القول ويتلقاه عنه تلاميذه ويصل إلى الإمام البيهقي بإسناد صحيح؟

وكثيراً ما يوجد في كتب المحدثين كابن حبان والترمذي وأبي داود وغيرهم: «سئل أحمد أو البخاري أو غيرهما عن حديث كذا فقال كذا»، وهذا القول ليس له وجود في كتب الإمام أحمد ولا كتب البخاري ولا كتب تلاميذهما. فهل تُسْقَطُ هذا القول بعد روايته بإسناد صحيح لعدم وجوده في كتبهما؟!^(١)

وقد كان تدوين السنة النبوية الشريفة وتدوين فتاوى الصحابة والتابعين وأقوال أئمة الحديث والفقه والاعتقاد في بداياته قائماً على هذا الحفظ والاختزان في ذاكرة المحدثين، فهل نشكك بالسنة النبوية وآثار الصحابة والتابعين لكون ما نقله الأئمة غير ثابت بخط النبي ﷺ ولا بخط أحد من أصحابه أو تابعيهم؟^(٢)

وتأمل هذا الاحتمال البارد الذي ضَعَّفَ به ثبوت هذا النقل عن الإمام أحمد، وهو احتمال تساهل البيهقي لهوى في نفسه وميل إلى التأويل! فأي قيمة لهذا الاحتمال مع تصريح الإمام البيهقي بسنده الذي لا غبار عليه، وهو مَنْ هو في علم الحديث والشهرة بالأمانة والتوثيق عند أهل العلم جميعهم. وتأمل كيف يغيب الحد الأدنى من المنهج العلمي في جوابهم! بل إن كلامه في حق الحافظ البيهقي هنا طعنٌ صريح في نزاهته وأمانته، وادعاءً بأن البيهقي رحمه الله تعالى من أولئك الناس الذين يخفون ما يتعارض مع مذهبهم ويبرزون ما يوافقه من الآثار، وهذا يُعَدُّ في عرف المحدثين كبيرة من الكبائر، تُسْقَطُ العدالة وتقدح في رواية من ثبت عنه ذلك.

تأمل أيضاً غياب المنهج والإنصاف في قوله: «الحافظ ابن حجر أول الضحك بالرضا، والحافظ رحمه الله متأثر بمذهب الأشاعرة، فلا عبرة بقوله في هذا»^(١)!! وقوله: «الخطابي رحمه الله ممن يتأولون الصفات، فلا اعتبار بقوله ولا حجة برأيه، وله تأويلات كثيرة، والله يعفو عنا وعنه»^(٢)!

(١) تعقيبات على كتاب السلفية للبوطي: (٣٤).

(٢) المصدر السابق: (٣٦).

قال ابن باز في كلام نأخذ منه مقتطفات: «اطلعتُ على الكتاب، فوجدته كتاباً قبيحاً عظيماً الفائدة، قد ذكر فيه الأحاديث الصحيحة الواردة في خلق آدم على صورة الرحمن، وفيما يتعلق بمجيء الرحمن يوم القيامة على صورته. وقد أجاد وأفاد وأوضح ما هو الحق في هذه المسألة، وهو أن الضمير في الحديث الصحيح في خلق آدم على صورته يعود إلى الله عز وجل، وهو موافق لما جاء في حديث ابن عمر: أن الله خلق آدم على صورة الرحمن. وقد صحَّحه^(١) لإمام أحمد وإسحاق بن راهويه والآجري وشيخ الإسلام ابن تيمية وآخرون من الأئمة رحمة الله عليهم جميعاً. وقد بين كثير من الأئمة خطأ الإمام ابن خزيمة رحمه الله في إنكار عود ضمير إلى الله سبحانه وتعالى»^(٢) اهـ.

قلت: هل بعد هذا البيان شيء يشهد أن القوم مُشَبَّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ بعيدون كل البعد عن عقيدة السلف الصالح ومنهجهم، وأنهم أقرب الناس فهماً واعتقاداً إلى الكرامية المجسمة.!

فابن باز يذكر أن الحق والصواب في الضمير الوارد في الحديث أنه يعود إلى الله سبحانه لا إلى آدم عليه السلام. ويحتج بتصحيح بعض العلماء للحديث. رغم أن الحكم على سند الصحة لا يعني أنهم صححوا فهمه لمذلول النص! ولا أدري كيف بنى هذا على ذلك! كما لا ندري من أولئك الأئمة الكثيرون الذين وافقوه على هذا الرأي الذميمة، إلا أن يكونوا من أئمة التجسيم والفهم السقيم!

حتى أن ابن خزيمة رحمه الله تعالى -وهو يوافقهم في كثير من الأقوال- عارضهم وذكر أن الضمير يعود إلى آدم عليه السلام، وليس إلى رب العزة سبحانه، لما في ذلك القول من قبح التصريح بالتشبيه.

كما أن إرجاعهم الضمير إلى الله سبحانه ينقض قولهم بتفويض الكيفية وقولهم: «على وجه يليق به»، أو صورة ليست كصورنا، مثلما يقولون يد ليست كأيدنا ووجه ليس كوجوهنا، وغير ذلك من العبارات التي يريدون بها الهروب من الإلزامات التي تلحق

(١) يعني صحح سند الحديث، لا فهم التوجيهي.

(٢) تقرظ ابن باز لكتاب «عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن»، لحمود التويجري، ص: (د).

مذهبهم. لأنهم بذلك أثبتوا كيفية معلومة محددة، وهي صورة آدم عليه السلام وصورة -
فإنه كَمَ تفويض الكيفية الذي يقولونه به. ولا يخرجون من وحل التجسيم والتشبيه إلا بتدليس -
لفظ الصورة أو بإرجاع الضمير إلى آدم عليه السلام.

قال الإمام النووي ناقلا عن المازري: «العجب من ابن قتيبة في قوله: «صورة» كالصور». مع أن ظاهر الحديث على رأيه يقتضي خلق آدم على صورته، فالصورتان على سواء. فإذا قال: «لا كالصور» تناقض قوله، ويقال له أيضا: إن أردت بقولك «صورة» كالصور» أنه ليس بمؤلف ولا مركب، فليس بصورة حقيقة وليست اللفظة على ظاهره. وحينئذ يكون موافقا على افتقاره إلى التأويل»^(١) اهـ

الكيل بعدة مكاييل:

والملاحظ إن ابن باز لم يعلق بشيء على استشهاد التويجيري بكتب اليهود والنصارى ونصوصهم المحرفة المكذوبة بكلمة واحدة، في حين أن تشنيعه وتشنيع طائفته على اليهود والأحاديث الضعيفة والموضوعة في كتب التصوف والآداب والرقائق، ولا سيما كتب حامد الغزالي، وبالأخص إحياء علوم الدين، بلغ مبلغاً عظيماً، جعل بعض القائمين على إحدى المجلات الوهابية المعتمدة عندهم، والواسعة الانتشار في العالم تُدرجُ كتاب إحياء علوم الدين ضمن قائمة تسمى: «كتب حذر منها العلماء»^(٢). مع أنه كتاب رقائق وتزكية في الأصل وليس كتاب فقه ولا اعتقاد في أصله، ولم يذكر الغزالي رحمه الله حديثاً ضعيفاً واحداً محتج به في العقيدة!

ولعل الكثيرين من العلماء وطلبة العلم عانوا من هذه الطائفة عند الكلام والمناقشة في أمور فرعية. سواء في بعض العادات، كشرب الماء في وضع الوقوف أو القعود، ومعدن القادم من السفر، والقيام للغير وتقبيل يده، والأخذ من اللحية وتهذيبها والمصافحة بعد

(١) شرح صحيح مسلم للنووي: (١٦٦/٦).

(٢) هي مجلة «التوحيد»، التي تصدرها جماعة أنصار السنة المحمدية في مصر، وتحظى بالدعم والرعاية من ذوي السلفية في مختلف بلاد المسلمين.

السموات والأرض، ولا يمكن أن يكون الله ظلاً من الشمس، فتكون الشمس فوقه -
بينها وبين الخلق!، وَمَنْ فَهَمَ هذا الفهم فهو بليدٌ أبلدٌ من الحمار! ثم يقول مؤكِّداً: -
 يكون المراد بالظل ظلُّ الرب عز وجل؟ لكن كما قلتُ: بعض الناس أجهل من احـ
 يدري ما يترتب على قوله الذي يقوله في تفسير كلام الله وكلام رسوله ﷺ^(١) اهـ.

- لا يخفى أنه هنا قد خالف قاعدته السابقة التي اعتمد عليها في إثبات الملـ صـ
 عز وجل. ورفض ما أقرّه ابن باز على أنه عقيدة السلف، رغم أن ابن باز مستند بـ -
 القاعدة المعتمدة عندهم. فما الفرق بين هذا النص وبين غيره في كونه يمكن الاستدـ -
 على صفة أو لا؟

فلا معنى لاستعمال القاعدة في حالة من الحالات التي يُحكّم عليها بها وعدم سـ -
 في حالة أخرى مماثلة لها إلا التّشهيّي واتباع الهوى، فيستعملها الشخص وقتما يريد ويتحدـ -
 وقتما يريد.

- كما أنّ رَفْضَهُ لإثبات الظل لم يكن تنزيهاً للمولى تبارك وتعالى عن الجسمية. بـ -
 بسبب اعتقاده جِسْمِيَّةَ المولى تعالى وتَقَدَّسَ! وذلك أن الشيخ وأهل مذهبه يعتقدون -

(١) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين: (٣/٣٤٧). وهنا وقفة تثبت أن القوم لا يتورعون عن -
 والخذاع في المطبوعات والمنشورات بما يخدم مذهبهم ولا يقدح فيه. فقد حصلتُ على نص -
 عثيمين وتعليقه على الحديث من موقع خيرية ابن عثيمين على الإنترنت

http://www.ibnothaimeen.com/all/books/printer_١٨٢٠٠.shtml

ثم بحثت عن هذا النص في الكتاب من خلال برنامج المكتبة الشاملة للتأكد من صحة نسبة النـ -
 ولكنني لم أجد أي إشارة له من قريب أو بعيد. ثم بحثت على الشبكة عن نسخة مصورة pdf - -
 فوجدت نسخة على «ملتقى أهل الحديث» وهو موقع وهابي معروف، ولم أجد كذلك أي إشارة بـ -
 ثم بحثت مرة أخرى حتى وجدت النسخة التي أحلتُ إليها في ثبوت المراجع وفيها نصُّ كلامه. فعـ -
 القوم أدركوا مخالفة ابن عثيمين وقَدَحَهُ في فهم ابن باز فقاموا بحذف كلامه دون أي إشارة إليه. -
 القارئ والمطلع على الكتاب في الشاملة أو هذه النسخة المصورة أن هذا فقط هو المكتوب. وقيـ -
 من الكلام دون الإشارة أو التلميح تكرر منهم أكثر من مرة في عدة كتب. والقوم مشهورون منذ -
 باستحلال الحذف والتغيير والتبديل والكذب في سبيل نصره مذهبهم.

ويقول أيضا: «ومن أثبت الأصابع لله فكيف ينفي عنه اليد والأصابع جزء من بيده؟!»^(١) اهـ. ولا يخفى شناعة التعبير بالجزء وقياسه على الإنسان.

ويقول معلقا على حديث النزول: «يعني أن نزوله إلى السماء الدنيا يقتضي وجوده تربها، فإنه انتقال من علو إلى سفل»^(٢) اهـ. والانتقال من علو إلى سفل هو انتقال الأجسام تي تقطع المسافة من علو إلى سفل.

فهل يصح بعد كل هذا أن تُسوَّق هذه العقيدة الفاسدة بين المسلمين على أنها عقيدة رسول ﷺ وأصحابه والتابعين وتابعيهم من أهل السنة والسلف الصالح؟ وهل يصح نؤنك المبتدعة أن يتهموا من أجلها أكابر علماء المسلمين بالابتداع والضلال، وأن جرحوهم بسببها من دائرة أهل السنة والجماعة؟

فليت شعري. ما هو الآن رأي الذين يريدون منا السكوت على انتشار مثل هذه خرعبلات في حق الله سبحانه وتعالى؟ ويطلبون منا التغاضي عن تكفيرهم وتبديعهم لأكابر علماء، حرصا على وحدة الصف المسلم من التمزق؟

بل الصف قد تمزق حقا وأصبح أشلاء متناثرة على يد هؤلاء المجسمة، الذين لم يرقبوا في علمائنا إلا ولا ذمة، ولم يحفظوا لهم جميلهم ولم يعرفوا لهم فضلهم، فحسبنا الله ونعم مؤكِّل.

(١) المرجع السابق، ص: (٦٣).

(٢) المرجع السابق، ص: (١٢٦).

الفصل الخامس

النصوص المروية عن السلف في تفويض المعنى مع نفي الكيفية أو العمل بالتأويل

إذا كان المجسمة يدعون أنهم على مذهب السلف، فهذه نصوص من كلام أكابر علماء السلف تثبت كذب أدعياء السلفية وتفضح تفوُّههم وتزويرهم. وحتى لا يتشتت ذهن القارئ الكريم، سأذكر قول أهل السنة وقول أدعياء السلفية مرة أخرى بصورة مختصرة في هذا الباب.

قال أهل السنة الأشاعرة والماتريدية:

كل ما جاء من النصوص التي توهم مشابهة الله تعالى لخلقه، فلنا معها موقفان، بعد أن نقطع أن الله تعالى مُتَزَّهٌ عن مشابهة خلقه في ذاته وصفاته وأفعاله.

الموقف الأول: نؤمن بها ونصدق بها، بلا كيفية، على الوجه الذي أراده ربنا سبحانه في كتابه، وأراده نبينا ﷺ في سنته، ولا نتعرض لتفسيرها ولا لذكر معناها، ولا ننزع الألفاظ من سياقها، بل نفوض معناها إلى الله تعالى.

ولا نقول مثل أهل البدع أننا ثبتت المعنى ونفوض الكيفية، لأنهم بذلك يشبِّهون الكيفية ثم يفوضون علمها إلى الله. والكيفية هيئة وصورة، والهيئة والصورة من لوازم الأجسام التي تُدْرَكُ بالحواس، والله تعالى مُتَزَّهٌ عن ذلك.

الموقف الثاني: أننا نؤوله، بِصَرَفِهِ عن الحقيقة اللغوية، إلى معنى مجازي يدل عليه السياق وتحتمله اللغة ويقبله الشرع، بحيث لا يُنسَبُ إليه تعالى أي نقص. ولا نفعل ذلك إلا عند وجود قرينة لفظية أو معنوية توجب هذا التأويل. ونشهد أن هذين الموقفين والمذهبين منقولان عن السلف الصالح رضوان الله عليهم.

وقال أدعياء السلفية:

ثبت ما أثبتته الله لنفسه على الحقيقة، فثبت معناه الحقيقي اللغوي، ونفوض معناه الكيفية إلى الله تعالى.

فتثبت له يدا حقيقية ليست كأيدينا، وساقا وقداما وعينا ووجهها، وأنه مستقر على العرش بذاته استواءً حقيقياً على وجه الاستقرار والارتفاع فوق العرش، والكرسي مرتبة قدميه، وأنه فوق السماء وفوق الخلق جميعاً، وأنه في جهة فوق دون بقية الجهات. وكر نـ ليس مثل ما للمخلوقات في كيفيته، بل كيفيته على وجه آخر لا يعلمه إلا الله تعالى. ونعت من يفوض المعنى ضالاً مبتدعاً مخالفاً للسلف وإجماع الصحابة والتابعين، لأن التفرقة جهل ونفي لهذه الصفات، ونعتبر من يؤولها ملحدًا في أسماء الله وصفاته، محرفاً معطلاً د الخ كلامهم.

وهاكم أقوال السلف الصالح رضوان الله عليهم، **تَفْصِلُ** في القضية، وتبين حـ
وتدحض الباطل وتفضح أهله، وتعيد الأمر إلى نصابه.

المطلب الأول

نصوص السلف في تفويض المعنى ونفي الكيفية أصلاً

● قول مالك (ت ١٧٩هـ)، وابن المبارك (ت ١٨١هـ)، وابن عيينة (ت ١٩٨هـ)، وسائر أهل السنة:

قال الإمام الترمذي في حديث النزول: «وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث: ما يشبه هذا من الروايات ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا. قالوا: قد تَبَيَّنَت الروايات في هذا، وَيُؤْمَنُ بِهَا، وَلَا تُتَوَهَّمُ، وَلَا يُقَالُ كَيْفَ. هكذا روي عن مالك وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك أنهم قالوا في هذه الأحاديث: أَمَرُوهَا بِلا كَيْفَ. وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة»^(١) اهـ.

والإمام الترمذي هنا يصرف اللفظ عن معناه الموهوم وينفي الكيف أصلاً، وينسب هذا لأهل السنة قاطبة، فتأمل.

وقال البيهقي في الاعتقاد: «سفيان بن عيينة يقول: كل ما وصف الله من نفسه في كتابه تفسيره تلاوته والسكوت عليه. قال البيهقي: وإنما أراد به والله أعلم: فيما تفسيره يؤدي إلى تكيف، وتكيفه يقتضي تشبيهه بخلقه في أوصاف الحدوث» اهـ.

وهذا يعني: أن من الصفات ما يمكن إثبات معانيه اللغوية دون أن يؤدي إلى تشبيه ولا تمثيل ولا تجسيم، كإثبات معاني القدرة والإرادة والعلم والحياة، بخلاف إثبات معاني نحو اليد والوجه والاستواء، فإن معاني هذه الصفات في لغة العرب تؤدي إلى التجسيم، وهو ما عبر عنه الشيخ بالتكيف. وَمِنْ ثَمَّ، فالواجب حينئذ التوقف عن تفسيرها، مفوضين ذلك لله تعالى، منزهين لله تعالى عن التكيف والتشبيه والتمثيل^(٢).

(١) جامع الترمذي: (٣/ ٥٠) عقب حديث رقم: (٦٦٢).

(٢) قول السلف في الصفات الخبرية، د. رشوان أبو زيد الأزهرى: (١٩).

قول سفيان الثوري (ت ١٦١)، ووكيع بن الجراح (ت ١٩٧)، وغيرهما:

قال الترمذي في سننه: «قد روي عن النبي ﷺ روايات كثيرة، مثل هذا ما يُذكر فيه.. الرؤية أن الناس يرون ربهم، وذكّر القَدَم وما أشبه هذه الأشياء. والمذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة مثل سفيان الثوري، ومالك بن أنس، وابن المبارك، وابن عينة، ووكيع وغيرهم: أنهم رَوَوْا هذه الأشياء ثم قالوا: تُرَوَّى هذه الأحاديث، ونؤمن بها، ولا ينزّل كيف. وهذا الذي اختاره أهل الحديث: أن تروى هذه الأشياء كما جاءت، ويُؤمن بها.. تُفسّر، ولا تُتوهّم، ولا يقال كيف. وهذا أمر أهل العلم الذي اختاروه وذهبوا إليه. ومعنى قوله في الحديث: «فَيَعْرِفُهُمْ نَفْسُهُ» يعني يتجلى لهم^(١) اهـ.

فالإمام الترمذي ينقل هذا عن أهل السنة وأهل الحديث وسائر أهل العلم. ثم يقولون: «تُرَوَّى هذه الأشياء كما جاءت، ويؤمن بها، ولا تفسّر،» يعني لا يذكر معناها، وهو تفويض للمعنى. «ولا تتوهّم»، يعني يصرف ظاهرها الموهّم أو أن العقل لا يستطيع توهيب لنقص إمكاناته عن إدراك كنهها وماهيتها. ثم إن الإمام الترمذي قد أوّل قوله ﷺ «فَيَعْرِفُهُمْ نَفْسُهُ» بأنه التجلي.

وقال أبو عمر بن عبد البر: «زكريا بن عدي سأل وكيع بن الجراح فقال: يا أبا سفيان.. هذه الأحاديث -يعني مثل الكرسي موضع القدمين ونحو هذا- فقال: أدركتُ إسماعيل بن أبي خالد، وسفيان، ومسعرًا، يحدثون بهذه الأحاديث، ولا يفسرون شيئًا»^(٢) اهـ. يعني لا يحددون لها معنى، فهو تفويض للمعنى.

قول الأوزاعي (ت ١٥٧هـ) ، وغيره:

قال اللالكائي: «الوليد بن مسلم يقول: سألت الأوزاعي، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، عن هذه الأحاديث التي فيها ذكر الرؤية فقالوا: أَمَرُوها كما جاءت، بلا كيف»^(٣) اهـ.

(١) جامع الترمذي (٤/ ٦٩١)، حديث (٢٥٥٧).

(٢) التمهيد لابن عبد البر: (٧/ ١٤٩).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة، لِلْإِسْكَانِي (٣/ ٥٢٧)، حديث رقم (٩٣٠).

قلت: وهذا كلام صريح غاية الصراحة في نفي الكيفية أصلاً، وقولهم: «بلا كيف» قطع في ذلك. فأين هذا من كلام من يدعي أن السلف يشبّون كيفية ما ثم يفوضونها.

قول أبي عبيد القاسم بن سلام^(١) (ت ٢٢٤هـ):

وقد ذكر عنده رجل من أهل السنة يجد في قلبه شيئاً من الأحاديث الموهمة للتشبيه فكان رده بالتفويض في منتهى الوضوح. قال: «هذه الأحاديث حق لا شك فيها، رواها شُقات بعضهم عن بعض، إلا أننا إذا سُئلنا عن تفسير هذه الأحاديث لم نفسرها ولم نذكر أحداً يفسرها»^(٢) اهـ.

قلت: وقوله رحمه الله تعالى: «لم نفسرها ولم نذكر أحداً يفسرها» واضح في أنه يفوض معنى ويكل علمه تفصيله إلى الله تعالى، إذ عدم التفسير لا يدل إلا على ذلك.

وقفه مع قول السلف في نصوص المتشابهات: «أمرُوها كما جاءت»:

وبعض المجسمة يدعي أن السلف يقصدون منها إثبات الحقيقة اللغوية، فيلبسون على نقارئ بإحالة على كلمة «كما جاءت» وحدها، ويصرفون انتباهه عن كلمة «أمرُوها»، لأن جملة كاملة تفيد معنى آخر. فيقولون أن قول السلف كما جاءت: معناه كما هي حقيقتها للغوية.

فنقول لهم: لا تجتزئوا الكلام وتقطعوا أوصاله، وإذا شرحتم فاشرحوا الجملة كاملة في سياقها الذي وردت فيه، ولا تكونوا كمن قال إن الله تعالى نهى عباده عن الصلاة، ثم استدل على دعواه بقول الله تعالى: ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ﴾، ولم يكمل الآية ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ [النساء: ٤٣]!

(١) العالم البحر الفقيه المحدث اللغوي المتفنن. قال إسحاق بن راهويه في حقه: أبو عبيد أعلم مني وأفقه. وقال الإمام أحمد: أبو عبيد أستاذ. وسئل يحيى بن معين عنه فقال: أبو عبيد يُسأل عن الناس. وقال أبو داود: ثقة مأمون. قال الذهبي: من نظر في كتب أبي عبيد علم مكانته من الحفظ والعلم، وكان حافظاً للحديث وعلمه ومعرفة متوسطة، عارفاً بالفقه والاختلاف، رأساً في اللغة، إماماً في القراءات، له، اهـ. انظر: تذكرة الحفاظ وذيوله: (٦/٢)، وغيره.

(٢) التمهيد لابن عبد البر: (٧/١٥٠).

تعالى بالكيف، ولا بالمعاني المعهودة من اللغة، وإنما يوصف الله تعالى بصفاته التي أخبر عنها في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ على المعاني التي أرادها الله تعالى. ومنه تعرف أن منهج السلف هو تفويض المعنى ونفي الكيف، لا إثبات المعنى وتفويض الكيف.

وقال الإمام أحمد: «واعلم أن الله تعالى بصفاته ليس كالبشر، والرؤية حق لأهل الجنة من غير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربنا: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وتفسيره على ما أراد الله تعالى وَعَلِمَهُ، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ وأصحابه فهو كما قال، ومعناه على ما أراد الله»^(١) اهـ.

فهاهو الإمام أحمد رحمه الله تعالى يفوض علم معاني تلك النصوص إلى الله تعالى في قوله: «وتفسيره على ما أراد الله تعالى وَعَلِمَهُ، ... ومعناه على ما أراد الله»، بل وينفي عنها الكيف من الأصل، في قوله: «من غير إحاطة ولا كيفية». فلم يثبت الكيفية ثم يفوضها، ولم يتصرف فيها بلفظ يخترعه من نفسه، كما يزعم من يدعون أنهم يتبعون الإمام أحمد بن حنبل ومن ورائه السلف.

• قول شعبة (ت ١٦٠هـ)، وحماد بن زيد (ت ١٧٩هـ)، وابن سلمة (ت ١٦٧هـ)، وشريك (١٧٨هـ)، وأبي عوانة الوضاح بن عبد الله الشكري (ت ١٧٥هـ):

قال الإمام البيهقي: «أبو داود وهو الطيالسي قال: كان سفيان الثوري، وشعبة، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وشريك، وأبو عوانة لا يحدّون ولا يُشَبِّهون ولا يُمَثِّلون، يروون الحديث ولا يقولون كيف، وإذا سئلوا أجابوا بالأثر»^(٢) اهـ.

فقوله: «لا يحدّون»، يعني لا يذكرون حداً لهذه الصفات. والحد هنا هو ذكر التعريف المؤدي للمعنى، وسُمِّيَ حداً لأنه الذي يحجز بين الصفة وغيرها، وهو الذي يمنع من تداخل الصفة مع غيرها.

(١) الورع للإمام أحمد بن حنبل: (١٩٩).

(٢) السنن الكبرى للبيهقي: (٢/٣)، حديث (٤٤٣٠).

قول الليث بن سعد (ت ١٧٥ هـ):

قال البيهقي: «الوليد بن مسلم قال: سئل الأوزاعي ومالك وسفيان الثوري والليث بن سعد عن هذه الأحاديث التي جاءت في التشبيه، فقالوا: أمروها كما جاءت بلا كيفية»^(١) اهـ.

قول الحميدي (ت ٢١٩ هـ):

قال ابن قدامة: «بشر بن موسى أنبأنا أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي، قال: أصول السنة. فذكر أشياء، ثم قال: وما نطق به القرآن والحديث، مثل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴿[المائدة: ٦٤]، ومثل ﴿وَالسَّكَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِمِمينَةٍ﴾ [الزمر: ٦٧]، وما أشبه هذا من القرآن والحديث. لا نزيد فيه، ولا نفسره، ونقف على ما وقف عليه القرآن والسنة، ونقول: «الرحمن على العرش استوى»، ومن زعم غير هذا فهو معطل جهمي»^(٢) اهـ.

قلت: وهذا واضح صريح في عدم الزيادة على الوارد من الألفاظ، وفي تفويض المعنى.

فأين قول الحميدي: «ولا نزيد فيه» من قولهم زيادة على الوارد: «بذاته، وبنفسه، وعلى الحقيقة، وجهة فوق»، ومن ادعائهم أن السلف كانوا يتصرفون في تفسير هذا الألفاظ بما شاءوا.

فمن يدعي التمسك بهدي السلف ينبغي ألا يزيد على كلام السلف، ولا ينتقي عبارات من كلامهم يتمسك بها، ويدع غيرها عندما تخالف مقصوده. ولكنهم يستخدمون اسم السلف لترهيب مخالفيهم من مناقشتهم، وللتستر خلفه مما يجلبه كلامهم من المذمة والتنقيص.

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٣/ ٢)، حديث (٤٤٢٩).

(٢) ذم التأويل لابن قدامة: (١١).

= داود قال ثنا سلمة ابن شبيب قال ثنا مهدي بن جعفر عن جعفر بن عبد الله قال جاء رجل إلى مالك بن أنس فقال يا أبا عبد الله الرحمن على العرش استوى كيف استوى؟ قال: فما رأيت مالكا وجد من شيء كموجدته من مقالته وعلاه الرخصاء يعني العرق قال واطرق القوم وجعلوا ينتظرون ما يأتي منه فيه قال فسرى عن مالك فقال: «الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة فإني أخاف أن تكون ضالا وأمر به فأخرج». والذهبي في العلو، ص (١٦٨) حديث (٤٥٥) قال: (قال ابن منده أنبا محمد بن يعقوب الشيباني حدثنا محمد بن عمرو بن النضر حدثنا يحيى بن يحيى قال كنت عند مالك فجاءه رجل فقال يا أبا عبد الله الرحمن على العرش استوى فأطرق ثم قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة).

وأما روايته عن أم سلمة:

فأخرجها اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/٣٩٧) حديث (٦٦٣) قال: (أخبرنا عبد الله بن محمد بن أحمد قال ثنا عبد الصمد بن علي قال حدثني محمد بن عمر بن كيشة أبو يحيى النهدي بالكوفة في جبانة سأل قال حدثنا أبو كنانة محمد بن أشرس الأنصاري قال ثنا أبو عمير الحنفي عن قرّة بن خالد عن الحسن عن أمه عن أم سلمة في قوله «الرحمن على العرش استوى» قالت: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر). وأخرجه الذهبي في العلو للعلي الغفاري، ص (٨٠) حديث (١٨١) قال: (أخبرنا أبو محمد بن علوان الشافعي أنبا أبو محمد المقدسي أنبا عبد الله بن أحمد أنبا أبو بكر أحمد بن علي أنبا هبة الله بن الحسن حدثنا عبد الصمد بن علي حدثنا محمد بن عمر حدثنا أبو كنانة محمد بن أشرس حدثنا أبو عمير الحنفي عن قرّة بن خالد عن الحسن عن أمه عن أم سلمة رضي الله عنها في قوله «الرحمن على العرش استوى» قالت: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر)، قال: (هذا القول محفوظ عن جماعة كريمة الرأي، ومالك الإمام، وأبي جعفر الترمذي، فأما عن أم سلمة فلا يصح لأن أبا كنانة ليس بثقة وأبو عمير لا أعرفه).

فهذه رواية مالك وغيره تنص على أن الكيف غير معقول، وهذا يساوي نفي الكيف.. وأما رواية «والكيف مجهول» ففي إسناده مقال.. فقد أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٧/١٣٨) قال: (أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن قال حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك قال حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدثني أبي قال حدثنا سريج بن النعمان قال حدثنا عبد الله بن نافع قال: قال مالك بن أنس: الله عز وجل في السماء، وعلمه في كل مكان، لا يخلو منه مكان، قال: وقيل للمالك الرحمن على العرش استوى كيف استوى؟ فقال مالك رحمه الله: استواؤه معقول وكيفيته مجهولة وسؤالك عن هذا بدعة وأراك رجلا سوء). قلت: عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن شيخ ابن عبد البر قال عنه الذهبي في الميزان (٤/١٩١): (من قدماء شيوخ أبي عمر بن عبد البر كان تاجرا صدوقا لقي ابن داسة والكبار، قال ابن الفرضي: لم يكن ضبطه جيدا وربما أحل بالهجاء). فروايته ضعيفة مخالفة في لفظها لسائر الروايات عن مالك، والفارق بين قوله «الكيف غير معقول» وبين قوله «الكيف مجهول» بيانه في الأصل، والله أعلم.

نفس الخمس: النصوص المروية عن السلف في تفويض المعنى ٢٥٩

قَف عليه مسنداً من وجه صحيح عن مالك، ولا عن ربيعة الرأي، ولا عن أم سلمة، بل لروايات الصحاح المشهورة عنهم بلفظ «والكيف غير معقول».

وقولهم: «الكيف مجهول» معناه: أن للاستواء كيفاً لكننا لا نعلمه، وأما قولهم «الكيف غير معقول» فمعناه: أن الكيف لا يُعَقَّل في حق الله أصلاً! وهي التي توافق سائر ما ورد عن سلف من نفي الكيف، دون الثانية التي توهم أن تَمَّ كَيْفًا لكنه مجهول. فحتى لو صحَّت ثنائية عن أحد من هؤلاء الأئمة، لكانت شاذة مخالفة لسائر ما روي عن السلف رضوان الله عليهم، والله أعلم.

وأما قوله: «الاستواء غير مجهول» فلا يراد به أن معناه معروف، بل معناه أنه غير مجهول وجوده وثبوت نسيته لله جل وعلا. وبهذا فسرهُ الأئمة، ابن عبد البر، وابن قدامة، وغيرهم اهـ.

شبهة وتلييس:

ومن الأهمية بمكان أن نذكر تلييس بعضهم في هذه المسألة، فقد زعم أن السلف لم يكونوا يتورعون عن زيادة واختراع ألفاظٍ غير الألفاظ الواردة في النصوص، وأنهم لا يرون بذلك بأساً. وقام بليّ أعناق ما روي عنهم من النصوص التي ذكرناها في ذلك ليدلّل على صحة كلامه!

يقول الشيخ حامد العليّ: «وأعجب شيء، زعم هؤلاء الذين يزعمون أن السلف لم يكونوا يغيّرون النص الوارد في باب ذكر صفات الله تعالى،....، يزعمون أن هذا هو مذهب السلف. والكتب طافحة بالروايات التي يتصرفون فيها بألفاظهم!»^(١) اهـ.

فتأمل هذه الدعوى، ثم استرجع أقوال من سبق النقل عنهم أن تفسير هذه الألفاظ هو تلاوتها والسكوت عليها، وأنها تُمرّ كما جاءت بدون زيادة ولا نقصان، وأنها لا تُفسّر ولا تُتوهم، تجد أنها دعوى باطلة لا يساندها دليل، بل الدليل من كلامهم قائم وواضح في الدلالة على كذب هذه الدعوى وبطلانها.

(١) أم البراهين، لحامد بن عبد الله العليّ، ص: (٣٥) وما بعدها.

ثم أراد صاحب هذه الدعوى أن يغلق باب الرد عليه، ويوهم القارئ بأن أصحاب هذا الرأي قلة قليلة من العلماء، ليس لهم إلا تقليد غيرهم بغير وعي، وهو يرد على أحد أساطين العلم والفهم في هذه الأمة.

قال: «وليس الإمام الزركشي رحمه الله من قَصُر علمه في الحديث، لكن يبدو أنه قد غيّر في هذا النقل، فإن بعض العلماء المتقدمين ادّعوا أن مذهب السلف لا يختلف مع مذهب الخلف في أن الظاهر من النصوص المدّعى أنها توهم التشبيه غير مراد، وأنها لا تدل على صفات الله، إلا أن السلف يفوضون معانيها المرادة، ويلتزمون السكوت عن ذلك وعدم الخوض فيه»^(١) اهـ.

وهذا الكلام شديد التهافت، لعدة أمور:

منها: قوله أن الإمام الزركشي وغيره مقلدون يرددون أقوال من سبقوهم لا أكثر. هو إلا مجرد دعوى لا دليل عليها، خاصة وقد شهد للإمام الزركشي بالإتقان في علم الحديث، ومن المعلوم أن كل دعوى لا برهان لها أو دليل هي مجرد كلام ساقط لا قيمة له.

ومنها: أنه نسب هذا القول إلى «بعض» العلماء المتقدمين -بزعمه-. لكنك عند تبحث عن هؤلاء البعض الذين قلدهم الزركشي تجدهم جمهور علماء أهل السنة والجماعة. بل الغالبية الساحقة منهم إن لم يكونوا كلهم. فأى بأس في أن يتبع الإنسان رأي الجمهور والأكثرية من أهل العلم المشهود لهم، عملاً بقوله ﷺ: «لَا يَجْمَعُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى الضَّلَالَةِ أَبَدًا، وَيَدُّ اللَّهُ عَلَى الْجَمَاعَةِ، فَاتَّبِعُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ، فَإِنَّهُ مَن شَدَّ، شَدَّ فِي النَّارِ»^(٢). وقد سبق أن ذكرنا أسماء بعضهم في التهميد!!

ومنها: أن الإمام الزركشي إن صحّت دعوى التقليد في حقه -وهي لا تصح- فإن ذلك لا يضره؛ لأن تقليد أمثال الزركشي لغيرهم ممن سبقهم من العلماء ليس سببه بلاهة الذهن وخمول الهمة في طلب المعرفة، بل هو تقليدٌ عن دليل وبرهان، ومعرفة ناشئة من

(١) المرجع السابق.

(٢) حسنه السخاوي في المقاصد الحسنة (١/٧١٦)، وقد سبق التعليق عليه.

المطلب الثاني

نصوص السلف في العمل بالتأويل

تأویلات ابن عباس رضی اللہ عنہما:

١- أَوَّلَ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]، فقال: «يكشف عن شدة». فَوَوَّلَ السَّاقِ وَفَسَّرَهَا بِالشَّدَّةِ^(١).

وقال الإمام ابن جرير الطبري في صدر كلامه على هذه الآية: «قال جماعة من الصحابة التابعين من أهل التأويل: «يبدو عن أمر شديد»»^(٢) اهـ.

قلت: وفي قول الإمام الطبري ما يدل على أن علماء الصحابة والتابعين المعول عليهم في التفسير والعلم -الذين ساهم أهل التأويل تنبيها على علو منزلتهم على غيرهم في علم تفسير- لم يجدوا غضاضة في صرف اللفظ عن حقيقته اللغوية إلى المعنى المجازي عند وجود ضرورة تقتضي ذلك^(٣).

٢- أول النسيان الوارد في قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا دَسَّوْا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١] بأنه «الترك». قال الطبري: «أي ففي هذا اليوم، وذلك يوم القيامة ننسأهم- يقول تركهم في العذاب» اهـ. ونقل ابن جرير هذا التأويل الصارف عن الظاهر، ورواه بأسانيده عن ابن عباس ومجاهد وغيرهم^(٤).

(١) فتح الباری: (٨ / ٦٤٤)، (١٣ / ٤٢٨).

(۲) تفسیر الطبری: (۲۹/۳۸).

(٣) وذلك بَعْضُ النظر عما توهمه بعضهم من قصد ابن جرير رحمه الله تعالى بقوله «أهل التأويل». فمصطلح التأويل لم يكن متعارفاً عليه عند الصحابة بمعناه المشهور عند المتأخرين من علماء المسلمين. نبهنا على ذلك حتى لا يقال أننا نتلاعب بالألفاظ ونلوي أعناقها لشهد لنا. فمذهبنا لا يحتاج لذلك بحمد الله وكرمه.

(٤) تفسیر الطبری: (١٢/٤٧٥).

-سس: النصوص المروية عن السلف في تفويض المعنى ٢٦٧

— منه ذراعاً»، يعني بالمغفرة والرحمة. وهكذا فسر بعض أهل العلم هذا الحديث. قالوا: — يقول: إذا تقرب العبد إليّ بطاعتي وبما أمرت، أُسرِع إليه بمغفرتي ورحمتي^(١)» اهـ.

قنت: وهو تأويل صريح للإتيان والهولة بأنه رحمة ومغفرة، ولا مجال للإنكاره.

ـ الإمام البخاري (ت ٢٥٦ هـ):

قال الإمام البيهقي: «روى الفربري عن محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله تعالى أنه — معنى الضحك فيه — أي الحديث — الرحمة»^(٢) اهـ.

ـ الإمام ابن جرير الطبري (ت ٣١١):

قال ابن جرير في تفسيره عند قوله تعالى: «ثم استوى إلى السماء»: «والعجب ممن أنكر — لفهوم من كلام العرب في تأويل قول الله: «ثم استوى إلى السماء»، الذي هو بمعنى: — والارتفاع. ثم رد على من أنكر العلو مخافة التشبيه فقال: قُلْ: عَلَا عَلَيْهَا عُلُوٌّ مَلِكٌ سَـنْ، لا علو انتقال وزوال»^(٣) اهـ.

فالإمام ابن جرير جعل الاستواء هنا بمعنى علو الملك والسلطان، لا علو الانتقال — زوال، وهو تأويل واضح، ينكره المجسمة أشد الإنكار.

وينبغي التنبيه إلى: أن هذا هو العلو الذي يثبت أهل السنة والجماعة ولا ينكرونه، وهو — المكانة والملك والسلطان. لا علو الجسم والحيز والمكان، الذي ينسبه المجسمة إلى الله — عنى ويدعون أنه قول سلف الأمة، ثم يشنعون على أهل السنة الأشاعرة والماتريدية أنهم —كرون العلو مطلقاً، وهم بريئون من هذه التهمة الباطلة.

ـ تأويل الإمام ابن حبان (ت ٣٥٤ هـ):

قال ابن حبان في صحيحه عند كلامه عن حديث: «حتى يضع الرب قدمه فيها» [أي

(١) سنن الترمذي: (٥٨١/٥).

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي: (٧٢/٢) ..

(٣) تفسير الطبري: (٤٣٠/١).

جهنم]: «هذا الخبر من الأخبار التي أُطْلِقَتْ بتمثيل المجاورة، وذلك أن يوم القيامة يُنْتَرى النار من الأمم والأمكنة التي يُعَصَى الله عليها، فلا تزال تستزيد حتى يضع الرب جـ موضعا من الكفار والأمكنة في النار فتمتلئ، فتقول: قط قط، تريد: حسبي حسبي. العرب تطلق في لغتها اسمَ القدم على الموضع. قال الله جل وعلا: ﴿قَدَّمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [يونس: ٢] يريد: موضع صدق، لا أن الله جل وعلا يضع قدمه في النار، جل ربنا وتعز مثل هذا وأشباهه»^(١) اهـ

قلت: وتأويل ابن حبان لا يحتاج إلى شرح أو لفت انتباه، لكن المجسمة يشبتون من النص لله قَدَمًا ويسمونها صفة بزعمهم.

والآثار عن السلف في تأويل النصوص الموهمة للتشبيه، أو في تفويض معانيها - تعالى ونفي الكيفية كثيرة وغزيرة، ولا أدري كيف لم يَرَهَا المجسمة قبل أن يدَّعُوا حـ السلف على إنكار التأويل والتفويض، ووصف من يسلكها بالابتداع. فإن كان المجسـ الأوائـ لهم عذر بأنهم ربما لم تَصِلْهُمُ تأويلات الأئمة الأثبات، حيث كان زمانهم هو زمن البحث والتنقيب عن الآثار والأخبار، فما عذر المتأخرين الذين يجلسون اليوم في مساحـ مكيفة، يأتيهم ما يطلبون حيث يجلسون، وعندهم من الكتب ألوفاً يقلبون صفحاتـ يوم!

الفصل السادس

تناقض مذهب المجسمة واضطرابه

لا يمكن أن تجد مذهبا صحيحا سليما ينتهج الحق والصواب ثم ترى فيه تناقضا أو اعوجاجا. فوجود هذا النوع من الخلل أمانة الخطأ والفساد.

وقد يقال في الرد على هذا الكلام: إن سوء تطبيق المذهب - أي مذهب - عند محاولة أتباعه تنزيل نصوصه وتطبيق قواعده على مسائله ربما يكون السبب في إظهار المذهب بصورة متناقضة متضاربة، فالإسلام نفسه يعاني من سوء تطبيق مقرراته، واختلاط فهم كثير من المسلمين لأصوله وفروعه ومقاصده وغاياته. فهل نستطيع القول بأن الإسلام دين متناقض، بسبب جهل بعض من يحاولون تطبيق ما يمليه عليهم؟ أقول: هذا قول حق يراد به باطل.

نعم الكلام صحيح في أن الحكم بصحة مذهب أو فساد له شأن له بأخطاء أتباعه في تطبيقه، بل المعول في ذلك على قواعد وأصول ذلك المذهب نفسها، لا على شيء آخر.

لكن مذهب أدعياء السلفية ليس صحيحا في أصله ثم وقع عليه التجني من أتباعه. بل هو في الأصل متناقض القواعد ومتضارب الأصول، فلا تكاد تجد فيه قاعدة واحدة مطردة في فهم النصوص التي اختلفوا في فهمها مع أهل السنة. وقد أشرنا إلى بعض حالات التناقض أثناء التعليق على كلام المجسمة في الفصل السابق.

ولكي نزيل هذه الشبهة عن عقل من تُساوره الشكوك، ولا يستطيع الوصول لرأي حاسم في هذا المذهب، سنذكر في المطالب التالية أبرز وجوه التناقض في مذهب الوهابية المجسمة مع عرض أمثلة يظهر فيها هذا التناقض بجلاء، فنقصّل ما جاء مجملا، ونوضح ما ربما خفي على القارئ أثناء التعليق على كلامهم.

المطلب الأول

تردد المجسمة بين قبول التأويل ورفضه

ذكرنا أن هؤلاء المجسمة لم يثبتوا على موقفهم من التأويل وعدّوا تعطيلاً وكفراً والحاداً، بل تجدهم يؤولون ويثبتون صحة التأويل في كثير من كلامهم، مما يؤكد عدم أطراد قواعدهم التي اعتمدوا عليها في التشنيع على التأويل والمؤولين.

وهاكم بعض النماذج التي يظهر فيها التردد الواضح في المسألة، نذكرها بشيء من التفصيل بعد أن أشرنا إلى تناقضهم في لمحات سريعة.

١ - من اضطرابهم أنهم في نص واحد ربما يلتزمون التأويل في موضع منه ويتمسكون بالظاهر في موضع آخر، فلا يثبتون على طريقة واحدة، ولا ينكشف لهم بهذا التقارب تباین هذين المسلكين.

فمن ذلك^(١): صنيعهم في الحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ أمر من يريد النوم بأن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى وَمُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ. أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ. اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ. اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»^(٢).

ففي هذا الحديث مقابلة بين وصف الله عز وجل بأنه الظاهر، مفسراً بأنه ليس فوقه

(١) وانظر مثلاً آخر وهو تأويل شارح الطحاوية: (٢٤١) لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيئَانَا أَنْعَمًا﴾ [يس: ٧١] دون قوله: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

(٢) صحيح مسلم: (٢٧١٣)، وسنن الترمذي: (٣٤٨١)، وسنن أبي داود: (٥٠٥١)، وصحيح ابن حبان: (٩٦٦)، وغيرها.

نعنى: أنه سىحفظها وسيحرسها ومن فيها... ﴿وَلْنُصَنِّعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] المعنى: سترىنى على مرأى منى. وليس فى قوله تعالى «على عيني» دليل على أن الله عينا واحدة، بل المقصود بذلك جنس العين لا عددها، لأنه ورد فى السنة أن الله عينين حقيقتين تليقان به، وأما عن زرودها فى القرآن بصيغة الجمع وبصيغة الإفراد، فليس فيه دليل لأهل التحريف الذين يحرفون معناها إلى الحفظ والرعاية!!^(١) اهـ.

ولا يخفى ما فى هذا الكلام من التهافت والتناقض. ففي صدر كلامه: التأويل بالعناية والحراسة. وفى آخره عذ تفسيرها بالحفظ والرعاية من فعل أهل التحريف! ولا يتبين لنا كيف يميز بين هذه النصوص؟ فما الذى جعل الحديث مثباً للعينين دون غيره من الآيات؟ ولولا يقبل الحديث مثل ما قبلته الآيات الكرييات؟

ولا يخفى كذلك أن كلامه أبعد ما يكون عن التترس بالصفة، لأن العين الحقيقية جارحة، خاصة إذا اعتمد على ما جاء فى العين بصيغة التثنية، وغلبه على ما جاء فى باقى الصيغ، وزاد على ذلك وصف العينين بالسلامة من العور.

٣- من غلطهم أنهم يتصرفون فى بعض الظواهر بنحو التصرف الذى يُعرف بالتأويل، ولكن يسمونه تفسيراً.

فمن ذلك قول ابن تيمية: «إن الله معنا حقيقة، وهو فوق العرش حقيقة. ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد. فلما قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ [سبا: ٢] ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ - إلى قوله - ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليكم، شهيد عليكم ومهيمن عالم بكم. وهذا معنى قول السلف: إنه معهم بعلمه، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته»^(٢) اهـ.

(١) التعليقات الزكية لعبد الله بن جبرين: (١٧٧-١٧٨). وانظر نحوه فى «تنبيهات فى الرد على من تأول الصفات» لعبد العزيز بن باز: (٢٦-٣٠).

(٢) الأسماء والصفات لابن تيمية: (٨١ / ٢).

وقال أيضاً: «ولما قال النبي ﷺ لصاحبه في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَكْ﴾ [التوبة: ٤٠]، كان هذا أيضاً حقاً على ظاهره. ودلت الحال على أن حكم هذه المعية الإِضَاحِيَّة والنصر والتأييد»^(١) اهـ.

وفي هذا النص السابق يصل ابن تيمية رحمه الله إلى النتيجة التي يصل إليها أهل السنة بالتأويل، ولكن لا يسلم أن الوصول إلى هذه النتيجة يحصل بصرف اللفظ عن ظاهره. ير معنى آخر محتمله. ويصرح بأن الإِطْلَاع والعلم والنصرة هي حكم المعية ومقتضاها، وهذا هو ما نسميه تأويل المعية. فيكون ابن تيمية هنا قد اختار مسلك التأويل، وزاد على نفسه عند الحاجة إلى إثبات أن هذا الذي سماه حكم المعية هو ظاهر الخطاب وحقيقته، فاللغة لا تسعد على ذلك، ولو ساعدت على ذلك لم تقتصر على هذا الموضع.

ومهما اختلفت الاصطلاحات في الظاهر والتفسير والتأويل، فإنه لو عوملت جميع النصوص الواردة في الباب بمثل ما عوملت به آيات المعية، لكان النزاع بين ابن تيمية والمؤولين نزاعاً لفظياً فقط.

٤- ومن الأمثلة على تأويل ابن تيمية قوله في الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] «هو قرب ذوات الملائكة، وقرب علم الله»^(٢). وقال: «وأما من ظن أن المراد بذلك قرب ذات الرب من حبل الوريد، إذ أن ذاته أقرب فهذا في غاية الضعف»^(٣).

وهذا تأويل أيضاً، لأن ظاهر اللفظ يدل على إسناد القرب إلى الله عز وجل، وتفسيره بقرب الملائكة صرفٌ للفظ عن ظاهره.

(١) الأسماء والصفات لابن تيمية: (٢/ ٨١)، (٢/ ٢١١)، وانظر الفتاوى الحموية لابن تيمية، ص: (١٧١)، وانظر نقد ابن جهيل له في طبقات الشافعية للسبكي: (٩/ ٥٨). وانظر متابعة المعاصرين لابن تيمية في هذه النقطة في تنبيهات في الرد على من تأول الصفات لعبد العزيز بن باز، ص: (٢٦-٣٠). وابن رجب وأثره في توضيح عقيدة السلف للدكتور عبد الله الغفيلي: (١/ ٢٤٤).

(٢) الأسماء والصفات لابن تيمية: (٢/ ٩٨).

(٣) المصدر السابق: (٢/ ٣٤٩). وانظر نحوه في شرح حديث النزول: (١٣٠). وانظر متابعته في الأجوبة المفيدة لعبد الرحمن الجطيلي: (٦١).

فَلِمَ لا يقال في هذا الصرف إنه تعطيل لما وصف الله تعالى به نفسه؟ ولم لا يقال:
- ب معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب؟ وما الفرق بين هذا وبين تأويل أهل
- نقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] أي ملائكته أو أمره؟

٥- ومن تأويله أيضا ما ذكره في جواب النصارى فقال: «ولا يُعرف عالم مشهور من
- المسلمين ولا طائفة مشهورة من طوائفهم يطلقون العبارة التي حكوها عن المسلمين.
ث قالوا عنهم: إنهم يقولون إن لله عينين يبصر بهما، ويدين يبسطهما، وساقاً، ووجهاً يوليه
- مكان، وجنباً!!

ولكن هؤلاء ركّبوا من ألفاظ القرآن بسوء تصرفهم وفهمهم تركيباً زعموا أن
- سمين يطلقونه، وليس في القرآن ما يدل ظاهره على ما ذكروه. فإن الله تعالى قال في كتابه:
: وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفِيقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴿[المائدة:
- واليهود أرادوا بقولهم يد الله مغلولة أنه بخيل، فكذبهم الله في ذلك وبين أنه جواد لا
- حر، فأخبر أن يديه مبسوطتان. كما قال: ﴿وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ
- سَطٍ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]. فبسط اليدين المراد به الجواد والعطاء، ليس المراد
- تروموه من بسط مجرد، ولما كان العطاء باليد يكون ببسطها صار من المعروف في اللغة
- تعبير ببسط اليد عن العطاء»^(١) اهـ.

٦- ومن تأويلهم قول ابن أبي العز الحنفي: «قال الله عز وجل: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ
- شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦]، وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك، وإنما المراد إحاطة
- نعمته وسعة علمه وقدرته»^(٢) اهـ.

ويُحَسِّنُ الشيخ الألباني في تعليقه هذه العبارة، ثم يقول: «وهو من التأويل الذي ينقمه
- شارح، مع أنه لا بد منه أحياناً»^(٣) اهـ.

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية: (٤/ ٤١٢).

(٢) شرح الطحاوية بتحقيق الألباني: (٣١٤).

(٣) المصدر السابق: (٣١٤).

صرف اللفظ عن ظاهره، وفيه التصريح بأن من الظاهر ما هو غير مراد قطعاً، وفيه التذبذب في عد بعض التأويل محموداً بعد أن كان تعطيلاً وطاقوتاً. من غير تبين للمعيار الذي يميزون به بين الحق والباطل في التعامل مع النصوص التي ترجع إلى باب واحد.

ونحن ندعو بعد هذا التصريح إلى نبذ لفظ التأويل بالكلية ثم نستعرض هذه النصوص، فلا نعدل عن ظاهر من ظواهرها إلا بدليل كما اشترط ابن عثيمين، ولا نذكر في ما نعدل عنه منها إلا دليلاً هو من جنس الدليل الذي قَبَلَه في هذا التفسير غير المذموم أو هو أقرب. فإن قَبِلَ بذلك، فما من خبر تَأَوَّلَهُ أهل السنة لا يمكن إقامة الأدلة المنفصلة والمتصلة على جوازه.

المطلب الثاني

تناقضهم في إثبات الحقيقة اللغوية مع تفويض الكيفية

إن أدعياء السلفية وأمثالهم من المجسّمة إذا أثبتوا لله سبحانه وتعالى كل معاني هذه الألفاظ على ظاهرها وحقيقتها، فهم بذلك يجعلونه مركّباً من أجزاء؛ لأن المعاني اللغوية الحقيقية لهذه الألفاظ هي الجوارح المعروفة، أو التصرفات التي تقوم بها الأجسام من الحركة والنزول والصعود والجلوس والتواجد في أماكن.

فإن كانوا ينفون عن الله سبحانه أن تكون له جوارح كخلقه، أو أن أفعاله كأفعال خلقه، فقد بدأوا كلامهم بأن وصفوه تعالى بما يلزم منه كونه جسماً مركباً من أجزاء وأعضاء على الحقيقة التي يفيدها اللفظ، ثم قالوا: ليست كالجوارح التي عندنا، ولا حركاته كحركاتنا!! ولا يخفى أن هذا الكلام ينقض بعضه بعضاً!!

قال العلامة ابن خلدون هازئاً بهذا التناقض: «وَحَمَلَهُمْ -أي أهل السنة- على هذا التأويل وإن كان مخالفاً لمذهب السلف في التفويض^(١): أن جماعة ارتبكوا في محمل هذه الصفات، فحملوها على صفات ثابتة لله تعالى مجهولة الكيفية. فيقولون في قوله تعالى ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]: ثبت له استواء بحيث مدلول اللفظ -أي على الحقيقة اللغوية والمعنى الحسي-، فراراً من تعطيله. ولا نقول بكيفيته، فراراً من القول بالتشبيه الذي تنفيه آيات السُّلُوب، من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣]، ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣].

ولا يعلمون مع ذلك أنهم ولجوا من باب التشبيه في قولهم بإثبات استواء -يعني

(١) يقصد المذهب السائد عند السلف، أو الذي عليه أغلب السلف.

يفيد أنه ليس الجلوس المعروف المستلزم للجسمية والتحيز! فكأنهم يقولون: إنه مستو غير مستو، ومستقر على العرش غير مستقر، أو متحيز غير متحيز، وجسم غير جسم، أو أن لا استواء على العرش ليس هو الاستواء على العرش، والاستقرار فوقه ليس هو الاستقرار فوقه!!^(١) اهـ.

وقال الإمام النووي ناقلا عن المازري: «العجب من ابن قتيبة في قوله: «صورة لا كالصور». مع أن ظاهر الحديث على رأيه يقتضي خلق آدم على صورته، فالصورتان على رأيه سواء. فإذا قال: «لا كالصور» تناقض قوله، ويقال له أيضا: إن أردت بقولك صورة لا كالصور أنه ليس بمؤلف ولا مركب، فليس بصورة حقيقة وليست اللفظة على ظاهرها، وحيث أن يكون موافقا على افتقاره إلى التأويل»^(٢) اهـ.

قلت: ولا يستقيم أبدا تفويض الكيفية مع إثبات الحقيقة اللغوية، فالحقيقة اللغوية بمعناها الحسي متضمنة للكيفية التي هي صورة للمراد.

فمن قال مثلا أن لفظ اليد على حقيقته اللغوية. فهذا معناه أنها الجارحة المركبة من عظم ولحم وعروق ودم وأصابع. فإن فوض العلم بكيفيتها، فهو لا زال قائلا بالتجسيم، ولم يخرج من دائرته، لأن الكيفية صورة وهيئة كما سبقت الإشارة إليه.

فكيفيتها على هذه الحال: إما أن تكون سليمة خالية من العيوب، أو أن بها عيبا يمنع سلامتها.

وفي حال السلامة: قد تكون ذات حجم كبير أو صغير، أو بيضاء أو سوداء أو صفراء، أو نظيفة أو متسخة، أو غير ذلك.

وفي حال العيب: إما أن تكون مصابة بمرض أو قطع أو حرق أو تورم أو تقرح أو غير ذلك.

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني: (٢/ ٢٩٢).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي: (٦/ ١٦٦).

وكل ذلك لا يخرج عن التجسيم والتشبيه بين الخالق والمخلوق. وتفويض كلفه في تفويض هيئة من هذه الهيئات لا غيرها!!

فالقوم إما أنهم جهال حتى يقولوا مثل هذا الكلام المتناقض، وهو حال الكثيرين منهم، والجهل أفضل الأعدار في هذه الحالة. وإما أنهم يعرفون استحالة نفي الجسبية بتفويضهم للكيفية، الذي لا يغني في هذا المقام، لكنهم لا يجهرون بذلك أمام الناس ولا ترفع طلبتهم، خوفا على مناصبهم ورئاساتهم وما اكتسبوه من الجاه عند الناس!

المطلب الثالث

تعطيلهم بعض النصوص لحساب نصوص أخرى

ليست أولى منها بالإعمال:

بعد كل ما نقلناه عن السلف الصالحين رحمهم الله تعالى من نصوص التفويض والتأويل لنصوص المتشابهات ونفي الكيفية عنها، تبين لنا أن أدعياء السلفية افتروا كذباً على الله ورسوله وعلماء الأمة وعوامها، حين بنوا مذهبهم في صفات الله تعالى على طريقة عوراء، تُبَصِّرُ بعض النصوص وتَعْمَى -أو تتعمى- عن بعضها، بل عن أكثرها.

وتراهم كثيراً يتهمون أهل السنة بالتعطيل -وحاشاهم-، لأنهم يريدون أن يعترف أهل السنة باتصاف الله تعالى ببعض صفات المخلوقين التي ذكرنا بعضها في المباحث السابقة، فيقولون: إن من ينكر بعض صفات الباري فهو معطل لها.

وقد بيّنا ونقلنا أقوال أهل العلم من السلف والخلف في الرد على مذهبهم الباطل، وأن تلك الألفاظ هي إضافات نَسَبَهَا الله إلى نفسه على وجه لا تُثَبِّتُ به صفة إلا من خلال السياق، والصفة ليست جارحة. ولا حاجة لنا في تكرار النقل هنا. على أننا سننقل من الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة ما يثبت أن المجسمة هم الذي يعطلون نصوص الله تعالى ونصوص رسوله ﷺ، فيُعْمِلُونَ بعضها ويرفضون بعضها!!

ولنأخذ مثالا ما يثبتونه من اتصافه تعالى بالتواجد في جهة فوق دون غيرها من الجهات الست المعروفة، فعلى هذه الصفة تدور رحى الخلاف، وبسبب اعتقادهم فيها نشأ النزاع بين أهل السنة وبينهم.

أولاً: بعض النصوص التي تفيد ظواهرها وحقائقها اللغوية أن الله تعالى في جهة فوق

دون بقية الجهات:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [ط: ٢]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْغَلْبُ وَالطَّبُّ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٠]، ﴿يُذَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥].

وقال رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ: «قَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ -يعني يهود بني قريظة- بِحُكْمِ اللَّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ»^(١)، «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا» «أنا أمين من في السماء»^(٣).

قالت المجسمة: كل تلك النصوص تثبت أن الله تعالى في جهة فوق دون بقية الجهات وأنه مستوٍ على العرش بذاته، استواء فوقية وإستقرار. والحديث الذي يثبت النزول محموراً على الحقيقة عندنا، والنزول لا يكون إلا من فوق!!

قلت: إن من المقطوع به عند أهل العلم قاطبة، أن الباحث إذا أراد أن يصدر رأياً في قضية شرعية -عقدية كانت أو فقهية-، فلا بد أن يجمع كل ما يتعلق بها من النصوص. وقد جمعت ما ظننت أنه يؤيد عقائدكم ورأيكم فيه تعالى، ولكنكم تجاهلتم بقية النصوص التي تفيد خلاف عقيدتكم إذا حُرِلَتْ على الحقيقة أيضاً.

ثانياً: بعض النصوص التي تفيد ظواهرها وحقائقها اللغوية خلاف ما أثبتوه من النصوص السابقة:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]، ﴿وَنَبْدِيئَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرْنَهُ نَحْيَا﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾

(١) قال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٢٣١ / ٥): هذا إسناد فيه محمد بن عمر الواقدي وهو ضعيف، اهـ
قلت: أخرجه الأموي في مغازيه بسند حسن. والقصة مشهورة معروفة في كتب السيرة.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

مِنْ شَطِئِ آلِوَائِ الْإِيْمَنِ فِي الْبَقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَ إِفْتَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ
 حَيْتُ ﴿ [القصص: ٣٠]، ﴿إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]، ﴿إِنِّي
 كَمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، ﴿إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ
 اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ
 - نَهُمْ وَلَا أَذًى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ
 . - بَقْعَةٍ: [١١٥].

وقال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَلَا يَبْصُقُ قِبَلَ وَجْهِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قِبَلَ
 - إِذَا صَلَّى»^(١)، «إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ»^(٢)، «الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَيَّ
 - مِّنْ عُنُقِي رَاحِلَةِ أَحَدِكُمْ»^(٣)، «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي»^(٤)، «أَنَا مَعَ
 - مَ ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَاتُهُ»^(٥)، «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»^(٦)،
 - حَنِظَ اللَّهُ تَحِذَهُ مُجَاهِدٌ»^(٧)، وفي الحديث القدسي يقول تعالى لعبده وهو يحثه على عيادة
 - بَر: «أَمَّا إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ»^(٨).

فأقول: كل هذه النصوص لو أثبتنا حقيقتها نكون قد جعلنا الله تعالى في الأرض على
 حنيفة. لأن الساجد يسجد على الأرض، والمصلي يصلي على الأرض، والقبلة على الأرض،
 عني يواجه الكعبة التي هي في الأرض، والذين يتناجون يتناجون على الأرض، والذين
 - نَ مَا لَا يَرْضَى اللَّهُ مِنَ الْقَوْلِ يبيتونه وهم على الأرض، وموسى وهارون عليهما السلام

متفق عليه.

متفق عليه.

مسلم: (٢٧٠٤).

متفق عليه.

قال الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام (٤٥٢): ذكره البخاري تعليقا وصححه ابن حبان. وصححه تقي الدين
 نغزي في إتيان ما يحسن: (١/١٢٤). والألباني في صحيح ابن ماجه: (٣٠٧٤) وصحيح الترغيب:
 (١٤٩٠) وغيرهما.

مسلم: ٤٨٢.

صحيح: سنن الترمذي (٢٥١٦)، وغيره.

مسلم: (٢٥٦٩).

٢٨٦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ ❦ الانتصار لأهل السنة وكشف مذهب أدعياء السنة

كانا على الأرض، ومحمد ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه كانا في الغار الذي هو على الأرض. والشجرة التي نودي منها موسى عليه السلام على الأرض!

التعامل الأمثل مع هذين النوعين من النصوص:

يقول الدكتور عمر عبد الله كامل: «إذا أردنا أن نتعامل مع النصوص التي تثبت الكون العلوي والتي تثبت الكون السفلي. فليس أمامنا إلا مسلكين:

(أ) المسلك الأول: الأخذ بظواهر النصوص جميعا:

ويلزمنا حينئذ: إما الترجيح بين أدلة الكون السلفي وأدلة الكون العلوي، وإما الجمع بينها.

أولاً: الترجيح بين الأدلة:

بالنظر إلى أن النصوص الدالة على الكون السلفي أكثر من النصوص الأخرى، فيكون الله سبحانه موجودا في الأرض بذاته. وهذا لا نقول به، لمنافاته التنزيه.

ثانياً: الجمع بين النصوص الدالة على الكون العلوي والسفلي:

فيكون الله سبحانه موجودا بذاته في كل مكان في أرضنا والأرض السابعة وفي السماء فوق العرش، كما تدل عليه الظواهر والحقائق اللغوية في تلك النصوص: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]. ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤]. وهذا أيضا لا نقول به لمنافاته للتنزيه.

(ب) المسلك الثاني: التنزيه:

وهو مذهب أهل الحق.

وهو أن الله تعالى منزّه عن المكان والحدود والتحيّز وما إلى ذلك، فهو سبحانه كن موجودا وليس ثمة عرش ولا سماء ولا أرض. كما قال ﷺ: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ»^(١). ولم يحدث أو تتجدد له سبحانه صفة بعد خلقها، وهو الآن على ما عليه كان.

(١) صحيح البخاري: (٣١٩١).

وإذا كانت النصوص الدالة على الكون السفلي مصروفة عن ظاهرها بقرينة تزئيه الله وتعظيمه، وتفسر فيها المعية أو الأقربية المذكورة بمعية العلم أو النصرة أو التأيد، وكذلك الأقربية وغيرها حسب القرائن الواردة في نفس النصوص. فلكذلك النصوص الواردة في الكون العلوي في السماء أو على العرش مصروفة بالقرائن الواردة في نفس النصوص. لأن التواجد في مكان أو جهة كلها من صفات المخلوقات الحادثة بعد العدم^(١) اهـ ببعض التصرف.

قلت: إذن الطريق الوحيد السديد للتعامل مع التعارض الواضح في مدلولات ظواهر تلك النصوص هو أن نفهمها كما فهمها العرب الأوائل من الصحابة والتابعين، فنحملها على المعاني المجازية التي تدل عليها القرائن وسياقات النصوص. وإلا فإننا بذلك نلغي بعض النصوص لحساب بعضها الآخر بغير دليل، ونكون ضربنا كلام الله تعالى بعضه ببعض، على وجه يقتضي تكذيب البعض الذي تركناه. وحاشاه سبحانه ثم حاشاه أن يكون في كلامه كذب، بل هو أصدق القائلين.

(١) نقض قواعد التشبيه، د. عمر عبد الله كامل: (١١٣-١١٤).

المطلب الرابع

ترجيحهم بعض محامل اللفظ على البعض الآخر

المساوي له بدون دليل:

وبقيت نقطة أيضا في هذا الموضوع، وهي أننا لو حملنا النصوص التي يثبتون ظواهرها وحقائقها اللغوية لله تعالى لوقعنا في تعارض وتناقض شديدين، سواء في نصوص الكون العلوي والسفلي أو في بقية النصوص، التي تدل على أن الله تعالى له جسم أو أجزاء وأعضاء. فالقوم أثبتوا لله تعالى يدين اثنتين بقوله تعالى ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]. فنقول لهم: لماذا اقتصرتم على يدين اثنتين فقط، والله تعالى ذكر أيادٍ كثيرة، كما ورد في قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ [يس: ٧١]. فإن النص يثبت أياد كثيرة.

فإن قالوا: إن أقل الجمع اثنان، فنحن نثبت بالجمع يدين اثنتين. قلنا: إن النص إن كان يدل على عقيدة - وهو عندكم كذلك - فلا بد فيه من البيان المفصل، وهذا ما تطالبون به مخالفكم دائما. ثم إنكم بهذا تؤولون ظاهر لفظ الجمع وتحملونه على لفظ الثنية، وليس أحدهما أولى بالحمل على الآخر منه!

إذن، فيجب أن ننفي المعنى الحسي ونتخطى الحقيقة اللغوية، ونجد معنى آخر من خلال السياق، تقره الآية ولا يتناقض مع التنزيه.

وأثبتوا كونه تعالى فوق العرش فوقية حقيقية باستقرار وتمكّن وفوقية مكان من قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. فنقول لهم: إن العرش فوق السماوات السبع كما هو معلوم، وقد قال تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦]، وقد أثبت أنه في السماء من هذه الآية. أفلا تستقرون على رأي في المسألة، وتقولون هل هو في السماء أم فوق السماء؟

فإن قالوا: «في» بمعنى «على» كقوله تعالى حكاية عن فرعون ﴿وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ

أَتَخَلَّ ﴿طه: ٧١﴾، ويريد على جذوع النخل. قلنا: ليس أحد المعنيين بأولى من الآخر في الحمل، فلا شيء يمنع من تجويف النخل أو فلقه والصلب في جوفه أو في شقه. وإن لم يكن كذلك، فالقول هنا كالقول في المسألة السابقة!

فلا بد أيضاً أن ندير ظهرنا لما يتأتى منه التشبيه ونُقْبِلَ على ما يؤكد التَّزْيِيه.

وأثبتوا كونه تعالى على العرش بذاته كما سبق، وأثبتوا نزوله في الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا.

فنقول لهم: إن الليل لا ينتهي من الأرض أبداً، لأننا إذا كنا في مكة الآن وكان الوقت هو الثلث الأخير من الليل، فإن الوقت نهار في طوكيو مثلاً، فيقتضي ذلك كونه على العرش بالنسبة لسكان طوكيو، وفي السماء الدنيا بالنسبة لأهل مكة! وكما هو معروف، فسيستقر الليل تدريجياً من مكة حتى يصل إلى طوكيو. ففي تلك الأثناء سيكون فوق العرش بذاته. وتحت العرش بذاته في السماء الدنيا، كل ذلك في الوقت ذاته!

وهذا ما لا يقوله عاقل أبداً، فضلاً عن أن يقوله مسلم يتزّه ربه تعالى من مشابهة خلقه، بل من متناقضات خلقه.

الفصل السابع الكلام على الظاهر

أفردتُ الكلام عن هذا المبحث لأن القوم يُكثِّرون الطعن في المجاز، والتشنيع على من قال بشوته، حيث أنكروه وأدَّعَوْا عدم وجوده في القرآن والسنة، بل وبالغ بعضهم فأنكر أن تكون اللغة كلها فيها مجاز!

فيدعي المجسمة: أن أهل السنة الأشاعرة والماتريدية يفسرون بعض آيات القرآن والأحاديث التي تتحدث عن صفات الله عز وجل بالمجاز، لأنهم يرفضون الحقيقة التي هي ظاهر القرآن والسنة، وهذا يعني أن ظاهر كلام ربنا سبحانه وكلام رسوله ﷺ تشبيه وتجسيم، فلا بد من صرفه للمجاز. وفي هذا تهمة لكلام ربنا وكلام رسوله ﷺ وتشكيك فيهما، وإذا انفتح باب القول بالمجاز ستضطرب العقيدة، ويفسَّر كل شيء بالمجاز الذي لا ضابط له، فتضيع العقيدة والشريعة، ونخشى أن يقولوا لنا بعد ذلك أن الله تعالى نفسه مجاز.

وهذه شبهة يتأثر بها الكثيرون، خاصة مع عموم الجهل المنتشر باللغة العربية وفنونها في عصرنا. والحقيقة أن المجاز جزء لا يتجزأ من اللغة العربية، بل ومن جميع اللغات، وحتى اللهجات العامية.

كما أن سبب عمل أهل السنة بالمجاز ليس كونهم يرفضون الظاهر على إطلاقه، بل لأنهم يرفضون ما يدل على التجسيم، مما يتوهم البعض أنه ظاهر النص، وهو في الحقيقة ليس ظاهراً.

وسنوضح سبب الخلط الحاصل في أذهان من تأثروا بتلك الشبهة، لذلك فإن بيان المقصود بالظاهر غاية في الأهمية هنا.

والمسألة أصلاً لغوية بحتة، قررها علماء اللغة وبينوها، من قبل ظهور محمد بن عبد الوهاب، بل ومن قبل ابن تيمية أيضاً بعدة قرون.

فمن المتفق عليه أن اللفظ إذا لم يحتمل إلا معنى واحداً، أو كان يحتمل عدة معاني، لكن دلالاته على أحد تلك المعاني أقوى من دلالاته على غيره، ولم تكن هناك قرينة في السياق تدل على معنى آخر، فإن المعنى الظاهر المتبادر للذهن هنا يسمى نصاً، ويعني الحقيقة اللغوية أو المعنى القاموسى لِلْفَظِ المذكور، ولا يعني شيئاً آخر على الإطلاق.

لكن ليست كل ألفاظ القرآن والسنة واردة على نفس الأسلوب، بل ثبت أن الألفاظ تختلف دلالتها، وثبت أن اللفظ الواحد قد يكون له معنى في سياق معين، وله معنى آخر في سياق آخر.

يقول الدكتور عمر كامل: «والسبب في ذلك: أن المعاني المختلفة لنفس اللفظ لا تكون واضحة أو راسخة في ذهن المستمع بنفس القوة، ولا تتوارد هذه المعاني على ذهنه عند سماع اللفظ بنفس السرعة، بل تتوارد المعاني الحسية أولاً إن وُجِدَتْ، ثم إن كانت هناك قرائن في السياق تشير إلى أن المتكلم يقصد معنى آخر فسيستجه الذهن مباشرة إلى ذلك المعنى، وهذا المعنى الجديد هو المعنى المرجوح لغوياً، إذ أن الذهن لم ينصرف إليه إلا بعد أن فحص المعنى الأول ووجد أن كل الشواهد تدل على أن المتكلم لا يقصده.

قال الإمام الشافعي: «ومنه -أي القرآن- ظاهر يُعْرَفُ في سياقه أنه يراد به غير ظاهره»^(١). أي: يراد به المعنى المرجوح، لأن السياق يدل على ذلك. وهذا اللفظ يسمى في تلك الحالة مُؤَوَّلًا. أي: آل إلى ذلك المعنى على سبيل المجاز»^(٢) اهـ.

ويقول الإمام التلمساني: « اعلم أن القول إما أن يدل بالوضع على معنى واحد لا يحتمل غيره، وإما أن يحتمل معنيين. فإن دل بالوضع على معنى واحد فقط فهو النص، وإن احتمل معنيين ولم يكن راجحاً في أحدهما فهو المُجْمَل، وإن كان راجحاً في أحدهما من جهة لفظه وضعاً فهو الظاهر» (٣) اهـ.

(١) الرسالة للإمام الشافعي: (٥٢).

(۲) نقض قواعد التشييه، د. عمر عبد الله كامل: (۹۲-۹۳)، بتصرف يسير.

(٣) مفتاح الأصول للإمام أبي عبد الله التلمساني المالكي: (٦٢).

ويقول الشيخ محمد الحسن الددو: «الظاهر قسان: ظاهر من جهة اللفظ، وظاهر من جهة الدليل، أي: دل الدليل على ظهوره في المعنى الآخر المرجوح الذي كان خفياً فيه، فيسمى ظاهراً فيه»^(١) اهـ.

نخلص مما سبق إلى أن الألفاظ التي لا إشكال فيها، على قسمين عند الأصوليين:

١ - نص: وهو ما أفاد معنى واحدا لا يحتمل غيره، مثل قوله تعالى: ﴿فَصَيِّمُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]، فلفظ الثلاثة ولفظ السبعة يدلان بمعناهما القاموسي - وهو الحقيقة اللغوية - على عديدين معروفين.

٢ - وظاهر: وهو اللفظ الذي يحتمل أكثر من معنى .

ويكون راجحاً في أحد هذه المعاني، عند خلوّ الكلام من قرينة تدل على معنى من المعاني الأخرى .

مثل لفظ اليد في قوله تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]. فاليد يُقصد بها هنا الجارحة المركبة من لحم ودم وعروق وغير ذلك، ولا يقصد بها أي معنى آخر من معانيها، كالنعمة والقدرة والفضل، لأن السياق يؤيد ذلك، ويخلو من أي قرينة تصرف لفظ اليد عن المعنى الراجح إلى معنى مرجوح. ويلتحق الظاهر هنا بالنص، لأنه أفاد حقيقة اللفظ التي وضع لها في الأصل.

فإن وُجدت قرينة في السياق تدل على إرادة المعنى المرجوح، كان الأصح هو صرف الظاهر من المعنى الراجح إلى المرجوح، ويتحول المرجوح هنا راجحاً بسبب تلك القرينة، ويكون الظاهر هنا مؤولاً.

مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ بِاللَّهِ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُتَّوْنَهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]. فاليد هنا ليست الجارحة، لأن القرينة القرآنية في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] تثبت أنه

(١) بلفظه من شرح متن الورقات (مسموع) - محمد الحسن ولد الددو الشنقيطي، الشريط السادس.

لا يشبه خلقه في أنه له أعضاء مثلهم كاليد وغيرها، وكذلك القرينة العقلية تقطع باستحالة أن تكون لله يد حقيقية يضعها فوق أيدي عباده وهم يتبايعون ويتعاهدون، وسياق النص هو في الأصل إخبارٌ عن وقوع بيعة بين النبي ﷺ والمؤمنين، وأن الرب سبحانه راض عن البيعة وينسبها إلى نفسه. لذلك فالأصح أن يكون المعنى هنا هو تأييد الله تعالى ورضاه عن تلك البيعة، وهذا ما يسميه أهل اللغة المجاز.

وذهن السامع عند سماع لفظ «اليد» يتبادر إليه المعنى الراجع أولاً، فإن وَجَدَ قرينة تدل أن المعنى الراجع غير مراد انصرف إلى المعنى المرجوح الذي تدل عليه القرينة. وكذا المعنيين يسمى ظاهراً، سواء كان راجحاً أو مرجوحاً، كل منهما باعتبار. فالراجع من حيث الاصطلاح على تسميته بالظاهر، والمرجوح من حيث دلالة السياق عليه حتى أصبح راجحاً، وصار واضحاً وظاهراً أنه هو المراد من السياق لا المعنى الأول.

فابن تيمية وشيعته يقولون: الظاهر هنا هو الحقيقة اللغوية التي يفيدها المعنى القاموسي للفظ اليد، ولا يقصدون ظاهراً غيره عندما يقولون نحمل النصوص على ظواهرها، وليس للفظ اليد معنى قاموسياً سوى الجارحة، وهذا مذهبهم في بقية النصوص الموهمة للتشبيه، كما سبق ونقلنا عن أكابرهم القدامى والمعاصرين.

وأهل السنة الأشاعرة والماتريدية يقولون: بل الظاهر هنا هو التأويل الذي دلت عليه القرينة، وليس الجارحة؛ لأن دلالة لفظ اليد على الجارحة -عند التحقيق-، هي من باب النص وليست من باب الظاهر.

ولأن كلا المعنيين يسمى ظاهرا كما سبق وأشرنا، تجدد بعض أهل السنة إذا أراد الكلام مع المجسمة عن قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] مثلا، يقول: إن الظاهر ليس مرادا، أو يقول اللفظ مصروف عن ظاهره. ويقصد به الظاهر عند ابن تيمية وشيعته، الذي هو في هذه الحالة المعنى القاموسي والحقيقة اللغوية للفظ، وذلك لكي يفهموا عنه ما يقول. طالما يصرون على تسمية النص والحقيقة ظاهرا. ومن هذا الباب قول الإمام الشافعي: «ومنه ظاهر يُعَرَّفُ في سياقه أنه يراد به غير ظاهره».

فاستغل ابن تيمية والمجسمة مجارة أهل السنة لهم في الاصطلاح، وراحوا يشنعون عليهم بأنهم ينفون الظواهر، ويدعون أن ظواهر القرآن والسنة تجسيم. فإذا سمع هذا الكلام إنسان ليس له اطلاع في علوم العقيدة وقرأ نفي أهل السنة للظاهر، وقع في قلبه صدق ابن تيمية والمجسمة، فيقول في نفسه: إن هؤلاء يتهمون كلام الله بأن ظاهره يؤدي إلى التجسيم.

وعلى ذلك، راح هو وشيعته يثبتون لله تعالى صفات الأجسام التي يقدرُونَ على ثبوتها. وَمَنْ تَعَرَّضَ لهم وحاول الرد عليهم وتصحيح رأيهم رفعوا في وجهه سيف التشنيع، واتهموه بأنه يزعم أن كلام الله تعالى ورسوله يدل ظاهره على التجسيم، وأن في ذلك كفراً بالله ودعوة صريحة إلى تعطيل القرآن والسنة، وفتحاً لِبَابِ التحريف والإلحاد!

وهذا الباب دقيق جداً في ملاحظته، فانتبه رعاك الله إلى المقصود من نفي المعنى لظاهر، حتى لا يخذلك المجسمة ويصرفونك عن مسلك أهل السنة^(١).

أمثلة من كلام ابن تيمية عن الظواهر يلزمه بها إبطال كل ما أطال في تقريره:

يقول الدكتور صهيب السقار^(٢): من الغريب الشديد الغرابة أن ابن تيمية نفسه ينقض مذهبه الذي أطال في تقريره، فيلتقي مع المؤولين على نفي الظواهر. وسنستشهد بخمسة أمثلة من كلامه هو لا من كلام غيره.

المثال الأول: أنه يتحدث عن افتراق الناس في التزام الظواهر، فيذكر من اختار الإقرار بالنصوص ولم يصرف واحداً فيها عن ظاهره. فيقول: «لكنه غلط أيضاً»^(٣). وهذا اعتراف منه بوجوب العدول عن بعض الظواهر وهو التأويل.

(١) للاستزادة والتفصيل في الكلام عن الظاهر عند أهل السنة وعند المجسمة وتوضيح الفرق بين قصد كل منها، انظر: نقض التدمرية لشيخنا العلامة الأستاذ سعيد فودة، وكذلك نقض قواعد التشبيه للدكتور عمر عبد الله كامل، فقد كفيا ووفيا في هذا المبحث جزاها الله خيراً.

(٢) التجسيم في الفكر الإسلامي - د. صهيب محمود السقار، رسالة دكتوراه - جامعة بغداد.

(٣) بيان تلبس الجهمية لابن تيمية: (١/٥٥٦)، وانظر نحوه في كتب ورسائل ابن تيمية في العقيدة:

الله عَلَى الْمُشْرِكِينَ»^(١)، وقول ابن عباس: «الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ اسْتَلَمَهُ وَصَافَحَهُ فَكَأَنَّمَا بَايَعَ رَبَّهُ»^(٢)، أو كما قال ونحو ذلك. فهذا اللفظ فيه تجوز.

وإن كان قد ظهر من اللفظ مراد صاحبه، وهو محمول على هذا الظاهر في استعمال هذا المتكلم، لا على الظاهر في الوضع الأول، وكل من سمع هذا القول علم المراد به وسبق ذلك إلى ذهنه بلا احتمال إرادة المعنى الأول، وهذا يوجب أن يكون نصاً لا محتملاً. وليس حمل اللفظ على هذا المعنى من التأويل الذي هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح في شيء، وهذا أحد مشارات غلط الغالطين في هذا الباب، حيث يتوهم أن المعنى المفهوم من هذا اللفظ مخالف للظاهر وأن اللفظ مُتَأَوَّلٌ^(٣) اهـ.

فما الذي يمنع مثل هذا التصرف في سائر النصوص؟ فبعد الاعتراف بثبوت التجوز في بعض ألفاظ الشارع، ما الفرق بين هذا المثال الذي جَوَّز فيه هذا التصرف وبين سائر النصوص التي منع تأويلها. فهو لم يبين ما يصلح فارقاً بين الاثنين إلا سبقَ الذهن إلى ظهور المجاز، وهذا مما تختلف فيه الأذهان، ويمكن معه للمؤول في كل نص سلك به مسلك التأويل أن يبين سبق الظاهر المجازي إلى ذهنه.

المثال الثالث: أنه اعترف بجواز العدول عن الظواهر، لكنه متوقف على أربعة أشياء، سلّمنا في الأول والثاني والثالث، وأبطلنا تمسكه بالرابع.

قال رحمه الله: «فصرّفها عن ظاهرها اللائق بجلال الله سبحانه وحقيقتها المفهومة منها إلى باطن يخالف الظاهر ومجاز يناقض الحقيقة لابد فيه من أربعة أشياء:

أحدها: أن ذلك اللفظ مستعمل بالمعنى المجازي؛ لأن الكتاب والسنة وكلام السلف جاء باللسان العربي، ولا يجوز أن يراد بشيء منه خلاف لسان العرب.

الثاني: أن يكون معه دليل يوجب صرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه.

(١) البخاري: (٣٥٤٧)، وصحيح ابن حبان: (٧٠٩١).

(٢) انظر حاشية رقم: (٣٨١) من هذا الكتاب.

(٣) مجموع الفتاوى: (٢١٤/٣٣).

الثالث: أنه لا بد من أن يَسْكَم ذلك الدليل الصارف عن مُعَارِضٍ، وإلا فإذا قام دليـ
قرآني أو إيماني يبين أن الحقيقة مرادة امتنع تركها.

الرابع: أن الرسول ﷺ إذا تكلم بكلام وأراد به خلاف ظاهره وضد حقيقته، فلا بد أن يبين للأمة أنه لم يرد حقيقته وأنه أراد مجازه، سواء عينه أو لم يعينه، لا سيما في الخطب العلمي الذي أريد منهم فيه الاعتقاد والعلم دون عمل الجوارح. فإنه سبحانه وتعالى جعده القرآن نوراً وهدى وبياناً للناس، ثم هذا الرسول الأمي العربي بُعث بأفصح اللغات وأبين الألسنة والعبارات، ثم الأمة الذين أخذوا عنه كانوا أعمق الناس علماً وأنصحهم للأمة وأبينهم للسنة. فلا يجوز أن يتكلم هو وهؤلاء بكلام يريدون به خلاف ظاهره إلا وقد نصب دليلاً يمنع من حمله على ظاهره، إما أن يكون عقلياً ظاهراً مثل قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، فإن كل أحد يعلم بعقله أن المراد أوتيت من جنس ما يؤتاه مثلها. أو سمعياً ظاهراً، مثل الدلالات في الكتاب والسنة التي تصرف بعض الظواهر»^(١) اهـ.

وفيه نظر من وجوه:

الأول: أنا لا نسلم أن هذه الظواهر من الخطاب العلمي الذي أريد منهم فيه الاعتقاد والعلم، فهذه النصوص لم تُسَقَّ أصالةً لبيان الصفات، كما هو ظاهر في جميع هذه النصوص. فمثلاً قول الله عز وجل: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] لم يُسَقَّ لإثبات صفة العين، بل السياق في مواساة النبي ﷺ، وفيها يأمر الله عز وجل نبيه ﷺ بالصبر على أذى المشركين، ويشير الله عز وجل بأنه في حفظه ورعايته وحمايته (٢).

الثاني: أن ابن تيمية صرح بأن التثبت في جميع النصوص بظواهرها غلط، ونص أيضاً على حمل بعض النصوص على ظاهرها المجازي. فأين ما يطالب به من الدليل الشرعي على أن الشارع أراد بهذه النصوص خلافَ ظاهرها بالوضع؟ وجوابنا هو جوابه.

(١) الرسالة المدنية لابن تيمية: (٦/ ٣٦٠-٣٦٢).

(٢) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان لمحمد علي الصابوني: (١٦٩/٤).

فإن لم يذكر الجواب عن نفسه .. فجوابنا: أن أساطين الفصاحة ممن نزل القرآن بلغتهم هم أغنى الناس عن التنبيه إلى أساليب العربية في التجوز، وهم أنزه أصحاب الألسنة عن الركون إلى الظواهر والجمود على الألفاظ، وكيف يُتَصَوَّر حاجتهم إلى التنبيه بإهمال الظواهر التي لم يخف إهمال بعضها على أركن الناس إلى الحس وأكثرهم تقديساً لهذه الظواهر.

الثالث: لو سلمنا بلزوم الحاجة إلى دليل يمنع من حمله على ظاهره، فالدليل الذي يريده ابن تيمية إما أن يكون عقلياً ظاهراً أو سمعياً ظاهراً، مثل الدلالات في الكتاب والسنة التي تصرف بعض الظواهر.

ولا يخفى أن أهل التأويل كشفوا عن قواطع عقلية وقواطع سمعية تمنع من الحمل على الظواهر في هذا الباب.

الرابع: أن هذا الذي ذكره من الحاجة إلى البيان يلزمه الحاجة إلى مثله من البيان لمنع حملها على الظواهر. لأن هذه الألفاظ على ظاهرها تفيد الجوارح والأعضاء، وإثباتها صفات لله عز وجل فيه صرف لها عن ظواهرها، وهذا الصرف إلى الصفات أحوج إلى البيان من صرفها بالتأويل؛ لأن اللغة تساعد على حملها على الوجوه التي يذكرها المتأول. أما حملها على الصفات فليس من أساليب العربية المعروفة، فيتعين أن يكون استعمالاً شرعياً يحتاج معه إلى بيان شرعي.

المثال الرابع: أن ابن تيمية رحمه الله يتجاهل كل ما ذكره من دعوى براءة ظواهر الكتاب مما يوهم التجسيم، ويدعو إلى تفويض المعنى لله عز وجل، ويأمر برد الألفاظ القليلة المشككة إلى محكم التزّيه. كل ذلك يخاطب به النصاري في كلام طويل هو عين الكلام الذي خاطبه به أهل السنة، فاشتد في إنكاره عليهم!

يقول ابن تيمية: «غلاة المجسمة الذين يكفّهم المسلمون أحسن حالاً منكم شرعاً وعقلاً، وهم أقل مخالفة للشرع والعقل منكم، فإذا كان هؤلاء خيراً منكم فكيف تشبهون أنفسكم بمن هو خير من هؤلاء من أهل السنة من المسلمين، الذين لا يقولون لا بتمثيل ولا بتعطيل.

وبيان ذلك: أن التوراة والإنجيل وسائر كتب الله وغير ذلك مما هو مأثور عن الأنبياء فيه نصوص كثيرة صريحة ظاهرة واضحة في وحدانية الله وأنه لا إله غيره، وهو مسمى فيب بالأسماء الحسنی موصوف بالصفات العلى، وأن كل ما سواه مخلوق له ليس فيه تثليث، ولا اتحاد الخالق بشيء من المخلوقات، لا المسيح ولا غيره، وفيها ألفاظ قليلة مشككة متشبهة. وهي مع ذلك لا تدل على ما ذكرتموه من التثليث والاتحاد لا نصاً ولا ظاهراً، ولكن بعضها يحتمل بعض ما قلتم، فأخذتم ذلك المُحْتَمَل وَضَمَمْتُمْ إليه من الكفر الصريح والتناقض القبيح ما صيرتموه أمانة لكم، أي عقيدة إيمان لكم.

ولو كانت كلها تحتمل جميع ما قلتم لم يجز العدول عن النص والظاهر إلى المحتمل.

ولو كان بعضها ظاهراً فيما قلتم لم يجز العدول عن النصوص الصريحة إلى الظاهر المحتمل.

ولو قُدِّرَ أن فيها نصوصاً صريحة قد عارضتها نصوص أخرى صريحة، لكان الواجب أن ينظروا بنور الله الذي أيد به عباده المؤمنين فيتبعون أحسن ما أنزل الله، وهو المعنى الذي يوافق صريح المعقول وسائر كتب الله. وذلك النص الآخر إن فهموا تفسيره وإلا فوضوا معناه إلى الله تعالى إن كان ثابتاً عن الأنبياء.

وهؤلاء عدلوا عما يُعلم بصريح المعقول وعما يُعلم بنصوص الأنبياء الكثيرة إلى ما تحتمله بعض الألفاظ لموافقة هواهم، فلم يتبعوا إلا الظن وما تهوى الأنفس.

وأما كفار المجسمة فهؤلاء أعذرو وأقل كفراً من النصارى، فإن هؤلاء يقولون - كما يقوله معهم النفاة - إن ظواهر جميع الكتب هو التجسيم، ففي التوراة والقرآن من الآيات التي ظاهرها التجسيم ما لا يحصى^(١) اهـ.

قلت: فليس بعد هذا البيان بيان. فابن تيمية يطالبهم بما يطالبه به أهل السنة من العدول عن التشابه إلى المحكم، ورد المحتمل إلى غير المحتمل، ويقر بأن النصوص الموهمة

الفصل السابع: الكلام على الظاهر ٣٠١
للتشبيه عارضتها نصوص أخرى في قوتها موهمة أيضاً ويفيد ظاهرها نقيض ما يفيد ظاهراً
الأولى. فليته صنع كما نصح!

ثم يقول الدكتور صهيب: « والحاصل: أن التأويل ثابت عن السلف ولا غنى عنه
للخلف، بل لا غنى عنه لمن أنكر على أهل التأويل. وإنما يُنسب التأويل إلى المعتزلة
والأشاعرة والماتريدية ومن وافقهم، لأنهم توسعوا فيه ولم يتخبطوا كما تخبط فيه أولئك، بل
وضعوا له منهجاً متكاملًا يقوم على أسس واضحة، وعرضوا كثيراً من الأخبار التي يجري
فيها التأويل على هذا الأساس والمنهج. وباستقراء مواضع تأويلاتهم يتضح لنا المنهج الراسخ
الذي سلكه الأشاعرة والماتريدية في التأويل»^(١) اهـ.

(١) التجسيم في الفكر الإسلامي - د. صهيب محمود السقار، رسالة دكتوراه - جامعة بغداد.

خلاصة القول

إن الذين يخوضون في نصوص التشابهات ويجمعونها ويبادلون حولها، ويعملونها محور العقيدة وأساس الدين، هؤلاء يفتقدون الحسّ اللغوي البليغ، وتنقصهم الخشية من الله تبارك وتعالى.

فإن آيات ما يسمى «بالصفات الخبرية» لم تَرَدُّ من أجل إثبات أجزاء للذات الإلهية، ولا لتحديد أعضاء لها!! إنها آيات ذات دلالة حكيمة، لها صلة موضوعية بالسياق الذي وردت فيه.

فَقُولْهُ تَعَالَى: ﴿يَذُ اللَّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] لَمْ يَأْتِ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ لِثَبَتِ أَنَّ اللَّهَ يَدًا، وَلَا لِلْحَدِيثِ عَنْ أَوْصَافِ الْإِلَهِ، وَإِنَّمَا جَاءَ لِتَأْكِيدِ بَيْعَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَحَثِّهِمْ عَلَى الْوَفَاءِ لَهَا وَالِاتِّزَامِ بِهَا وَالْحِرْصِ عَلَيْهَا. وَلِنَقْرَأُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَذُ اللَّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوِّدُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وقوله جل شأنه: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] لم يأت لإثبات أن الله تعالى عينا، ولا علاقة له بهذا الجانب مطلقا، لقد جاء التعبير الكريم دعوة للصبر، وتثبيتا لقلب النبي ﷺ، ودعما له في موقفه أمام أعدائه، وبيانا لفضل الله عليه ورعايته له. ولنقرأ: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورِ﴾ [الطور: ٤٨-٤٩].

وقوله سبحانه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] في كل السور التي جاء بها الاستواء، ما جاء لإثبات صفة ذات الله تعالى، بل السياق القرآني لهذا التعبير الكريم في سابقه ولاحقه يجلي آثار الإبداع والقدرة والهيمنة الإلهية. ولنقرأ: ﴿تَزِيلُ مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْأَعْلَى﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٤-٨]. ولنقرأ أيضا: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ

والساعد والذراع والساق والقدم والرجل والتقرب والإتيان والهرولة والضحك والغيرة والملل والتردد!!

ولا ندري، كيف يفهم هؤلاء بطريقتهم تلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَكُمُ﴾ [السجدة: ١٤]، وقوله: ﴿الْيَوْمَ نَسْنَكُمُ كَمَا فُتِنْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجنّة: ٣٤]. فهل يثبتون النسيان صفة لله ويزعمون أنه نسيان يليق بجلاله؟! كما يثبتون غيرهم من صفات المخلوقين ويقولون ثبت لله اليد والساق والهرولة والحزن والغيرة والتردد على وجه يليق بجلاله!! إن هذا الموقف تنقصه الحشية لله تعالى.

ولم يكن أحد من صحابة رسول الله ﷺ يسأل عن اليمين والأصابع، ولم يتوقف إيمان أحد منهم على إثبات صفة الضحك والفرح، وأدركوا بحسهم الفطري السليم وتذوقهم اللغوي البليغ للغة القرآن المجيد الذي نزل بلسان عربي مبين يعرف الحقيقة والمجاز في التعبير، وأنه إذا خلا الكلام عن المجاز فقد خلا عن الحُسْن!!

إن هذه النصوص الشرعية لا تقدّم صفة من صفات الذات الإلهية، ولا تأمر بعقيدة يرتبط بها الإيمان. بل جيء بها في سياق معين يخلص واقعة من الوقائع أو موقفاً من المواقف، تُفهم من خلاله^(١).

نقل ما يخص صفات الباري سبحانه من العقيدة الطحاوية

واخترت الطحاوية، لكونها مُجمّعا عليها ومعترفا بها فيها. ويدرسها أهل السنة في معاهدهم ومدارسهم ومؤسساتهم، كما يدرسها المجسمة كذلك في معاهدهم ومدارسهم ومؤسساتهم، لعل الله يجمع هذه الأمة مرة أخرى على أمر رشيد.

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي رحمه الله تعالى:

الإيمان بالله تعالى:

نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله: إن الله واحد لا شريك له، ولا شيء مثله، ولا شيء يعجزه، ولا إله غيره.

قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء، لا يفنى ولا يبید، ولا يكون إلا ما يريد.

لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام، ولا يشبه الأنام.. حي لا يموت، قیوم لا ینام.

خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة، ممت بلا مخافة، باعث بلا مشقة.

ما زال بصفاته قديما قبل خلقه، لم يزد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفاته، وكما كان بصفاته أزليا كذلك لا يزال عليها أبديا.

ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق، ولا بإحداث البرية استفاد اسم الباري.

له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالقية ولا مخلوق.

وكما أنه حيي الموتى بعدما أحياهم استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم.

ذلك بأنه على كل شيء قدير، وكل شيء إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شيء، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

نقرم يخص صفت البدي سبحة من العقيدة الضحوية ﴿٣٠٩﴾
الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوساً
تائها، زائغاً شاكاً، لا مؤمناً مصداقاً، ولا جاحداً مكذبا.

ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم يَوْهَم، أو تأولها بفهم، إذ
كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية بترك التأويل ولزوم التسليم، وعليه
دين المسلمين.

ومن لم يتوقّف النفي والتشبيه زَلَّ ولم يُصَبِّب التَّنْزِيه، فإن ربنا جل وعلا موصوف
بصفات الوجدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية. وتعالى عن
[الحدود^(١) والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر
المبتدعات^(٢)]. ٠

(١) وهذا تصريح بإنكار الحدّ له تعالى، وقد سبق أنهم طردوا الحافظ ابن حبان من سجستان لما أنكره!
(٢) وهذا تصريح باستحالة التحيز في جهة من الجهات، خلافاً لما يدّعون من انحيازهم تعالى إلى جهة فوق.

الخاتمة

بقي أن يقال: إن هذه القضية وأمثالها من القضايا الدقيقة في العقيدة الإسلامية، لم يكن لها أن تُطرح وتُعرض على العامة والخاصة كما يحدث الآن، وأن من أثاروها عكَّروا صفو الحياة الإسلامية وعطلوا طاقات الفكر الإسلامي، حيث شغلوها بالجدال والنزاع في هذه المسائل التي لا يُبنى عليها عمل، ولا ينتهي الخلاف فيها، بسبب مكابرة البعض وعنادهم، من لا تخلو منهم الأرض إلى قيام الساعة.

فأول سؤال في القبر سيكون: من ربك؟ وما دينك؟ وماذا كنتَ تقول في سيدنا محمد ﷺ؟^(١).

ولم يرد في النصوص سؤال عن: [استواء ولا يد ولا ساق ولا عينين ولا نزول ولا تحرك ولا هرولة ولا صورة ولا ظل ولا ملل] ولا غيرها، مما يسميه المجسمة صفاتٍ حقيقية للباري تعالى.

ومكان الحوارات والمناقشات في تلك المسائل، هو حلقات العلم وقاعات المناظرات وميادين العلوم، لا الفضائيات ولا الكتيبات التي توزع مجاناً على أبواب المساجد، وتُمنح للحجاج والمُعتمرين في البلد الحرام، دون النظر إلى أهليتهم لإدراك مثل هذه القضايا!

ولولا إثارة أديعاء السلفية لها تحت شعار عقيدة السلف ودخولهم فيما لا يحسنون، ما تكلم أهل السنة والجماعة فيها ليردوا عليهم ضلالتهم ويحفظوا عقائد الناس من خزعبلاتهم. فعندما طرح المبتدعة آراءهم للعوام ولبسوا على كثير منهم دينهم وعقيدتهم، لم يتركوا فرصة لأهل السنة أن يقضروا كلامهم داخل المحافل العلمية ومجامع المناظرة بين العلماء وحسب، بل كان لا بد أن يتم طرح الرد في نفس الميدان وب نفس القوة أو أشد، حتى يعود الأمر إلى نصابه، ويجد كل عالم ما يعتذر به إلى الله تعالى في حالة اتساع الخرق على الراتق.

(١) حديث صحيح. ولفظ السؤال: «من ربك؟ وما دينك؟ وما كنتَ تقول في هذا الرجل؟». رواه أبو داود والترمذي والطبري وغيرهم، وصححه جمهور المحدثين.

- أنهم اقتطعوا النصوص من سياقها، وانتزعوا ألفاظاً بعينها من وسط النصوص، وجمعوا بعضها إلى بعض، ليشبتوا ما يذهبون إليه من تشبيه الله تعالى بخلقه.

- أن مذهبهم يلزم منه وصف الله تعالى بصفات الأجسام ومشابته لمخلوقاته - لا سيما الإنسان - حتى ولو أنكروا ذلك.

- أن المجسمة قديماً وحديثاً تسوّوا بمذهب الإمام أحمد بن حنبل ومذهب أهل الحديث، وادعوا أنهم أتباع السلف الصالحين، وكل هؤلاء برآء منهم ومن مذهبهم، ولا يقولون بالتجسيم ولا بتشبيه الله تعالى بخلقه كما يقول المجسمة.

- أن مذهبهم لم يكن ليتشر في العصور المتأخرة لولا ترويع الناس في بداية أمرهم، وخدمتهم لهذا الفكر بأموالهم وما يسيطرون عليه الآن من فضائيات ومطابع.

- أن أدعياء السلفية في زماننا هم في الحقيقة على عقيدة الكرامة المجسمة الذين ظهروا قديماً وناظرهم العلماء، وليسوا على عقيدة السلف في مسألة النصوص الموهمة للتشبيه.

- أسانيد أدعياء السلفية إلى السلف معضلة شديدة الإعضال، ودون اتصالها خرط القتاد.

- أن الألقاب التي أسبغوها على أنفسهم كأهل السنة وأهل الحديث والطائفة المنصورة والفرقة الناجية وغيرها، هي مجرد انتساب يدعونه وليس هو حقيقة الأمر.

- أن الأشاعرة والماتريدية لم يخترعوا جديداً في الدين، بل أيّدوا النصوص بالحجج والبراهين العقلية، ولا مشكلة في ذلك، إذ أن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ مشحونان بما يدعو إلى التفكير والتدبر، ويعيب على من يقلدون الآباء بدون دليل ولا حجة.

- من خلال سرد أسماء العلماء الكبار ومؤلفاتهم، وأسماء بعض السلاطين والفاطحين العظماء، وكلهم من الأشاعرة والماتريدية، يتبين أنهم جمهور المسلمين والعدد الغفير من المؤمنين، وأن كتبهم ومصنفاتهم هي التي نقلت لنا علوم السلف وأحوالهم وأقوالهم، فهي تمثل المراجع الحقيقية للفكر الإسلامي كله في مختلف علوم الشريعة واللغة والتاريخ، فيكون الطعن فيهم بمثابة الطعن في الإسلام نفسه.

- الأشاعرة والماتريدية في نقلهم مذهب السلف الصالحين اعتمدوا على الأسانيد المتصلة بهم، فهم بذلك أصدق من يتحدث بلسانهم ويتكلم عنهم ويحكي آراءهم ومذاهبهم.

- أن أدعياء السلفية أنفسهم لا يستطيعون تجاهل المراجع التي صنفها الأشعرية والماتريديّة في التفسير والحديث والأصول واللغة والتاريخ، بل هم عيال عليهم محتاجون إليهم وإلى علومهم، في حين أن الأشاعرة والماتريديّة لا يضيرهم ألاّ يلتفتوا لمراجع أدعياء السلفية.

- الكلام في هذه المسألة ما هو إلا دفاع عن أهل العلم وأصحاب الجميل الذين طوّقوا رقاب العباد بصنيعهم الحسّن، ومحاولة لرد غيبتهم بعد وفاتهم، وتبرئتهم من الحملات الجائرة التي تستهدف التشكيك في عقائدهم لأهداف بعيدة كل البعد عن العلم والدين.

وبذلك يكون الكلام قد انتهى في هذه المسألة بحول الله ولطفه وكرمه وتوفيقه

وهو المرجو أن يتقبل هذا العمل ويجعله خالصاً لوجهه الكريم وينفع به كاتبه وقارئه

ووصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين

ثبت المراجع

- الإبانة عن أصول الديانة، الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (٣٢٤هـ) - تحقيق د. فوقية حسين محمود - دار الأنصار، القاهرة ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.
- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن حمدان العُكْبَرِي، المعروف بابن بطة العكبري (٣٨٧هـ) - تحقيق رضا بن نعيان معطي - دار الراية، الرياض ١٩٨٨م.
- ابن تيمية السلفي، د. محمد خليل الهراس - دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- ابن رجب الحنبلي وأثره في توضيح عقيدة السلف، د. عبد الله سليمان الغفيلي - الرياض، ط الأولى ١٩٩٨م.
- إبطال التأويلات لأخبار الصفات، أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء (٤٨٥هـ) - تحقيق محمد بن حمد الحمود النجدي - مكتبة دار الإمام الذهبي، الكويت، ط الأولى ١٤١٠هـ.
- إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري (٨٤٠هـ) - دار الوطن، الرياض، ط الأولى: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل، صالح بن عبد العزيز آل الشيخ - الشاملة.
- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، الملقب بمرتضى الزبيدي (١٢٠٥هـ) - دار الفكر، بيروت.
- إتحاف المريد بشرح جوهره التوحيد، عبد السلام بن إبراهيم اللقاني (١٠٧٨هـ) - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة، مصر ١٣٧٥هـ.
- إتحاف المهرة بأطراف العشرة، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) - الشاملة.

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري الأندلسي (٤٦٣هـ) - الشاملة.
- أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (٤٧١هـ) - شاملة.
- الأسماء والصفات، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨ هـ) - تحقيق عبد الله ابن محمد الحاشدي - مكتبة السوادى، جدة، ط الأولى.
- الأسماء والصفات، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٧٢٨هـ) - تحقيق مصطفى عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٩٨٨م.
- إشارات المرام من عبارات الإمام، كمال الدين أحمد بن حسن بن سنان الدين البيضاى (١٠٩٨هـ) - ط مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.
- اعتقاد الإمام المبجل ابن حنبل، أبو الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث التميمي (٤١٠هـ) - دار المعرفة، بيروت.
- اعتقادات فرق المسلمين والمشرّكين، الإمام فخر الدين الرازي - تحقيق علي سامي النشار - دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـ.
- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، الإمام البيهقي - تحقيق: أحمد عصام الكاتب - دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط الأولى ١٤٠١هـ.
- الأعلام، خير الدين بن محمود بن علي بن فارس الزركليّ الدمشقي (١٣٩٦هـ) - دار العلم للملايين، بيروت.
- إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، د. صالح فوزان الفوزان - مؤسسة التوحيد الخيرية، السعودية.
- إقامة الدليل على إبطال التحليل، تقي الدين بن تيمية - الشاملة.
- الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد الغزالي - مطبعة منير، بغداد، ١٩٩٠م.

- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، تقي الدين بن تيمية - تحقيق محمد بن عبد الرحمن بن قاسم - مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، ط الأولى ١٣٩٢هـ.
- البيهقي وموقفه من الإلهيات، د. أحمد بن عطية الغامدي - الرياض، ط الثانية ١٩٨٢م.
- تاج التراجم في طبقات الحنفية، أبو العدل زين الدين قاسم بن قطلوبغا السودوني الحنفي (٨٧٩هـ) - الشاملة.
- تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، الملقب بمرتضى الزبيدي (١٢٠٥هـ) - دار الهداية.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (٧٤٨هـ) - تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري - دار الكتاب العربي، بيروت.
- تاريخ ابن خلدون «العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٨٠٨هـ) - دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، المعروف بالخطيب البغدادي (٤٦٣هـ) - دار الكتب العلمية، بيروت.
- تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله المعروف بابن عساكر (٥٧١هـ) - دراسة وتحقيق علي شيري - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- التاريخ الصغير، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (٢٥٦هـ) - تحقيق محمود إبراهيم زايد - دار المعرفة، بيروت.
- التاريخ الكبير، البخاري - الشاملة.
- تاريخ نجد: «روضة الأفكار والأفهام لمرئاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام»، حسين بن أبي بكر بن غنام الأحسائي (١٢٢٥هـ) - تحقيق د. ناصر الدين الأسد - دار الشروق، القاهرة.

٣٢٠ الانتصار لأهل السنة وكشف مذهب أدعياء السلفية

- التأويل اللغوي في القرآن الكريم، حسين حامد الصالح - رسالة دكتوراه، جامعة بغداد ١٩٩٥م.

- التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكة، أبو المظفر طاهر بن محمد الإسفرايني (٤٧١هـ) - تحقيق: كمال يوسف الحوت - عالم الكتب، بيروت.

- التبيان في الرد على من ذم علم الكلام، الشيخ جمال صقر - دار المشاريع، بيروت - ط الثانية ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

- تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري، ابن عساكر - دار إحياء الكتاب العربي، بيروت.

- التجسيم عند المسلمين «مذهب الكرامية»، سهير محمد مختار - شركة الإسكندرية للطباعة، ط الأولى - (رسالة ماجستير) جامعة الأزهر ١٩٧١م.

- التجسيم وأثره في الفكر الإسلامي، د. صهيب محمود السقار - (رسالة دكتوراه) جامعة بغداد، (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م).

- التحفة المدنية في العقيدة السلفية، حمد بن ناصر بن عثمان آل معمر - تحقيق عبد السلام بن برجس بن ناصر آل عبد الكريم - دار العاصمة، الرياض، ط الأولى ١٩٩٢م.

- تحفة المريد على جوهرة التوحيد، أبو الأمداد برهان الدين إبراهيم بن هارون اللقاني (١٠٤١هـ) (الجوهرة)، إبراهيم بن محمد بن أحمد البيجوري (١٢٧٧هـ) (التحفة) - مصطفى الباي الحلبي، القاهرة.

- تدريب الراوي على تقريب النواوي، السيوطي - دار الحديث، القاهرة.

- تذكرة الحفاظ، الذهبي - تحقيق زكريا عميرات - دار الكتب العلمية، بيروت. ط الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي - تحقيق د. علي عمر، دار الأمان، الرباط - مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط الأولى ٢٠٠٩م.

- التسعينية، ابن تيمية - ضمن مجموع الرسائل.
- تشنيف المسامع، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (٧٩٤هـ) - تحقيق د. سيد عبد العزيز، د. عبد الله ربيع - مكتب قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، القاهرة. ط ٢، ٢٠٠٦م.
- التعديل والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الجامع الصحيح، أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي المالكي (٤٧٤هـ) - دراسة وتحقيق أحمد لبزار - كلية اللغة العربية، مراكش.
- تعريف الخلف بمنهج السلف، د. إبراهيم بن محمد البريكان - دار ابن الجوزي، الدمام، ط الأولى ١٩٩٧م.
- التعريفات، الشريف أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني (٨١٦هـ) - تحقيق إبراهيم الإياري - دار الكتاب العربي، بيروت، ط الأولى ١٤٠٥هـ.
- تعقيبات على كتاب البوطي «السلفية ليست مذهبا»، د. صالح فوزان الفوزان - دار الوطن، السعودية.
- التعليقات الزكية على العقيدة الواسطية، عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين - تحقيق علي بن حميد أبو لوز - دار الوطن، الرياض، ط الأولى، ١٩٩٨م.
- التعليقات الجليلة على النصائح الذهبية، ضمن: مجموعة رسائل في تدعيم ثوابت الصحوة الإسلامية: [مشاعل للتحويل من ولاء لأشخاص إلى ولاء للحق]. غيث بن عبد الله الغالبي.
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ) - تحقيق سامي محمد سلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع، السعودية - ط الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- التمهيد في أصول الدين، أبو المعين برهان الدين ميمون بن محمد بن مكحول النَّسْفِيّ الحنفي الماتريدي (٥٠٨هـ) - تحقيق محمد عبد الرحمن الشاغول - المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة.

- التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، ابن خزيمة - تحقيق محمد خليل هراس - دار الشرق للطباعة، ١٣٨٨هـ.

- التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، ابن خزيمة - تحقيق محمد خليل هراس - دار الكتب العلمية، ط ١٤٠٣هـ.

- التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين الحدادي المناوي (١٠٣١هـ) - تحقيق: د. محمد رضوان الداية - دار الفكر، بيروت، ط الأولى ١٤١٠هـ.

- تيسير مصطلح الحديث، د. محمود الطحان - مركز الهدى للدراسات، الإسكندرية.

- الثقات، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي الدارمي البستي (٣٦٤هـ) - السيد شرف الدين أحمد - دار الفكر، بيروت، ط الأولى، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

- جامع البيان في تأويل القرآن «تفسير الطبري»، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الآملي الطبري (٣١٠هـ) - تحقيق أحمد محمد شاكر - مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

- الجامع الصحيح «سنن الترمذي»، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي (٢٧٩هـ) - تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون - دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الحزرجي القرطبي، (٦٧١هـ) - تحقيق هشام سمير البخاري - دار عالم الكتب، الرياض.

- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي - تحقيق: أحمد البردوني، إبراهيم أطفيش - دار الكتب المصرية، القاهرة

ط الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

- جواب أهل السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والزيدية، عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (١٢٤٢هـ) - تصحيح محمد رشيد رضا - دار الأفاق، بيروت، ط الأولى ١٩٨١م.

- دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، د. عرفان عبد الحميد - مطبعة الإرشاد، بغداد، ط الأولى ١٩٦٧م.
- الدرر السنية في الرد على الوهابية، مفتي مكة المكرمة السيد أحمد بن زيني دحلان المكي (١٣٠٤هـ) - وقف الإخلاص، اسطنبول.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) - تحقيق مراقبة محمد عبد المعيد ضان - مجلس دائرة المعارف العثمانية، اسطنبول، ١٣٧٢هـ - ١٩٧٢م.
- الدر المنثور في التأويل بالمأثور، جلال الدين السيوطي - دار الفكر، بيروت.
- دعوة التوحيد .. أصولها .. الأدوار التي مرت بها .. ومشاهير دعائها، د. محمد خليل هراس - المطبعة العصرية، بيروت، ط الأولى ١٩٩٧م.
- دَفْعُ شُبُهَةِ التَّشْبِيهِ بِأَكْفِ التَّزْيِيهِ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي الحنبلي (٥٩٧هـ) - بتحقيق وتعليق محمد زاهد بن الحسن بن علي الكوثري (١٣٧١هـ) - المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة.
- دفع شُبُهَةِ مَنْ شَبَّهَ وتمرد ونسب ذلك إلى الإمام أحمد، تقي الدين أبو بكر بن محمد الحسيني الحصني (٨٢٩هـ) - دار إحياء الكتب، القاهرة، ١٣٥٠هـ.
- دمية القصر وعصرة أهل العصر، أبو الحسن علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب الباخري (٤٦٧هـ) - الشاملة.
- الديباج المذَّهَّبُ في معرفة أعيان علماء المذهب، برهان الدين إبراهيم بن فرحون اليعمري المالكي (٧٩٩هـ) - الشاملة.
- الذخيرة، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس القرافي المالكي (٤٨٤هـ) - تحقيق محمد حجّي - دار الغرب، بيروت ١٩٩٤م.
- ذم التأويل، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (٦٢٠هـ) - تحقيق بدر بن عبد الله البدر - الدار السلفية، الكويت، ط الأولى ١٤٠٦هـ.

- السنة، عبد الله بن أحمد بن حنبل، (٢٩٠هـ) - تحقيق د. محمد سعيد سلم القحطاني - دار ابن القيم، الدمام، ط الأولى ١٤٠٦هـ.
- السنن الكبرى، الإمام البيهقي، وفي ذيله الجوهر النقي، علاء الدين علي بن عثمان بن إبراهيم المارديني الشهير بابن التركماني (٧٥٠هـ) - مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الهند، ط الأولى ١٣٤٤هـ.
- سير أعلام النبلاء، الحافظ الذهبي - تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط و حسين الأسد - الرسالة، بيروت.
- السيف الصقيل في الرد على نونية ابن زفيل، تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي السبكي (٧٥٦هـ)، ومعه تبديد الظلام المخيم من نونية ابن القيم، للكوثري - المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد العُكري المعروف بابن العماد الحنبلي (١٠٨٩هـ) - دار الكتب العلمية.
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي (٤١٨هـ) - تحقيق د. أحمد سعد حمدان - دار طيبة، الرياض ١٤٠٢هـ.
- شرح البيقونية، محمد بن صالح العثيمين - دار العلم، القاهرة.
- شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس القرافي المالكي (٦٨٤هـ) - تحقيق صدقي جميل العطار - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
- شرح حديث النزول، تقي الدين بن تيمية - منشورات المكتب الإسلامي، بيروت، ط الرابعة ١٩٦٩م.
- شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح العثيمين - مدار الوطن للنشر - بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، الرياض ١٤٢٥هـ.

- الصحاح في اللغة، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (٣٩٣هـ) - نشمنة.
- صحيح ابن خزيمة، الإمام أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة تُسَمَّى النيسابوري (٣١١هـ) - تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي - مكتبة الأعضي. الرياض، ط الثالثة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- صحيح البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (٢٥٦هـ) - دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط الثانية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- صحيح مسلم، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٦١هـ) - مشتركة: دار الجيل بيروت، دار الأفاق الجديدة، بيروت.
- الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتّزّيه، د. محمد أمان بن علي الجامي، (رسالة ماجستير) - الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٠٨هـ.
- صفات التابعين وأهل الكتاب وأهل السنة والجماعة، عبد الملك علي الكليب - دار الأرقم الكويت، ط الثانية ١٩٨٦م.
- صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة، علوي عبد القادر السّقّاف - دار الهجرة، الثّقة، السعودية - ط الثانية ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م
- صفة الصفوة، ابن الجوزي - تحقيق محمود فأخوري، د. محمد رواس قلعجي - دار المعرفة، بيروت، ط الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- الصلة، أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الأندلسي (٥٧٨هـ) - الشاملة.
- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة، ابن القيم - تحقيق د. علي بن محمد الدخيل الله - دار العاصمة، الرياض، ط الثالثة ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- الضعفاء الكبير، محمد بن عمر العقيلي (٣٢٢هـ) - تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي - دار المكتبة العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤٠٤هـ.

٣٣٠ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽ ﷾ ﷿ ﻻ ﻻﺗﻨﺼﺮ ﻻﻫﻞ ﺍﻟﺴﻨﺔ ﻭﻛﺸﻒ ﻣﺬﻩﺏ ﺃﺩﻋﻴﺎﺀ ﺍﻟﺴﻠﻔﻴﺔ

- الضعفاء والمتروكين، ابن الجوزي، ٥٧٩هـ - تحقيق عبد الله القاضي - دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ.

- طبقات الحنابلة أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد (٥٢٦هـ) - تحقيق محمد حامد الفقي - دار المعرفة، بيروت.

- الطبقات السنية في تراجم الحنفية، القاضي تقي الدين عبد القادر بن محمد التميمي الغزي (١٠١٠هـ) - الشاملة.

- طبقات الشافعية، ابن قاضي شعبة أبو بكر بن أحمد بن محمد الأسدي (٨٥١هـ) - تحقيق د. الحافظ عبد العليم خان - عالم الكتب، بيروت، ط الأولى ١٤٠٧هـ.

- طبقات الشافعية الكبرى، الإمام الحافظ تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (٧٧١هـ) - تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، د. عبد الفتاح محمد الحلو - هجر للطباعة والنشر والتوزيع، السعودية.

- طبقات الفقهاء الشافعية، شيخ الإسلام الحافظ أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الكردي الشهرزوري المعروف بابن الصلاح (٦٤٣هـ) - تحقيق محيي الدين علي نجيب - دار البشائر الإسلامية، بيروت.

- طبقات الفقهاء الشافعيين، ابن كثير - تحقيق د. أحمد عمر هاشم، د. محمد زينهم محمد عزب - مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

- الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري (٢٣٠هـ) - دار صادر، بيروت.

- طبقات المفسرين، جلال الدين السيوطي - تحقيق علي محمد عمر - مكتبة وهبة، القاهرة، ط الأولى ١٣٩٦هـ.

- طبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأدنوري، من علماء القرن الحادي عشر الهجري - تحقيق سليمان بن صالح الخزي - مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط الأولى ١٩٩٧م.

- العبر في خبر من غبر، الحافظ الذهبي - تحقيق د. صلاح الدين المنجد - مطبعة حكومة الكويت، ط الثانية ١٩٨٤م.
- عثمان بن سعيد الدارمي ودفاعه عن عقيدة السلف»، محمد أبو رحيم - (رسالة ماجستير) - جامعة أم القرى ١٤٠٣هـ.
- عجائب الآثار في التراجم والأخبار «تاريخ الجبرقي»، عبد الرحمن بن حسن الجبرقي (١٢٣٧هـ) - دار الجليل، بيروت.
- العرش، الحافظ الذهبي - تحقيق محمد بن خليفة التميمي - مطبعة أضواء السلف، الرياض، ط الأولى ١٩٩١م.
- العرش وما روي فيه، محمد بن عثمان بن أبي شيبة (٢٩٧هـ) - تحقيق محمد بن حمد الحمود - مكتبة المعلا، الكويت، ط الأولى ١٤٠٦هـ.
- العظمة، أبو الشيخ عبد الله بن محمد الأصبهاني (٣٦٩هـ) - تحقيق رضاء الله بن محمد المباركفوري - دار العاصمة، الرياض، ط الأولى ١٤٠٨هـ.
- عقائد الأشاعرة في حوار هادئ مع شبهات المناوئين، د. صلاح الدين الإدلبي - دار السلام، القاهرة، ط الأولى ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (٣٢٨هـ) - الشاملة.
- عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن، حمود التويجري - تقيظ وتزكية عبد العزيز بن باز - دار اللواء، الرياض، ط الثانية.
- عقيدة أهل السنة والجماعة، محمد بن صالح العثيمين - الشاملة.
- عقيدة التوحيد وما يصادها أو ينقضها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع وغير ذلك، د. صالح الفوزان - جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت.
- العقيدة الصحيحة ونواقض الإسلام، عبد العزيز بن باز - دار الوطن، الرياض.

- الفتح المبين في طبقات الأصوليين، عبد الله مصطفى المراغي - مطبعة أنصار السنة المحمدية، مصر ١٩٧٤م.
- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ - دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الفتوى الحموية الكبرى - دراسة وتحقيق حمد بن عبد المحسن التويجري - دار الصميعي، الرياض، ط الأولى، ١٩٩٨م.
- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى (٤٢٩هـ) - دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، د. غالب بن علي عواجي - دار لينة، مصر، ط الثالثة ١٩٩٨م.
- فصل الخطاب في مذهب محمد بن عبد الوهاب، وهو نفسه «الصواعق الإلهية في الرد على مذهب الوهابية»، سليمان بن عبد الوهاب الحنبلي النجدي - القاهرة.
- القاضي أبو يعلى وكتابه مسائل الإيمان - دراسة وتحقيق سعود بن عبد العزيز الخلف - دار العاصمة، الرياض، ط الأولى ١٤١٠هـ.
- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، أبو حامد الغزالي - تحقيق سلمان دنيا - دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٨٢هـ.
- قرة العين بشرح ورقات إمام الحرمين، الإمام أبو عبد الله محمد بن محمد الرعيني المالكي المشهور بالخطاب (٩٥٤هـ)، مع لطائف الإشارات شرح نظم الورقات - طبعة الحلبي، القاهرة.
- قول السلف في الصفات الخبرية، شيخنا أبو هاجر، د. رشوان أبو زيد الأزهرى - تحت الطبع.
- الكامل في التاريخ، أبو السعادات مجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير الجزري (٦٠٦هـ) - الشاملة.

- المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، الحافظ ابن حبان - تحقيق محمود إبراهيم زايد - الشاملة.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (٨٠٧هـ) - دار الفكر، بيروت ١٤١٢هـ.
- مجموعة عقائد السلف - الشاملة.
- المجموع شرح المذهب، الحافظ النووي - الشاملة.
- المجموع الثمين من فتاوى ابن عثيمين (مجموع فتاوى وسائل) - جمع وترتيب فهد بن ناصر السليمان - دار الوطن للنشر، الرياض.
- مجموع الفتاوى، تقي الدين بن تيمية - تحقيق أنور الباز وعامر الجزار - دار الوفاء، السعودية، ط الثالثة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- مجموع فتاوى عبد العزيز بن عبد الله بن باز (١٤٢٠هـ) - جمع وترتيب محمد بن سعد الشويعر - ط الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، السعودية.
- مجموعة فتاوى ومقالات متنوعة لعبد العزيز بن باز، جمع د. محمد بن سعد الشويعر - جماعة تحفيظ القرآن الكريم بالوشم، ط الثانية ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية، محمد بن صالح العثيمين - تحقيق أشرف عبد المقصود - مكتبة طبرية، الرياض، ط الأولى ١٩٩٣م.
- مذكرة على العقيدة الواسطية، محمد بن صالح العثيمين - مدار الوطن للنشر، الرياض.
- المستدرك على الصحيحين، الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن البيهقي المعروف بالحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ) مع تعليقات الحافظ الذهبي - الشاملة.
- المسند، الإمام أحمد بن حنبل - تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون - مؤسسة الرسالة، ط الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

- مسند البزار، الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري البزار (٢٩٢هـ) -
 الشاملة.
 - معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، محمد بن خليفة التميمي - أضواء
 السلف، الرياض.
 - معجم البلدان، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي - دار الفكر، بيروت.
 - معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي [٥١٦هـ)
 - تحقيق محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش - دار طيبة
 للنشر والتوزيع، السعودية، ط الرابعة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
 - الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (٣٩٠هـ) مع فروق اللغات
 لنعمة الله الجزائري (١١٥٨هـ) - تحقيق: بيت الله بيات - مؤسسة النشر الإسلامي
 التابعة لجماعة المدرسين بقم، إيران ٢٠٠٠م.
 - المعجم الكبير، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (٣٦٠هـ) - تحقيق:
 حمدي عبد المجيد السلفي - مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط الثانية، ١٤٠٢هـ -
 ١٩٨٣م.
 - المغني في الضعفاء، الحافظ الذهبي - تحقيق د. نور الدين عتر - الشاملة.
 - مفتاح الأصول في بناء الفروع على الأصول، الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الإدريسي
 التلمساني المالكي (٧٧١هـ) - المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة.
 - المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، الحافظ شمس الدين
 محمد بن عبد الرحمن السخاوي (٩٠٢هـ) - دار الكتاب العربي، بيروت.
 - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري
 (٣٢٤هـ) - بتحقيق هلموت ريتز - دار إحياء التراث العربي، بيروت.
 - مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون - الشاملة.

- الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (٥٤٨هـ) - بتحقيق محمد سيد كيلافي - دار المعرفة - بيروت.
- من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين، علي بن محمد المصري - دار البيارق، لبنان، ط الأولى ١٩٩٧م.
- مناقب الشافعي، الإمام البيهقي - الشاملة.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني (١٣٦٧هـ) - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ط الثالثة.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي - دار صادر، بيروت، ط الأولى ١٣٥٨هـ.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، الإمام شرف الدين النووي - دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- منهج الأشاعرة في العقيدة، د. سفر بن عبد الرحمن الحوالي - مكتبة العلم، القاهرة.
- منهج السلف في فهم النصوص بين النظرية والتطبيق، السيد محمد بن علوي المالكي الحسني - المكتبة العصرية، بيروت.
- المنهل الروي في مختصر علوم الحديث النبوي، بدر الدين بن جماعة - تحقيق د. محيي الدين عبد الرحمن رمضان - دار الفكر، دمشق، ط الثانية ١٤٠٦هـ.
- موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع، د. إبراهيم بن عامر الرحيلي - مكتبة الغرباء، ط الأولى ١٤١٥هـ.
- موقف السلف من المتشابهات، د. محمد عبد الفضيل القوصي - دار البصائر، القاهرة.
- ميزان الاعتدال، الحافظ الذهبي - تحقيق علي محمد البجاوي - دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- نزهة النظر شرح نخبة الفكر، ابن حجر العسقلاني - دار العلم، القاهرة.

